

عبد الرحمن منيف

شرق
المتوسط

رواية



شرق المتوسط

المؤلف: عبد الرحمن منيف
الكتاب: شرق المتوسط (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: آب / أغسطس 2026
الطبعة الأولى 1975، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (، PDF، Pub وMobi/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ«ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

عبد الرحمن منيف
شرق المتوسط

رواية

الفهرست

7.....	تقديم متأخر لكنه ضروري.
25.....	1-.....
73.....	2-.....
143.....	3-.....
191.....	4-.....
245.....	5-.....
297.....	6-.....

تقديم متأخر لكنه ضروري

قد يكون زائدا، وربما متأخرا، كتابة تقديم لرواية في طبعتها الثانية عشرة، وبعد مرور ربع قرن على صدورها الأول!

لكن لهذه الرواية بعض المبررات التي يجدر ذكرها، لأنها تضيء جوانب يحسن النظر إليها رغم مرور الزمن.

كتبت «شرق المتوسط» عام 1972، وقبل أن تُنشر لي أية رواية سابقة. ولما كنت غير متأكد، بالمقدار الكافي، أن تصبح الكلمة الروائية وحدها طريقتي في التواصل مع الآخرين، نظرا لأن «الموال» السياسي كان لا يزال يراودني في ذلك الحين، ولأن جرح حزيران كان ساخنا، وكان يُفترض أن يكون الرد على الهزيمة عملا سياسيا مباشرا، وبالتالي اعتبرت الكلمة الروائية هدنة، يعود بعدها كل إنسان إلى الموقع الذي يعتبره أكثر ملاءمة له؛ إضافة إلى جهلي، أو عدم درايتي الكافية، برد الفعل الذي قد ينجم عن كتابة رواية تتناول أحد أبرز المحرمات: السجن السياسي؛ علاوة على التوجس الذي يراود من يدخل عالما جديدا، ومعتما، يجهل مسالكه؛ وأخيرا احتمال المنع الذي يمكن أن يواجهه كتابا وكتابا في بدايته الأولى... لهذه الأسباب كنت رقيقا على نفسي أثناء كتابة «شرق المتوسط»، أي لم أقل كل ما يجب أن يُقال حول عالم السجن السياسي، وما يتعرض له السجين من قسوة ومهانة في الزنازين الممتدة على كامل حوض المتوسط الجنوبي والشرقي، والتي تتزايد وتتسع سنة بعد أخرى، مما

جعل الرواية توحى ولا تحكى، تُشير ولا تتكلم.

ليس هذا كل شيء، فالرواية، حين صدرت، قوبلت بموقفين يكادان يكونان متعارضين، موقف القارئ الذي يريد أن يعرف أدق التفاصيل عن عالم السجن السياسي، وموقف السلطات التي رأت مجرد الاقتراب من المحرمات، وعلى رأسها السجن السياسي، تعديا على وجودها وهيبتها، وتاليا فضحا لممارساتها.

ولأن عددا كبيرا ممن يقرأون له صلة بالسجن السياسي، تجربة ومعرفة، أو اقترابا، فقد أعتبر أن ما قيل في هذه الرواية غير كافٍ، لأن واقع الحال أدهى وأمر مما كتب، وبالتالي كان من الواجب كشف الغطاء كاملا عما يحصل في السرايب، وفي العتمة، إذا أردنا فضح السجن السياسي ومقاومته، تمهيدا لإلغائه.

أما السلطات العربية، أو من يقرأ لها، فاعتبرت الخوض في مثل هذه الموضوعات عملا يجب الوقوف في وجهه تمهيدا لإسكاته. ونظرا للتجربة المكتسبة لهذه السلطات، علاوة على ما يصدر إليها من «خبرة» وأساليب وأدوات، فقد كانت بداية المقاومة الادعاء أن الأمر لا يعنيها، وإنما يعني الدول الأخرى، خاصة وأن الرواية جاءت بصيغة التعميم، أي أن شرق المتوسط، مع إنه لا يسمى مكانا بذاته لكنه يعني كل دولة تحديدا. ولذلك، وحين كان يجري الحديث

عن شرق المتوسط كانت كل دولة تنظر إلى الأخرى باعتبارها المعنية، أما هي فبريئة مما يقال. مع أن العثور على «شرق المتوسط» الرواية، في بعض الحالات، وفي أكثر الأماكن كان دليلاً جرمياً، وتالياً قرينة تُدين من يعثر عليها لديه!

أكثر من ذلك، كانت هناك محاولات عديدة للتعامل مع هذه الرواية وتحويلها إلى شريط سينمائي، لكن بعد أن تقطع المحاولة شوطاً تتوقف، لأن لا أحد يريد أن يعترف بوجود هذه المشكلة لديه. ورغم أن بعض محاولات نقل الرواية إلى السينما اتسم بالمكر، لإبعاد الشبهة، كأن يُقترح تمويه أو تغيير لهجة الحوار، بحيث تظهر مختلفة بمقدار عن اللهجة السائدة في ذلك البلد، أو كأن يتم اختيار تضاريس جغرافية مغايرة، لتشي أن البلد المقصود ليس ذاك الذي يجري فيه التصوير، إلا أن المحاولات كلها انتهت إلى الرفض، وكان كل بلد في شرق المتوسط يقول في نفسه: من أكبر الأخطاء أن يأتي الإنسان بالدب إلى كرمه!

وهكذا ظلت شرق المتوسط تطبع وتقرأ عند تخوم اللون الأصفر، أي ليست رواية ممنوعة إلا في عدد من بلدان شرق المتوسط، وليست مسموحة إلا بمقدار في أغلب البلدان الأخرى، لأن التجربة أثبتت أن الكتب حين تمنع تصبح أكثر رواجاً، وبالتالي يقبل على قراءتها الكثيرون، أما السماح بالكتاب ضمن حدود وقيود، فيجعله موجوداً وغير موجود في

أن واحد، مع فرض الحرم لكي يبقى الكتاب هكذا، أي عدم التعامل معه بأساليب وأشكال يتيح له أن يصبح مادة للدراسة، أو لأن يتحول إلى صيغ جديدة لكي يصل إلى جمهور أوسع. وهكذا ظلت «شرق المتوسط» تواصل رحلتها الخاصة، وقد استطاعت أن تفجر اللون الأصفر، وتجعله يضئ الكثير مما حوله، وجعلت الكثيرين يقبلون على هذا اللون من الأدب.

لقد كان لـ«شرق المتوسط»، مع روايات أخرى، شرف التأسيس لما سُمي فيما بعد: أدب السجون. وأصبح هذا الميدان واحدا من الميادين الأساسية للرواية العربية، كتابة وموضع إقبال واهتمام القراء. كما انتبه الكثيرون في الوطن وخارجه، خاصة بعد أن ترجم عدد من هذه الروايات إلى لغات عدة، إلى ظاهرة السجن السياسي، ومحاولة فضح الانتهاكات التي يعاني منها جميع الناس وعلى امتداد الأرض العربية.

إن فضح إحدى الظواهر السلبية يشكل البداية لمواجهتها، تمهيدا للتخلص منها، ويأخذ الأمر شكل صراع، وهذا الصراع ربما يطول، وقد يتعرج. ويبدو أننا اليوم في إحدى مراحل الصراع الأكثر قسوة، وفي أحد المنعرجات الأشد خطورة.

إذ رغم تزايد الكتابات الروائية وغيرها، المطالبة بالديمقراطية، فإن القمع ذاته الذي تمارسه السلطات زاد عن ذي قبل، وأخذ أشكالا أشد قسوة وتمويهًا، لأن الفئات العربية

الحاكمة تزايد خوفها، وأصبحت أكثر ضيقا بالمعارضة، وبالتالي أكثر لجوءا إلى القمع، وأصبح السجن السياسي الوسيلة لحماية وجودها واستمرارها. ولأن أفق العمل السياسي، بمعنى التعدد والاختلاف، ضاق مقارنة بفترات سابقة، كما أن الغرب تحديدا زاد في دعم الفئات الحاكمة وطور أساليب عملها، وأمدّها بكل الوسائل الجديدة للقمع. وهكذا أصبحنا الآن أمام ظاهرة جديدة وخطيرة: العنف.

إن ظاهرة العنف التي تنتشر بشكل متزايد في بلدان شرق المتوسط وجنوبه نتيجة طبيعية لغياب الحرية، ولضيق الحاكم العربي بأية معارضة، ولعدم احتمال أن تكون هناك إمكانية للتعدد والاختلاف. لقد أدى ذلك إلى تقليص أو إلغاء العمل السياسي بمعناه الحقيقي والعصري، أي لا اعتراف بالآخر، وبالتالي لا إقرار ولا تسامح مع الرأي المختلف. الأمر الذي أدى إلى غياب الأحزاب، وتراجع المشاركة الشعبية، وإلى انعدام الرقابة أو المحاسبة. كما أن الصحافة الحرة والمستقلة فقدت الجزء الأكبر من دورها، وكذلك العمل النقابي ومؤسساته، إذ أصبحا مجرد أشكال هزلية مهمتهما تأييد السلطة ورفع الشعارات.

في مواجهة انسداد آفاق العمل السياسي الشرعي، برز العنف كمحاولة لاستعادة الحقوق، وشق طريق جديد، فدخلت المنطقة في حالة من الصدام الدموي، والعنف المتبادل، مما سبب نزيفا سوف يؤدي إلى المزيد من التآكل والضعف

والريبة المتبادلة.

إن مقاومة العنف السائد حاليا لا تكون إلا بالاعتراف المتبادل وبالحرية. فالإقرار بوجود الآخر، وحقه في التعبير والمشاركة، بداية للحوار. أما الحرية، وصيغتها العملية هي الديمقراطية، فمن شأنها أن تكسر حالة الاستعصاء القائمة الآن بين الناس والأنظمة الحاكمة، لأن الديمقراطية ليست مجرد كلمة أو شعار، وإنما هي صيغ عملية تحددها طبيعة المرحلة، وهي ممارسة يومية ضمن قواعد وعلاقات يلتزم بها طرفا اللعبة الديمقراطية.

الديمقراطية المطلوبة، والتي يجب أن تسود في المرحلة الراهنة، تعني حرية التعبير والتمثيل والمشاركة في اتخاذ القرار، أي تعترف بالتعدد وإمكانية الاختلاف وأيضا تبادل السلطة. كما تعني الحق في تكوين الأحزاب والجمعيات والنقابات، وحرية المعتقد والسفر والمراسلة. هذه الحقوق التي يطالب بها تستند إلى شرعة حقوق الإنسان، كما يجب أن ينص عليها في القوانين المعمول بها في أي بلد، ولا بد أن تخضع إلى الرقابة الفعلية التي يمارسها المجتمع المدني، من خلال مؤسساته. وفي حال الاختلاف أو التجاوز هناك القضاء المستقل الذي يوكل إليه تطبيق القانون وتفسيره، والذي يجب أن يخضع إليه طرفا العلاقة، وأن يحترما أحكامه، وفي حال عدم كفاية هذه القوانين، ووجود الرغبة بتغييرها أو تعديلها، فيجب أن يتم ذلك بإرادة الناس، ومن خلال تعبيرهم الواضح

والصريح، لأن هذه القوانين سوف تُطبق عليهم.

في حال غياب هذه الحقوق، أو عدم الاعتراف بها من الذين يحكمون، أو في حال تجاوزها، فإن العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم يختل، وقد يصبح لاغيا، وبالتالي يصبح الطريق المفتوح أمام المضطهد، المحروم من الحقوق، هو العنف، كوسيلة لتعديل الصيغة المختلة، وهذا ما جعل السجن السياسي «يزدهر» في هذه المجتمعات، وهذا ما جعل لاحقا وسيلة التعبير الأساسية، وربما الوحيدة، للوصول إلى الحقوق لمن حُرِّموا منها: العنف. أما نتائج هذه العنف فتنعكس على المجتمع كله، لأنه في حال غياب الاعتراف المتبادل، وفي حال لجوء السلطة إلى إلغاء الآخر، فإن رد الفعل يكون موازيا للفعل، ومن ذات الطبيعة. وهكذا يدخل المجتمع كله في نفق مظلم، يؤدي إلى الخوف والشلل والتآكل والنفاق، وتصبح لغة العنف هي اللغة السائدة، أو ربما وسيلة الحوار الوحيدة.

لا بد لكل مجتمع من رؤية تاريخية، والرؤية التاريخية تقتضي أن يؤخذ بعين الاعتبار واقع التطور ومهمات المرحلة، كما يجب أن يكون المستقبل حاضرا في كل خطوة، لأن قوة النظام، أي نظام، تعتمد على رضى الناس ومشاركتهم. والرضى والمشاركة يتطلبان صيغا للتعايش والتفاعل والانسجام والتعاون، الآن، وفي المستقبل، ضمن اتفاق أو توافق تفرضه شروط المرحلة والمكان. أما السير

باتجاه معاكس، اعتمادا على القوة والإملاء، وباستغلال الموقع أو اللحظة الحالية وحدها، فإن من شأن ذلك أن يلغى المستقبل ويعقده، حتى بالنسبة لمن يملك القوة الآن.

ولا تقل عن هذا الخطر محاولة حرق المراحل التاريخية أو تجاوزها، من خلال التوهم بتوفر شروط الانتقال إلى مرحلة جديدة، اعتمادا على القوة، وبإلغاء الآخر.

إن أيا من هذين الموقفين يخلق المناخ لتوالد الاضطراب ثم العنف، وهذا ما يفسر الكثير من الأخطاء التي حصلت في عدة أماكن، وفي عدة مراحل، كما يفسر القمع، ثم العنف الذي يقابله.

«شرق المتوسط» استندت إلى نقطة أساسية هي: شرعة حقوق الإنسان، هذه الوثيقة التي مضى على إقرارها ومهرها بالتواقيع والمصادقات ما يزيد على خمسين سنة، ومع ذلك فإنها أكثر الوثائق التي تعرضت إلى التحدي والعبث والمخالفة، الأمر الذي يجعل الإنسان يتساءل: هل تم إقرار هذه الوثيقة لكي تتفنن كل دولة بمخالفتها؟ أو هل أن هذه الشرعة غير قابلة للتحقيق، خاصة في بلدان العالم الثالث، وتحديدًا في بلدان شرق المتوسط، وبالتالي لا بد من تجاوزها حكما؟

انطلاقا من هذه النقطة، ولأن الفنانين كالأطفال، يحسون ويفكرون ويحلمون، فكثيرا ما صدقوا الكلمات التي يسمعونها

أو يقرأونها، كما أنهم يرون الأشياء على حقيقتها، حتى لو كانت عارية، ولذلك لا يترددون في أن يقولوا للآخرين كل شيء، بما فيها عري الملك إن رأوه عاريا فعلا!

«شرق المتوسط» صدقت، أو حاولت أن تصدق، شرعة حقوق الإنسان، وقالت أن تلك الوثيقة التي حملت هذا الكم الهائل من التوقع، يجب أن تتجسد على أرض الواقع، ومن يخالفها يكون خارجا على القانون، ولا بد من فضحه، كما فعل الطفل مع الملك.

بدأت الرحلة اعتمادا على هذه القناعة، فكان السجن السياسي، وكانت فجيرة الاكتشاف، ثم قسوة التجربة.

وفي محاولة لخداع النفس، أو تحدي الاكتشاف، كان الحلم. والحلم دائما هو مظلة للأيام التي ستأتي. وهكذا بدأت رحلة ضياع جديدة في الأمكنة البعيدة، إلى أن جاءت صدمة الواقع، لتقول بصوت عال: الآخر، البعيد، إذا تيقظ ضميره، وعرف الحقيقة، يمكن أن يكون عاملا مساعدا، لكنه لا يمكن أن يكون بديلا، لأنه لا يحك الجلد إلا الظفر، وهكذا كانت العودة، عودة المواجهة ثم الغياب، لكن الضوء الذي اشتعل لا يمكن أن ينطفئ، وبديل نجمة واحدة انفجرت نجوم كثيرة.

وإذا كانت «شرق المتوسط» لم تقل كل ما يجب، للأسباب التي ذكرت في البداية، ولأن السجن السياسي لم يوف حقه، فقد كانت الضرورة تقتضي العودة إلى هذا العالم الكثيب

والقاسي، فكانت رواية ثانية، هي «الآن... هنا» أو «شرق المتوسط مرة أخرى». ومع ذلك لا يزال الموضوع بحاجة إلى مساهمات الكثيرين، لأن عار السجن السياسي أكبر عار عربي معاصر، وقد يفوق الهزائم العسكرية من بعض الجوانب، لأنه لا يمكن أن يواجه الهزيمة العسكرية، وحتى الهزيمة السياسية، إلا مواطن حر، يعرف معنى الوطن، ويعرف كيف يدافع عنه. وما دام هناك سجن سياسي فسيبقى المواطن مقيدا، وبعض الأحيان غير معني، لأن الحرية والوطن شيء واحد.

الأمر الأخير الذي تجدر الإشارة إليه في هذا التقديم، أن الأشياء في أزمنة سابقة كانت أكثر وضوحا، ويمكن التمييز بينها دون عناء. أما اليوم فقد اختلطت الأزمنة والألوان إلى درجة يصعب معها التمييز.

ما نراه اليوم يتجاوز كل حد، ويفوق أي تصور أو وصف، لأن اختلاط المقاييس الألوان لا تقتصر على شرق المتوسط، إذ أصبحت سمة عالمية بعد أن رفع شعار النظام الدولي الجديد، بزعامة الولايات المتحدة. فالقاموس الأمريكي هو الذي يعطي للتصرفات والأحداث والأشخاص والمواقف الصفات التي يجب أن تكونها. فالنضال المشروع ضد الظلم والقهر، سواء أكان ضد نظام أو حاكم، يأخذ أكثر من اسم وأكثر من صفة، تبعا لمدى الفائدة أو الضرر الذي يعود على الولايات المتحدة ومصالحها، ولذلك اختلطت المفاهيم أكثر

من السابق، وأصبحت للكلمات معاني متعددة. ووضع مثل هذا، إذا استمر فترة إضافية، يمكن أن يدمر العالم، ويخلق إشكالات غير قابلة للحل.

إننا اليوم في مواجهة حالة مركبة، في مواجهة خصمين، الأول محلي والثاني من وراء البحار، وهناك تحالفات من أنواع متعددة يُراد لها أن تحكم سيطرتها، لضمان مصالح الطرف الأقوى، لكن القوة على المستويين المحلي والعالمي لا يمكن أن تدوم طويلا، أو أن تغير في مسار التطور التاريخي، الأمر الذي يستوجب أن يكون العقل والمستقبل من جملة المقاييس والاعتبارات التي يجب التفكير فيها قبل فوات الأوان.

يحدثنا التاريخ عن أنظمة وإمبراطوريات لم يكن لقوتها حدود، لكن التاريخ ذاته يقول لنا كيف انهارت وتفككت، وكم دفعت ثمنا غاليا وهي تبارح مواقعها، نتيجة عدم أخذ المستقبل بعين الاعتبار.

يجب أن يقف العقلاء، الذين يشعرون بالمسؤولية، وأولئك الذين يفكرون بالمستقبل ضد التزييف والمخادعة والفجيرة، ولا بد أن يكون الإدراك حاسما أن القوة لا تحل مشكلة، يمكن أن تؤجلها، لكن لا يمكن أن تلغيها.

«شرق المتوسط» حين كتبت عام 1972، كانت تواجه خصما محليا، أما بعد ربع قرن، فإن ما يواجه الناس على

أحواض كل البحار، عدو يتصور أن القوة، والقوة وحدها، يمكن أن تحل جميع المشاكل، وعلى الناس في كل مكان أن يتحولوا إلى عبيد مرة أخرى، أن يطيعوا ويمثلوا لكل ما يراد أن يفرض عليهم.

بداية التصدي لأزمة الدمار الكلي، على المستويين المحلي والعالمي، أن تخلق المواطن الحر، والشعب المرتبط بالوطن، لأن في حال وجودهما يمكن أن تولد الثقة ويتجدد التعاون، كما ينبثق الأمل أن يكون الغد أفضل من اليوم، والبداية... البداية أن تكون للكلمات معانيها.

الرسالة الصغيرة التي أرادتها «شرق المتوسط» أن يكون على هذه الأرض شعب حر، لأن في حال وجود الحرية يمكن أن ينام الحاكم والمحكوم ملء الجفون. أما إذا كان الحاكم وحده «حرا»، فإن دولاب الزمن لا يتوقف عن الدوران، وقد يجد نفسه من افتراض إنه مالك القوة والحرية أكثر الناس ضعفا وعبودية، ولن يفيد الندم أن جاء متأخرا.

هل لا تزال «شرق المتوسط» صالحة وقادرة، بعد ربع قرن، على محاوره العقول والضمان، هنا... والآن؟ إنه سؤال التحدي.

عبد الرحمن منيف

بيروت، تشرين الثاني 1998

مواد من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

المادة الأولى: يُولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلا وضميرا، وعليهم أن يُعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء.

المادة الثانية: لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر...

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الخامسة: لا يعرض أي إنسان للتعذيب أو للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

المادة العاشرة: لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن ننظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا...

المادة الثانية عشرة: لا يعرض احد لتدخل تعسفي في

حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات
على شرفه أو سمعته...

المادة الرابعة عشرة: لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد
أخرى أو يحاول اللجوء إليها هرباً من الاضطهاد.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

لتلمس جفوني كل هذه... حتى تعرفها
حتى تتجرح
وليحتفظ دمي بنكهة الظل الذي
لا يستطيع السماح بالنسيان

نيرودا

-1-

... أشيلوس تهتز، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبح، والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بسأم ثم يتركها فتسقط، ترتجف فوق الماء، ثم تذوب وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى، أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة، أما الأيدي بحركتها البلهاء، فقد بدت كالخرق البالية تهزها ريح لا ترى، والوجوه، آه لشد ما كانت تعاسة الوجوه: عيون صماء، ثقيلة، أفواه مطاطية تشبه فروج الحيوانات بحركتها المتشنجة، وأشيلوس المجدولة من العبث والدوي تزحف، تبتعد.

ميناء الشقاء ويا ليته ميناء اللاعودة، آخر قطعة من الوطن، وآخر أوراق خضراء وأنين!

ثلاثون سنة، ثلاثون صيفا وخريفا، ثلاثون ربيعا، أما الشتاء فقد جاء الآن، جاء في الثلاثين.

كان يوم الأربعاء 17 تشرين الأول.

أول غيوم تمر فوق السجن، كانت هشة صغيرة، تشبه الغبار. ومع مرور الدقائق تتمزق وتتلاشى، وكان في داخلي شيء يتمزق.

لماذا انفجر في داخلي ذاك العواء الأجرى؟ لماذا؟ لماذا؟

قلت لنفسي، بلغة فلسفية مدنسة:

على الأرض حيوان، له قامة طويلة، وأذرع قريبة الشبه

بأذرع الشيمبانزي، أما الساقان فضامرتان وفي نهايتهما أقدام عريضة، أما في القمة فكتلة صلبة مغطاة بالشعر، وفيها ثقب عديدة، في المقدمة وعلى الجانبين. وهذا، الحيوان يستخدم الثقب الأمامي، وخاصة العريض في أسفل الكتلة الصلبة، في القرض والغناء والصفير، وأيام الشتاء يستخدمه للتنفس، أما أيام الربيع فإنه يستعمله لغرض واحد فقط، وهذا الغرض لم يعرف له بعد اسم محدد، قال بعضهم للدفاع عن النفس، وقال آخرون للقتل، أما الكثرة الغالبة، فتؤكد أن الاستعمال الوحيد لهذا الثقب في زمن الربيع، يكون للقتل أو للانتحار!

هناك اعتقاد واسع أن هذا الحيوان سوف ينقرض خلال فترة قصيرة، وفي حال انقراضه ستحتفل الحياة، لأن ذهاب هذا الحيوان بداية السعادة الحقيقية على الأرض!

متى نشأ هذا الحيوان؟ كيف نشأ؟ لا أحد يعرف. أفاقت الحيوانات، ذات يوم، فإذا بها تجد نفسها أمام شيء جديد، لم تألفه من قبل. وقد حاولت كثيرا أن تقيم صلات عاقلة مع هذا الحيوان. وافق في البداية، لكن مع الأيام، أخذ يوقع بينها ويقتلها، وقد تسبب في انقراض أعداد كبيرة من الحيوانات الرائعة التي كانت تعيش على الأرض، ولما تكشفت نوايا هذا الحيوان الجديد، ابتعد عنه الجميع، ذهبوا بعيدا وتركوا له كل شيء، لكنه لم يكتف، بدأ يحاصر الحيوانات ويقتلها في كل مكان، ولما لم يجد شيئا يقتله أخذ يقتل بعضه. وهكذا بدأت المجازر، بدأت منذ آلاف السنين ولم تتوقف. ولذلك يعتقد أن

انقراض هذا الحيوان، أصبح وشيكا خاصة وان الطرق التي يتبعها في القتل الآن تطورت كثيرا، وأصبحت فعالة بحيث لا تخطئ أبدا!

تبرير فلسفي أبله، سأشد السيفون في المرحاض واترك كل شيء ينسحب إلى تحت: أفكاري الفلسفية، أحلامي، ماضي، اسمي، كل شيء، نعم كل شيء. يكفي ما أحمله في دمي من آثار، الذرات الصغيرة التي تسري في الدم لا يمكن أن تغادرني أبدا، من قال لي هذا؟ طبيب السجن؟ ورقة التحليل؟ لم أعد أصدق، البحر مقبرة كبيرة، وأسعد الناس من يجد له قبرا في بطن حوت، هناك الدفء، السوائل اللزجة، والمساحة الرحبة المساعدة على الحركة، كانت الأرض صغيرة، رطبة، لها رائحة المراحيض دائما، ولا تعرف لون الشمس والأشجار...

تقرير الطبيب واضح. قال لي وهو يثبت نظارته بيده اليسرى، ثم ينزل اليد إلى فكه لكي يرسم ابتسامة شجاعة: «الحالة ببساطة: روماتيزم في الدم. النسبة حتى الآن لا تهدد الحياة، لكن العناية القصوى ضرورية».

وقبل أن أغادر العيادة كتب لي وصفة وأوصاني باهتمام أن أكف عن أشياء كثيرة: القلق، التعب والانفعالات الحادة!

أما قائمة الطعام التي اقترحها، فقد امتلأت إصرارا قبل أن أغادر العيادة على مخالفتها، قلت لنفسى: «هذه القائمة لحيوان

مدلل، لعصفور من عصافير رمزي، أما القائمة التي تتفق مع مزاجي فتختلف كثيرا! وسوف أطبقها بدقة!».

يوم الأربعاء 17 تشرين الأول، كنت أحزم أغراضي في الحقيبة البنية، وأغادر السجن.

يوم الثلاثاء 11 تشرين الأول، الساعة السادسة مساء انتهى كل شيء. كانوا أربعة في غرفة مدير السجن، كنت أعرف اثنين منهم فقط، أما الاثنان الآخران فكنت أراهما لأول مرة، قال لي الآغا:

– جاءت الموافقة على إطلاق سراحك، وغدا قبل الظهر ستكون حرا.

ولم أفاعأ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملا، ولم يبق إلا أن أغادر السجن. لم أقل شيئا. ظلت انظر إلى الأرض. أحسست أن عيونهم تتابع حركاتي. كان جو الغرفة ثقيلًا برائحة الدخان والأحاديث السابقة ودقات ساعة الحائط. رفعت رأسي لأنظر إلى الآغا، كانت على شفته ابتسامة صغيرة. لما التقت نظراتنا، قال:

– كان يجب أن تفعل هذا قبل أربع أو خمس سنين. تأخرت كثيرا، دفعت ثمن ذلك من صحتك.

ظلت صامتا، كنت أحس نفسي عاريا، والآغا يطفئ سجائر على جسدي. أحسست أنه يطفئ واحدة تحت أبطي، واحدة

بين اليتي. واحدة في ذقتي. دقت الساعة الخامسة والنصف. نظرت إلى الساعة حين دقت. قال أحد الرجلين اللذين لا أعرفهما:

— نحن آسفون، لم نكن نريدك أن تبقى هنا طوال هذه المدة، لكن عنادك هو السبب.

نظرت اليه وابتسامة تعب تطوف في رأسي ولا تظهر على شفتي، ولم أقل شيئاً. كان صوت الرجل الغريب، الثاني، وهو يتحدث إلي صلباً، يشبه صوت مذيع ينقل احتفالاً، قال دون أن ينظر:

— الآن. نريد أن نبدأ بداية جديدة، عفا الله عما مضى، لا أحقاد ولا عداوات، ماذا تقول؟

هذا السؤال أعرفه، لم يُوجه إلي من قبل، لكنه بدا لي مألوفاً حتى لكأنني سمعته مرات كثيرة.

أجبت بصوت بدا متلجلجاً:

— أريد أن أذهب للعلاج.

— سنسمح لك، لكن ما رأيك في أن تبعث لنا بأخبار الطلبة؟

— لا أستطيع، صحتي لا تساعدني.

— قدر ما تساعدك صحتك. تقرير كل أسبوع، كل

أسبوعين.

– لا أستطيع. لا أستطيع.

قال الآغا وقد آلمته طريقتي في الرفض:

– لا تكن عنيدا فتخسر كل شيء، الدنيا والآخرة.

قلت لهم بلهجة حزينة:

– هل أستطيع أن أجلس؟

وجاءتني الأصوات، صوتان ثلاثة أصوات، معا، تطلب إلي بالراح أن أجلس، قال الآغا وهو يتصنع المرح ويضحك:

– الواحد منا لا يزال يتصورك سجيناً. اجلس يا أخي، تفضل.

وقام من وراء مكتبه، قدم لي سيجارة وأشعلها، وكتعبير أخير عن المودة ضرب كتفي بصدافة!

قبل السادسة بقليل، ومع رشقات الشاي المعطر والدخان، أصبح الموقف شديد الوضوح. قال الرجل الغريب الذي يشبه صوته رنين النقود، يلخص الاتفاق:

– غدا قبل الظهر تخرج، وبعد أن تستريح يوما أو يومين تبدأ معاملة السفر. خلال الشهر الأول لا نريد منك شيئا، وحتى في الشهر الثاني. وبعدها سترجع وتجد الوظيفة أمامك، وإن شاء الله يكون تعاوننا مثمرا ولصالح الوطن. المهم أن

ترجع بسرعة. اتفقنا؟

— سنرى!

ودقت الساعة السادسة، الآغا نظر إلى ساعته ثم إلى ساعة الجدار، ضرب الطاولة إشارة إلى أن المقابلة انتهت، وقبل أن أستدير، وأهز رأسي، كان الباب خلفي قد انفتح. قال الآغا يخاطب الحاجب:

— قل لأمر الحرس أن الأستاذ سينتقل إلى مكان آخر.

الأربعاء 17 تشرين الأول، الساعة الحادية عشرة، الشمس في الساحة دافئة، الحقيبة تقف على حرفها بانتظار توقيع الأوراق. مر الآغا، ولما رأي مستعداً، وقد ارتديت ملابسني بما فيها الرباط الأحمر، غمز بعينه وهو يبتسم، وتابع طريقه دون أن يقول كلمة! قبل الثانية عشرة كنت أطرق باب البيت. طرقت طرقة خفيفة ثم دفعته ودخلت. وجدت أختي تنشر فراشا مبلولاً، وإلى جانبها امرأة عجوز لا أعرفها. لما رأني أنيسة انفتح فمها من الدهشة والفرح. هجمت علي وبدأت تقبلني وتبكي، ثم ابتعدت عني خطوة صغيرة وأخذت تتأملني، الدموع تتساقط من عينيها بغزارة، كانت دموعاً حزينة وفرحة، وظلت تنظر إلي!

رفعت يدي إلى عيني وضغطت دمة انزلقت دون أن أستطيع إخفاءها. التفت إلى المرأة العجوز وقلت بألفة متروية:

– مرحبا عمة!

وقبل أن تجيب سألتها:

– كيف الحال عمة!

هجمت أنيسة علي مرة ثانية، وكأنها اكتشفتني من جديد، وهذه المرة من صوتي. احتضنتها وقبلتها على خديها ورأسها. ودون أن أنظر إليها مباشرة قلت بصوت أردت أن يكون متماسكا:

– أريد أن أنام يا أنيسة، أنا متعب، متعب جدا.

ومرة أخرى تراجعت لتتطلع إلي. كان في عينيها تساؤل ودموع. قالت وهي تلتقط الحقيبة وتشير إلي أن أتبعها:

– تأكل ثم تنام.

– أنيسة لست جائعا، أريد أن أنام!

بعد خطوتين التفتت، ظلت تسير وهي تنظر إلي. كانت تخاف أن لا أتبعها، وتراءت لي ضحكة صغيرة تغزو ملامحها. شعرت وأنا أرى الضحكة نهاية كل شيء. كدت أتوقف. أكدت أصرخ. ضربت الأرض بقدمي، مثل عادتي قبل خمس سنين حين كنت ادخل الدار. تطلعت أنيسة إلي بلهفة وهي تتذكر. اتسعت ضحكتها، لما أصبحنا على باب الدهليز قالت:

– غرفتك نظيفة وجاهزة!

– لا أريد أحدا، لا أقارب لا جيران، اتركني فقط لأنام!

لم أتم رغم كل ما فعلته أنيسة. أحضرت لي بيجامة حامد، أحضرت لي ملابس داخلية نظيفة، وضعت علبة سجائر ومنفضة إلى جانب السرير، أنزلت الستارة وابتسمت وهي تغادر الغرفة، قالت بعد لحظة، وهي تفتح الباب مرة أخرى:

– سأتركك تنام حتى الغروب.

– حتى الغروب؟

– إلا يكفي؟

– لا أعرف، سأنهض وحدي!

الفراش لامع، نظيف. نحيت الوسادة ووضعت رأسي على طرف الفرash. تقلبت. نظرت إلى الجدران. توقفت عيناى على صورة الشهادة، كانت في زاويتها اليسرى صورتي، نهضت على رؤوس أصابعي، صعدت فوق المقعد ونظرت طويلا إلى الصورة، «ليس بيننا أي شبه»، ذهبت إلى المرأة وتطلعت إلى وجهي: شعرات بيضاء في الفودين وفي منتصف الرأس، صفرة خفيفة في العينين، تجاعيد «لمن هذا الوجه؟» وعدت أنطلع إلى الصورة في زاوية الشهادة، قلت في نفسي: «ان أحد هذين مات».

رجعت لأنام. كانت رائحة الفرash لذيدة أول الأمر، غطيت

وجهي وأغمضت عيني وتنفست. لا يمكن أن يكون هذا الفراش لي، مات صاحب هذا الفراش. تغيرت الرائحة، إنها الآن رائحة اليود، رائحة المستشفيات، لا أطيق أن أبقى الغطاء فوق رأسي، عدلت الوسادة وحاولت أن أنام، ولكن الأفكار بدأت تغزو رأسي بطيش:

ماذا يفعلون الآن؟ الساعة تجاوزت الواحدة. في الواحدة تبدأ القيلولة. الغداء ينتهي في الثانية عشرة والرابع، لم يكن غداؤنا يحتمل أكثر من عشر دقائق. حسيب لا يتخلى عن عادته أبدا يجب أن ينام بعد الظهر، وعصمت ينام وامجد؟ وإبراهيم؟ هذا اليوم لن يناموا، لن ينام أحد لديهم قصة. أعرف الكلمات التي سيقولونها، سمعتها مرتين من قبل، في الليل سيبكي أمجد، بكى في المرتين السابقتين، لم يكن يتكلم، ويكره الكلمات التي يقولها إبراهيم.

عندما ينام الجميع، سيبقى أمجد مستيقظا تحت الضوء المنسكب من السقف، في الغرفة الواطئة المسودة، وسوف يبكي، لا يرضى أن يراه أحد يبكي. لما رأيته آخر مرة انتفض وجهه من الألم وتقلص، ثم استدار بسرعة، لم أر في حياتي إنسانا مثل أمجد. لن يقول عني كلمة واحدة، ستضيق عيناه ويسافر بعيدا.

والآخرون سيقولون الكلمات الكبيرة إياها. لماذا أخاف الآن؟ لم أكن أشعر بالندم قبل أن أوقع، لكن ارتجفت حين

سمعت صوت القلم، كانت رائحة الحبر كريهة، ونزت يدي عرقاً. قال الآغا وهو يسحب الورقة بعد أن وقعها:

— لن نقول لأحد قبل أن تخرج، وأصحابك لن يتأخروا!

قلت لنفسى: هل كان نفس التوقيع الذي أوقع به دائماً؟! لم أوقع منذ وقت طويل، آخر توقيع كان قبل أربع سنين، في ذلك الوقت قرأت كل ما كتبوه بدقة قبل أن أوقع، غضبوا، شتموني، قالوا جزع:

— انظروا يخاف أن يوقع على أقواله!

نظرت إليهم يحقدون أن أقول كلمة واحدة، وبعد أن قرأت كل ما كتبوه بدقة اعترضت على بعض الكلمات، نظروا إلي بسخرية وقال أحدهم:

— اشطب الكلمات التي لا تريدها ووقع.

شطببت جملتين ووقعت. وقبل أن أغادر الغرفة تلقيت بصقة كبيرة على وجهي، وضربة انغرست في أليتي اليسرى من عبد. أما حاتم فقد فتح باب القبو ودفعني بقوة. أتذكر أنني كنت انظر إليه بحقد، لكن بعد ثانية كنت انظر إلى أرض القبو وقد انتشرت فوقها قطرات الدم الذي سال من الجرح الذي أصابني في شفتي.

لا ليس ذات التوقيع. لقد كان توقيعى هذه المرة سريعاً، ونهايته طويلة مضطربة. سحب الآغا الورقة والابتسامة تملأ

وجهه. أعطاني سيجارة وقال بصوت بطيء:

— الله يصلحك، لو وقعت هذه الورقة لكنت قبل أربع سنين خارج السجن، لكن على الإنسان أن يدفع ثمن ما يتعلم!

هزرت رأسي دون أن أقول كلمة. الآغا الذي أراه الآن يختلف عن الذي عرفته طوال خمس سنين. بدا لي هذه المرة سمينا، بالكرش الصغير الذي يبرز فوق الحزام، أما يده فقد رأيتها أشد بياضا وثقلا. ولم ألحظ خلال الفترة الماضية كلها أن له شامة في منتصف رقبته.

ماذا يقولون عني؟

أول المساء تبدأ الحفلة، هكذا حصل في المرتين السابقتين. في المساء يهدأ السجن ويروق مزاج الآغا بعد القيلولة الطويلة.

آخر مرة، بعد أن وقع نجيب تلك الورقة اللعينة، جمعنا الآغا. كان يمسك بيده عصا صغيرة، ظننتها من الخشب أول الأمر، لكن عندما سقطت على الأرض سمعت رنينها، كان يجلس وراء مكتبه وفوقه تماما الضوء المنسكب من مصباح أخضر، يجعل لون الغرفة باردا. تأملنا طويلا وهو يقلب عينيه بيننا، وبعد أن درس وجوهنا بإمعان، هز رأسه وقال لأمجد:

— اقترب يا ناعم، يا حلو، واقرأ هذه الورقة بصوت عال!

كان أمجد يتعثر وهو يخطو نحو الورقة الممدودة، وبدأ وجهه بلون البنفسج من الحمرة والضوء الأخضر، وما كاد يقرأ الكلمات الأولى: «أنا نجيب سالم، أوقع بمنتهى الحرية والرغبة»، حتى تغير صوته، تقلص من الألم، وكاد يعيد للأغا الورقة. ابتعدا عن عينيهِ وهز رأسه، لكن صرخة الأغا جعلته يرتجف، صرخ الأغا وهو يقفز من وراء مكتبه:

— اقرأ يا كلب، اقرأ بصوت عال.

تردد أمجد لحظة، كأنه يريد أن يعاند، أن يقاوم، لكن الوحزة الشديدة من عصا الأغا، انغرزت في صدره وجعلته يتابع.

ولم يكتف الأغا، جعلنا نقرأها واحدا بعد آخر. حتى إذا انتهينا استدار وجلس وراء الطاولة من جديد، وهو يحس بزهو لم يستطع أن يخفيه، تطلع إلينا من جديد وقال بصوت بطيء ناعم:

— من سيوقع الآن؟

ولما ظللنا صامتين، هز رأسه بثقة وتابع:

— الجميع على هذا الدرب إذا لم يكن اليوم فغدا، وأنتم الذين ستخسرون. غدا ستوقعون وتظلون في السجن، أما الآن فالذي يوقع يخرج من مكتبي رأسا إلى الشارع وأنا سأوصل ثيابه إلى بيته، هل توقعون؟ هل يوقع أحد؟

ولم يعجبه أن نضل صامتين هكذا، ضرب بعصاه طرف الطاولة ووقف. اقترب منا، دار حولنا ثم عاد من جديد واستند بظهره إلى المكتب، قال يوجه إلي الكلام:

— اسمع يا أحول.. والله لأرجعك لـ..."(1) أمك، ولك مر عليّ مثلك، وأكبر منك، وكلهم ركعوا، اترك يباسة الرأس ووقع!

لم أجب ولم أنظر إليه، التفت إلى أمجد وقال:

— وأنت يا عود النعناع، يا حبيب امه، إلا تريد أن توقع؟ وغير لهجته: أمك فاتحة مناحة، كل يوم تأتي إلى السجن وتقول: صغير، لا يفهم شيئاً، ورطه أولاد الحرام، نعم ورطوه، اتركوه بجاه النبي، الله يطول عمرك، اتركوه!

وعاد إلى لهجته الأولى: إذا وقعت، أنا الذي سأذبح خروفا لك وللدولة أمك!

وإبراهيم وسامي وعزيز، لم يترك إلا غاشيمة. قال كل الشتائم التي يعرفها. تصورته حين رأيته أول مرة قبل خمس سنين، إنه لا يعرف كيف يرد التحية، بدا لي خجولاً، بصوته الناعس وعينيهِ اللتين لا تثبتان في مكان، لكنه الآن يشبه سمساراً أو قواداً بصوته الذي يلعلع.

لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض، وبدأ يخاطبنا بحذائه. وضع قدمه على رقبة إبراهيم من الخلف وداس بكل

ثقله حتى وقف فوقه، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء. أما عزيز الذي كان في بداية الصف، فقد دفعه بقوة فاصطدم بنا ثم انقلب على وجهه!

الأغا يستعد الآن. يغادر المكتب قبل الثانية، ويعود في الخامسة، وبعد الخامسة بقليل تبدأ الحفلة التي سأكون بطلها هذه المرة. سيقول لهم:

— قلت لكم مئة مرة ستوقعون الواحد بعد الآخر. كما رأس بقي حتى الآن؟ دور من غدا؟ سنقرأ الفاتحة على روحك يا أمجد غدا أو بعد غدا؟ وأنت يا إبراهيم؟ برهوم، عيوني يا برهوم. أمجد كن شجاعا لكي يقيموا لك تمثالا في الساحة الرئيسية! لكن إذا مت يا برهوم لمن ستترك الأربع بنات وأمه؟ حرام عليك يا بطل، غيرك أرجل منك ووقع، وأنت إلى متى؟

كنت بنظره أكثرهم يياسة رأس، قال لي أكثر من مرة، وهو يحاول معي:

— وقع وسترى بعينيك. وحتى تتأكد يمكن أن تبقى في السجن إلى أن يوقعوا. إذا رأوا توقيعك لن يصمدوا طويلا، أنا متأكد من ذلك، اسمع مني يا رجب، أنا أنصحك كأخ، تحملت كثيرا اترك غيرك يتحمل. لا تكن مجنوننا.

السقف يدور. لم تعد هذه الغرفة غرفتي، والسريير لم أره من قبل، لم أنم عليه. كل شيء تغير. أنا الذي تغيرت.

أمس في مثل هذا الوقت كنت إنسانا آخر، حتى السادسة كنت قويا، لا، قبل السادسة بدقائق. كنت أنظر إلى الساعة أريدها أن تكون الشاهد الوحيد على النهاية. رغم كلماتهم الحلو كانوا أعدائي. الأربعة كانوا أعدائي. كانت الساعة هي المخلوق الوحيد المحايد. قبل السادسة بأربع دقائق، خمس دقائق. أمس في مثل هذا الوقت كنت قويا. صحيح أنني قلت لهم شيئا قبل بضعة أيام، لكن من يستطيع أن يمنعني من التراجع؟

تغدينا في الثانية عشرة. جاؤوا بالغداء قبل موعده بقليل. وضعت سيخ الكباب في رغيف وبدأت ألوكه، كان الأكل لذيذا. لما عدت بعد الموافقة على التوقيع، لم أستطع أن أمد يدي إلى بقايا الأكل، كان الكباب باردا لزجا، وكانوا قد انتهوا من الأكل. نظروا إلي طويلا، وإبراهيم هو الذي سأل.

— تأخرت. تأخرت كثيرا، ماذا حصل؟

كانوا جميعا ينظرون إلي ، كانوا ينتظرون أن أقول تلك الكلمات اللعينة. ولا أدري كيف قلت:

— مراجعة الطبيب!

— الطبيب بعد الظهر؟

هكذا سأل عزيز وهو يبعد الصحن ويستدير نحوي.

قلت بفارغ صبر:

– انهارت صحتي ولم أعد احتمل.

وصمتنا. عادوا إلى التفكير عدا أمجد، ذهب إلى الصفيحة وبال. كان ينظر إلي بعيون مرعوبة وكأنه أحس. وعندما عجزت عن الأكل، وحملت الصحن لأضعه عند الباب، انقلب من يدي. هل كانت يدي ترتجف؟ هل فضحني وجهي؟ ألا وهو يأخذ الورقة ويطويها، قال بصوت واضح:

– لن تبدأ الحفلة إلا بعد أن تغادر السجن بست ساعات، مثل العادة!

لم أنم طوال الليل، رأيت أمجد ثلاث أو أربع مرات يرفع رأسه مثل ذئب وينظر إلي. لم أدعه يراني مرة واحدة مفتوح العينين. كنت ذئبا عجوزا اغمض عينا وأفتح الأخرى، كنت أستدير وأهرب من مراقبته. في المرة الرابعة اقترب مني تماما، وأخذ يرقب تنفسي، كان يقول باستمرار:

– لا يمكن معرفة النائم إلا من تنفسه. النائم يتنفس بانتظام.

كان يفعل ذلك عندما يصيبه الأرق ويريد إنسانا يتحدث معه. كان يمر فوق رؤوسنا، ينظر إلى الوجوه تحت الضوء الكهربائي، ليتأكد، حتى إذا رأنا نياما واصل طريقه وجلس عند الباب الحديدي المغلق، أما إذا لقط أيا منا، وقد خانه النفس المنتظم، فيهزه هزات رقيقة حتى يوقظه. وبصوت أنيس يقول:

– سوف ننام طويلا، الموت والنوم متشابهان. لا فرق بينهما إلا أن الأول طويل والآخر قصير، إلا تنهض لنعيش فترة أطول؟

كانت عيونهم في الليلة الأخيرة تشع نارا. كانوا يحسون بطريقة ما أن شيئا قد حصل، يحسون بذلك من الهواجس، من طنين الأذان، وربما من الحزن الذي يأتي فجأة!

خيم علينا الحزن كظل ثقيل، فقدنا القدرة على أن نقول شيئا. كنت أريد أن أصرخ، أن أرتمي على كتف أمجد وأبكي، لكن عيونهم المشعة المتسائلة، بترت آخر الأفكار المشتركة التي تعطي تبريرا لأن أضحك، لأن أبكي، لأن أمسك بيد أي واحد منهم وأهزها كتعبير آخر عن شيء ما. قال لي إبراهيم وهو يتبول في الصفيحة، ودون أن يستدير نحوي:

– رجب، هل أعطوك دواء جديدا؟

لماذا تذكر إبراهيم مرضي وهو يتبول؟ حرقه البول المزمدة التي تنهشه؟ علاقة غامضة بين البول ونهايتي؟ لا بد أن افكارا خطيرة مرت في رأسه تلك اللحظة، والا لماذا سأل بهذه الطريقة؟

قلت له انذره بالنهاية، لعله يفعل شيئا:

– الأدوية لا تجدي، انتهيت يا إبراهيم!

ودون أن يزرر بنطاله تقدم ونظر إلي تلك النظرة
المنزوعة من الداخل، والتي لا تعبر عنها العين إلا كمرآة
صدئة مقشورة. أرخيت عيوني بسرعة لئلا يكتشف فيهما
الدوي. وأمجد، نظر إلينا نحن الاثنين بسرعة وضرب الحائط
برجله وتمدد.

كانت الليلة الأخيرة صعبة كالولادة الميتة. توقفت الساعة
التي في يدي، أصبحت كحجر أسود مشلول، ينبئ بالنهاية.
تملكني الخوف، حتى ظننت أنهم لن يتركوني على قيد الحياة.
تصورت أنني لو نمت لحظة واحدة، فسوف يطبقون علي
ويقتلونني. قلت امتحن أفكار أمجد:

— إلا يزال الأرق صديقك الدائم؟

ابتسم بحزن وهز رأسه دلالة الإيجاب. سألته من جديد:

— مثل قبل أو أكثر؟

— لم يتغير شيء!

إذا أمجد ليس صغيرا بالمقدار الذي تصورته، يعرف أنني
تغيرت وسوف يكون أول من يطبق علي رقبتني. أمجد
يحارب هواجسه بالأرق، بالتطرف، لو تساهل لحظة واحدة
لسقط، لا يريد أن يقول ما يشتعل في رأسه. قلت لنفسني
بإصرار: التطرف بداية السقوط.

وعدت أدور في الوجوه. لماذا تشع عيونهم بكل هذا

العمق؟ إنها ليست العيون التي ارتحت فيها ليالي الشتاء والصيف، لا تشبهها أبدا. تبدو الآن قريبة الشبه بعيون الحرس: مرتابة، جسورة، عدوة.

وعادت كلمات عصمت تدور حول رقبتى كحبل مجدول،
الآن أتذكر كلماته كلها!

لما رجعنا من الحفلة الأخيرة بعد سقوط نجيب، كانت مخارج الحروف وهو ينطقها متداخلة غامضة، لكن الكلمات كانت أشد وضوحا من جميع الحروف التي تكونها. نظر في وجوهنا طويلا، كانت نظرتة حاقدة، قاسية. أمسك أمجد من كتفه وهزه، وهو يقول:

— كنت تدافع عنه! قلت لكم مرة إنه خائن، لقد رأيتم الآن بأعينكم لم يوقع صك نهايته فقط، كان توقيعه صك نهايتنا كلنا. ومن يدري ماذا قال لهم؟ والأوراق؟

وتخلصنا تلك الليلة من الأوراق، أحرقناها قريبا من صفيحة البول. كنت الحارس، أرقب الباب الخارجي، لكي انبههم إذا جاء أحد. اتفقنا أن تحرق الأوراق واحدة بعد أخرى. فإذا جاء الحرس أغرقناها في صفيحة البول، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنع قراءتها. قال إبراهيم وهو يتطلع إلى الصحيفة:

— الحرق لا تأتي إلا في الوقت المناسب. تعالوا بولوا، بولوا عني وعنكم، حتى إذا جاء الشيطان، أغرقنا الأوراق،

ومنعناه من قراءتها!

ولم يهدأ عصمت. لم يُشارك في أي عمل. ظلت شتائمها تزحف لأذاننا حتى ساعة متأخرة تلك الليلة. الكلمة التي ظل يرددها دون تعب، وهو يشد على يده:

– لو عرفت لقتلته! يمكن أن أقتله بسهولة، أضع المخدة فوق وجهه وأجلس بكل ثقلي حتى يموت.

ويحرك يديه بطريقة عصبية ويضرب الجدار ويتابع وقد تخلل صوته غضب حزين:

– بيدي هاتين يمكن أن أخنقه، إنه يسكر الآن، لقد باعنا، آه لو عرفت في الوقت المناسب، لو عرفت لقتلته.

عصمت يعني كل الكلمات التي يقولها. طلب مرة من الحارس أن ينادي أمر الحرس، رفض الحارس، طلب منه ثانية، ورفض، وفجأة رأينا عصمت يضع رجله في بطن الحارس ويرفسه بقوة. سقط الحارس وأغمي عليه، ودفعنا كلنا ثمن الضربة حبسا انفراديا لمدة واحد وعشرين يوما. ومرة أخرى بصق عصمت في وجه أمر الحرس. قال له وهو يرفع الصرصار من صحن الفاصولياء:

– هذه لحمتكم أيها الخنازير؟

ولم ينتظر الجواب، بصق في وجهه وسالت البصقة الكبيرة حتى الوسام الذي كان على صدره، الوسام الذي كان مفخرة

للحراس الأفراد. وظل عصمت في الحبس المنفرد خمسة وأربعين يوما.

هل قتل عصمت أحدا من قبل؟ كيف تجتمع في جسده تلك الأرواح المتناقضة؟ يضحك مثل طفل، يأكل مثل حيوان جائع، أما إذا بدأ الإضراب عن الطعام، فإنه يكون علينا أكثر قسوة بمئات المرات من الحرس.

كان يهدد، يشتم، يجلس عند الباب الحديدي، وأكوام الأكل تتجمع مثل القذارة، فإذا مد أحد يده إلى رغيف، أمسك بيده، وهزها بقوة خارج القضبان لكي يسقط رغيف الخبز.

لو أطبقت يدا عصمت حول رقبتني لخرجت الصرخات الصغيرة من فمي مثل طائر مخنوق. سيدوم الأمر لحظة، ثم تلتوي رقبتني واسقط. يداه قويتان. لا يتباهى مثلما يفعل إبراهيم، لكن لا يقترب منه احد. حاول إبراهيم مرة أن يكاسره، كان وجه عصمت ضاحكا، وبيده الأخرى السجارة لا ترتجف، أما وجه إبراهيم فقد احتقن للحظة قصيرة، ثم صرخ، وسقطت حبات العرق مع اليد المتخاذلة.

لا يمكن أن ينام أحد في هذه الليلة، إنها ليلة احتفالية كبرى بالنهاية، يفقد الزمن معناه، تتحول الأفكار إلى أمطار شتائية ضاجة متلاحقة. هل كانت الأنفاس منتظمة فعلا تلك الليلة؟

وأجد عندما قام إلى الصفيحة، هل كان ليتأكد أنني مت، حتى يعطي الإشارة فتبدأ عملية قتلي؟ كان أجد يترنح وهو

يمشي، كان يريد أن يبقي عينيه مغمضتين ليعاود النوم من جديد، أو ليوحي إلي بثقة سريعة تدفعني إلى النوم، لكي تبدأ عملية القتل!

أما شخير عصمت فكان متناوبا كصريير آلة معطوبة، قلت في نفسي: «انه نائم لكن الشخير يتغير» راقبته طويلا، استمر منتظما لفترة، ثم تغير، تغير أكثر من مرة. وسألت نفسي: «هل يمكن للإنسان أن يشخر بإرادته، حتى ولو كان نائما؟ إلا ينهض إذا هزته اليد المكلفة بإعطاء الإشارة؟» ولم أستطع النوم لحظة واحدة. كانت الأفكار تتراكم في رأسي مثل خيول مجنونة، وكانت فكرة الموت تسيطر علي. كنت أقول في نفسي «سينهض عصمت ليقوم بالواجب دون إبطاء». وبتصميم أرعن كنت أجيب: «لن أتركهم يفعلون ما يريدون دون أن اصرخ، دون أن احتج. صرخة صغيرة، صرخة واحدة في الليل الساكن توقظ الحجر. والحراس لن يكونوا بعيدين إلى الدرجة التي يمكن أن أموت قبل أن يصلوا. حتى لو تأخروا قليلا فإنهم سيصلون في الوقت المناسب. لا يمكن أن يموت الإنسان خلال ثوان قليلة، القلب في منتهى القوة، يستطيع أن يقاوم، أن ينتظر، والحراس، قبل أن يرجع صدى صرختي سيكونون فوق رؤوسنا، انهم ينتظرون، يتوقعون، والأغا لا بد أن يكون قد قال لهم شيئا، سوف يحافظون علي، أكثر من أي وقت سابق. لو مت فسيسجنون جميعا، سيكونون مسؤولين عن مقتلي».

الليل في بداية الشتاء، طويل. الساعة في ليالي الشتاء طويلة لدرجة إنها تجاوزت عشرات الساعات الصيفية، وإلا لماذا كانت الظلمة الكثيفة في الخارج؟

لماذا السكون الأخرق الذي لا تمزقه أصوات الصراصير أو سعال العنبر المجاور؟ أن احساسا غامضا يخيم على جو السجن، بانتظار نهاية إنسان، هل تكون نهايتي؟

لكنني لم أنته! لا، بل انتهيت. كانت عيونهم الضاحكة وهم ينظرون إلى الأغا يطوي نهايتي الورقة، كانت كلمات الرجل الغريب وهو يعرض علي التعاون معهم، نهايتي. لا لم أنته. المرض هو الذي قتلني. أريد أن أستريح مؤقتا، لم أعد قادرا. للإنسان قدرة معينة على الاحتمال ثم يتلاشى. وأنا هل ينكر أحد كم تحملت خلال السنوات الخمس؟ من منهم تحمل مثلي؟ أتحداهم جميعا. قل يا عصمت، هل تحملت أكثر مني؟ الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة أيام الشتاء، المنع من النوم، جميعنا تحملنا، ربما تحملت أكثر مني وأنت معلق، قضيت يوما زائدا. هذا ليس ذنبي، جسدي لم يعد يحتمل، أغمي علي مرات كثيرة، وآخر مرة لم يعد الماء البارد أو الصفعات كافية لإيقاظي، لإنهاء حالة الإغماء التي سقطت فيها. كان الفرق في الوزن بيننا يزيد على عشرين كيلو غراما، كان وزن عصمت يزيد على الثمانين وأنا لم أبلغ الستين في حياتي. ماذا أستطيع إذا إنها ر جسدي؟ إرادتي لم تتداع، لم تنهر في أي يوم، تحملت أكثر منهم، وهم

يعرفون ذلك تماماً، يتذكرون ذلك الغروب، كانت الجمعة، موعد الزيارة الأسبوعية، جاءت أختي وعمتي. أما أمي فلم تأت.

كانت أول مرة تتغيب. لم تقولاً لي كلمة واحدة. أحسست. صرخت أسألهما، بكت أختي فجأة وعرفت كل شيء!

كانت أمي تعاني من ارتفاع الضغط منذ فترة طويلة. قلت لها عشرات المرات: كفي عن زيارتي، لا أريد أن تريني هكذا. كانت تبتسم ولا تجيب، وتأتي.

في ذلك الغروب شعرت أنني وحيد لدرجة لا يمكن احتمالها. هم قتلوا أمي، ظلوا ينخرون في عقلها وقلبها حتى قتلوها.

ظلت أياماً عديدة لا أنام. كنت أسهو مثل طائر. انتابتنني آلام حادة في المعدة. تقيأت مرات كثيرة، حتى ظن الآغا أنني أصبحت لقمة سهلة. عرض علي أثناء مرضي أن أوقع وأخرج فوراً، بصقت في داخلي، وأنا أتلوى من الألم، وقلت له بجلافة:

— أموت ولا أوقع.

وهز رأسه بثقة، وطلب من أمر الحرس إعادتي إلى العنبر دون علاج.

لم تمت أم أي واحد منهم، أمي وحدها هي التي ماتت وأنا

سجين. لا أنكر أن اثنين منا كانا دون أمهات قبل السجن منذ وقت لا يتذكرانه، أما الآخرون، فإنهم ظلوا يتدفؤون بذاك الحنين الرائع، وهم يتذكرون أمهاتهم. كانوا متأكدين أن السجن سينتهي يوماً، ويعودون إلى بيوت تملؤها الأمهات بالدفء، والأمهات يعنين شيئاً خارقاً، شيئاً يعرفه أكثر من يعرفه أولئك الذين فقدوا أمهاتهم.

بعد وفاة أمي بسنة، سقطت هدى.

كانت هدى أقوى الآمال التي تشدني إلى عالم الحرية، كنت أتصورها مثل بطلة الأساطير، لا تمل أبداً من الانتظار. لكن لم تنتظر، قالت لي في آخر رسالة: «أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى إلى الأبد». أي نفع من الذكرى يا هدى؟ هل تدفئ السجن الذي لا يحلم إلا بساعة الحرية؟ هل يخرج من ليالي السجن الطويلة ليسقط في البرودة والفراغ؟

كانوا يعرفون علاقتي بهدى، لم يبق أحد إلا وعرف. كان كل شيء مباحاً بيننا في السجن. لم يقرأوا رسائلها مرة واحدة، لكنهم لم يتوقفوا عن السؤال، في كل مرة تأتي الرسائل. أنيسة هي التي تعرف كيف تُهرب الرسائل، كانت تضعها في غلاف قدر الطعام، تحت السجائر، في داخل أقراص الكبة. وبلهفة المجنون كنت أنتظر، حتى إذا وصلت الرسالة إلى يدي لا أمل من قراءتها، إلى أن تأتي رسالة

أخرى. كنت أحفظ رسائل هدى، وأقبلها في الليل، كنت أضعها تحت رأسي مثل تميمة مقدسة، وعندما نضطر لأن نحرق رسائلنا وأوراقنا، بين فترة وأخرى، خوف الهجمات المفاجئة والتفتيش، كانت روحي تحترق مع الرسائل. تمنيت لو أضرب أو أحبس انفراديا، لو أكنس مراحيض السجن كلها من أجل أن يوافقوا على أن تبقى لي رسائلها، لكن فكرة مثل هذه كانت تبدو مستحيلة، واضطر للمشاركة في حفلة الحريق التي تجري كل أسبوعين، وفي الظروف المفاجئة.

ضاعت هدى لأنني كنت سجيناً. لو كنت حراً لما انتظرت كل هذه السنين. كان باستطاعتي أن أقول لها «الآن يمكن أن نتزوج يا هدى» ونتزوج فعلاً. لو كنت طليقاً لما استطاع أحد من أهلها أن يحتج أو أن يقول كلمة واحدة، لكن ماذا تستطيع أن تقول لهم وأنا محكوم وراء جدران السجن لمدة إحدى عشرة سنة؟ هل يوافق احد على الانتظار طوال هذه المدة؟ هل يقتنع أهلها؟ كانت أمها تعرف علاقتنا، لكنها مثل كل الأمهات تريد لابنتها حياة لا يمكن للسجين أن يوفرها. وذهبت هدى. تزوجت. سألت أختي مرات كثيرة عنها، كانت إجابتها سريعة، عصبية، كأنها لا تحب أن أذكر اسمها.

أنا الوحيد بينهم الذي كانت تربطني بالعالم الخارجي علاقة من هذا النوع، وفقدتها. وهم: ثلاثة متزوجون ولهم أطفال، وثلاثة لا يعرفون عالم المرأة أبداً. حتى أن وليدا لم يكن يحب ولا يطيق حديثاً عن المرأة، كان يصرخ بجنون إذا سمع أحداً

يتحدث عن عالم المرأة الغني الرائع، كان يقول:

– السجن والمرأة لا يجتمعان، وبداية انهيار السجين أن يسيطر عليه شبح امرأة. كفوا عن هذا المرض أيها الثيران، اخصوا أنفسكم لينتهي عذابكم!

ولم اذكرها بعد تلك الرسالة. قلت لهم بأسى، في ليلة شتائية، بعد أن تلقيت آخر رسائلها:

– أصبحنا اليوم أربعة ضد ثلاثة، انتقلت الأغلبية للثيران الخسية!

دهشوا، استغربوا كثيرا. سألوني عند الغروب عن أخبار العالم الخارجي، وهم يقصدون أخبار هدى، قلت لهم بسرعة:

– العالم الخارجي ما زال يدور على نفس المحور، والثور لم يتعب لكي يغير وضع الأرض، وينقلها من قرن إلى آخر! لم يسألوا أكثر، ولم أتحدث، كنت أريد أن أتشرب العذاب على مهل، لكي أشعر بلذة الفقد وعذابه!

أما في الليل، والمطر يتساقط مثل قناديل مشعة في الساحة المضاءة، فقد قلت لهم، بعد الجملة الأولى التي كررتها بهدوء كأني ألقى كلمة:

– أرجو إلا تسألوني بعد اليوم عن هدى، لقد أصبحت امرأة مثل باقي النساء. وصمت لحظة تشربت خلالها الغصة بلذة مقهورة، ثم أضفت وأنا أحاول الابتسام: لقد تزوجت، لم

تتزوج بعد، قريبا سوف تتزوج.

جحظت عينا أمجد من الاستغراب والخوف، وكاد يقول شيئا، ولكي أقطع الطريق على أي تساؤل قلت:

– أرجو إلا تسألوني عنها مرة أخرى، لقد انتهت بالنسبة لي.

ضحك عصمت، كطفل، وقال يريد أن يغير الجو، فيجعله مرحا:

– تُقبل التعازي يومي السبت والأحد للرجال، والاثنين للنساء!

قال إبراهيم وشعور الظفر يسيطر عليه:

– أصبحت الآن ثورا جيدا، ويجب إلا تتخلى عن هذه الصفة طوال حياتك.

وعاد عصمت إلى جو المرح مرة أخرى. قال:

– لو فكرت زوجتي بالطلاق لأصبحت مطلقا منذ ثلاث سنين، ولأصبح لأولادي إخوان من فحل غيري!

كانوا يسخرون، وأنا كنت أتألم. لم يفقدوا زوجاتهم، لم يفقدوا هذا الانتظار الشديد الروعة، سيخرجون يوما لكي يروا أبناءهم الذين تركوهم صغارا، وقد كبروا واكتسبوا عادات لا يعرف أحد كيف اكتشفوها!

نعم سيكون أولادهم كباراً، الصغير منهم يزيد على إحدى عشرة سنة، أما الكبار فقد بدأت لحاهم تنمو، وبدأوا يغازلون الفتيات الصغيرات، وأنا من الذي ينتظرني؟

تحملت. انطويت على نفسي، وبدأت أحارب هدى التي علفت في دمي ولا أعرف كيف ظللت مضطراً لسؤال أنيسة عنها، كنت أسألها في أغلب المرات التي تزورني فيها، وأتلقى نفس الإجابات:

تزوجت. تزوجت وسافرت. عادت من السفر ولم أرها إلا بسرعة. يبدو أن هدى تفضل هذا اللون من الحياة: الراحة، والبعد عن المشاكل!

— ألم تقل لك شيئاً يا أنيسة؟ ألم تبعث معك رسالة؟

وتضحك أنيسة بحزن. تهز رأسها دلالة النفي، وبسرعة تسألني عن شيء ما لكي أكف عن ذكر هدى!

وصمدتُ بعد أن تزوجت هدى، صمدت سنيماً:

أما المرض اللعين فإنه لا يرحم.

سمعت صرير الباب. أغمضت عيني بسرعة لكي أواصل لذة العذاب. لم أكن أريد أن أرى أحداً، أو أسمع صوتاً. شعرت من الأقدام الناعمة، التي تشبه خطوات قطة، أن أنيسة دخلت الغرفة، شعرت بأنفاسها تقترب مني. تململت وأدريت ظهري. وقفت فوق فترة طويلة. كانت نظراتها تخترقني،

تمنيت أن أراها وهي تنتظر إلي دون أن أفتح عيني. هل مرت فوق شفتيها ابتسامة حزن؟ هل تراني أمامها مخلوقا حقيقيا يشبه باقي الناس؟ والانهيال إلا يبدو واضحا على وجهي؟ أنيسة لا تريد في الدنيا إلا أن تراني أمامها «أن أكون موجودا» دون أن تسأل عن سبب وجودي، عن الطريقة التي أصبحت فيها موجودا! أنيسة ورثت عن أمي الصفات الضعيفة، الضعيفة، أمي لم تورث إلا الصفات الضعيفة، نحن الاثنان ضعيفان، أمي وحدها القوية، حملت معها قوتها ورحلت، ولم تترك إلا الضعف. قالت لي أنيسة في المرات الأخيرة كلمات جعلتني أحس بالمرض أكثر من السابق. كانت تبكي، تتلمس خدي بخوف، تضع يدي بين يديها وتطيل إليها النظر.

أنيسة التي دمرت حياتي، جعلت أيامي الأخيرة في السجن جحيما. كانت تنقل إلي حقارات العالم الخارجي وانتهاءه!

— باسل جن، أصبح يدور في الشوارع عاريا. خالد فقد عينه نتيجة الضرب، وعينه الأخرى مهددة. ومحسن، إلا تتذكر محسن؟ لقد أصيب بالشلل. وعندما حملوه إلى البيت ورأته أمه ماتت!

أنور وعبد الكريم ونجيب يعيشون الآن بحرية. أنور تزوج قبل شهرين، وترك السياسة نهائيا. نجيب يريد أن يواصل دراسته، مر علينا قبل أيام وطلب مني أن أقول لك أن تتعقل. الجميع تركوا.

كانت أنيسة تحفظ قصص العالم وتنقلها إلي. غضبت مني شهورا طويلة، قلت لها بطريقة أبكتها:

– أنيسة إذا كنت تريدين أن تنقلي إلي هذه القصص، فلا تأتي إلي هنا مرة أخرى.

وجاءت مرات كثيرة، وظلت تنتظر إلي بصمت، وبعض الأحيان تبكي. أما إذا امتدت يدها إلي وجهي، تريد أن تتأكد من صلابة اللحم وتماسكه، فكنت أنزل يدها بعصبية. كنت أقول لها:

– أنا رجب، اللحم والدم، كل أعضائي سالمة، وليس في شيء مستعار.

كانت تسمع وتبكي. وعادت من جديد إلى قصصها: بدأت أول الأمر بقصص بعيدة لا تحمل مغزى ولا تريد من ورائها شيئا محددا، ولكن بعد فترة وصلت إلى قصص العذاب:

– خذ بالك يا رجب، ربما سمعت بالمحاكمة التي جرت الأسبوع الماضي، ضاعفوا المدة بالنسبة لجابر وأسعد، بعد أن تبين لهم وجود علاقات بينهم وبين الخارج.

وأطمئنتها بهزة رأس، بابتسامة، بكلمة عجولة، ولكن لا تكف.

– رجب، الله يستر عليك يا رجب، اسمع مني ولا تأخذ برأيي. أصبحت كبيرا وعاقلا ويمكن أن تقدر الذي يفيدك.

نعمان انتحر، ولكن الناس يقولون أنهم قتلوه، قتلوه بعد محاولة الفرار. خذ بالك يا رجب.

في الشهور الثلاثة الأخيرة، تغيرت لهجة أنيسة تماما.

– حامد اتصل بمدير الشرطة وقال له أن صحتك سيئة وبحاجة إلى معالجة في الخارج، رفضوا. قالوا: الحل الوحيد هو أن تقدم تعهدا بأن تترك العمل السياسي، وحامد لم يعد بشيء. ماذا تقول؟

– لكن يا أنيسة صحتي ليست سيئة لهذه الدرجة!

– آه لو ترى نفسك بالمرآة، لم يبق منك إلا الجلد والعظم، عيونك مصفرة، شفاهك زرقاء، آه لو ترى نفسك.

– العلاج الدفء، وعندي ملابس ثقيلة!

– العلاج أن يكون لك بيت، أن تنظم حياتك، تأكل بموعد، تنام بموعد. وهنا في السجن العذاب والبرد، أنت تعرف كل شيء أحسن مني.

وتصمت قليلا ثم تسأل من جديد:

– حامد يسأل ماذا تريده أن يقول لمدير الشرطة؟!

– أنا لم أطلب من حامد أن يتصل بأحد.

– ولكن أنا التي طلبت منه، أنا رجوته.

– وفري التعب، لا أريد شيئا.

– فكر بالأمر، ويمكن لحامد أن يؤجل الاتصال بمدير الشرطة إلى الأسبوع القادم.

– أنيسة لا أريد شيئاً، إذا تمكنت احضري لي قميصاً داخلياً من الصوف هذا كل ما أريد!

أنيسة فجرت عالمي، جعلته ذرات منشورة في فضاء لا نهاية له. قالت لي مرة، وهي تحاول أن تقتلني:

– أصبح لهدى ولدان. قبل شهر جاءها الولد الثاني. وقد سألت عنك.

– ولد ثان؟

– سموه عدنان.

– والأول.. كم عمره؟ وما اسمه؟

– اعتقد أن عمر الأول أكثر من سنة ونصف، وإذا لم أكن مخطئة، فإن اسمه راجي.

– راجي؟

– راجي!

– وماذا عندك من الأخبار غير ذلك؟

– والله لا أرى أحداً، صحتي انهارت، وحامد لم يعد يطيق أن يراني هكذا.

– وحامد، ما أخبار حامد؟

– يسأل أن كنت توافق على الاقتراح الذي عرضه مدير الشرطة!

– قلت لك ألف مرة لا أوافق، ولا حاجة لأن تتصلوا بأحد.

– وصحتك يا رجب؟ – راجعت الطبيب، وأعطاني دواء جديدا.

– وماذا تفيد الأدوية في مثل هذا الجو؟ الضرب، الإهانات، الإعدام! وسقطت من عينيها دمعة وهي تضيف: كل يوم بسنة يا رجب!

وبدأت أسقط. أصبحت الآلام تنتشر في جسدي مثل انتشار النار. كتفي الأيمن مشتتة من الألم. معدتي تخرج من حلقي كل يوم. رجلي اليمين رخوة وتحرك فيها الروماتيزم حتى أصبح المشي بالنسبة لي عذابا لا نهاية له. وأتلمس أعضائي عضوا بعد آخر لكي أتأكد. ثلاث أسنان منخورة، تسبب لي ألما هائلة، خاصة أثناء الليل. أنفي مزكوم بصورة تكاد تكون دائمة. صدري يخز، والسجائر لم يعد لها ذاك الطعم اللذيذ. وأصبح الفراش الدافئ، النوم دون كوابيس، القراءة، التطلع إلى واجهات المحلات، الركوب في سيارة عامة، أصبحت هذه الأشياء احلاما يومية تغزو رأسي، وأفكر فيها كأمنيات مستحيلة!

وأنيسة لا تتعب ولا تكف:

— حلمت أول أمس أنك خرجت من السجن، لم تخرج ماشيا، خرجت على نقالة إسعاف، تصور يا أخي أنني لم أستطع أن أذوق طعاما منذ أول أمس، وطوال الوقت أبكي، وقد غضب حامد ووجه لي كلمات قاسية!

وأصمت. لكن العالم الخارجي يظل في رأسي كتلة نار راکضة. هل هذا العالم موجود فعلا؟ هل ما زال الناس يذهبون إلى دور السينما؟ يضحكون؟ يجلسون في الحدائق؟ والسيارات إلا تزال تسير في الشوارع؟ والباعة والمتاجر، والمتحف؟ آه لشد ما أتلّهِف لأن أذهب إلى المتحف، والنساء؟.. النساء في المدينة الكبيرة آلاف، عشرات الآلاف، كل امرأة عالم من الجنون والدفء، هل تنقضي هذه السنين وأخرج مرة أخرى؟ سبع سنين. ست سنين، ما أطولها: آلاف الأيام انتهت ولم نقض بعد نصف المدة التي حكمنا بها. هل تنتهي المدة؟ إلا يستطيعون أن يلفقوا لنا تهمة جديدة ونقضي في السجن خمس سنين أخرى؟ انهم قادرون على كل شيء! ألم يحكم على مجدي ثلاث سنوات جديدة قبل انتهاء المدة الأولى بيوم واحد؟ وعثمان؟ تركوه في الخارج أسبوعا واحدا، ثم جاء مرة أخرى يحمل على كتفيه ثماني سنين!

الشوارع المضاءة في الليل، الناس، الرجال والنساء، كل شيء في العالم الخارجي يسير دون خوف. والمطاعم؟ يمكن للإنسان أن يدخل إلى أي مطعم، ويطلب كل ما يشتهي. يمكن أن يأكل في أية ساعة، حتى يشبع، وإذا لم يعجبه نوع من

الأكل يصرخ طالبا نوعا آخر، ويعطي النادل الحساب وفوقه قروش قليلة، ولكن إذا رأى صرصارا فإن المطعم سوف يغلق في اليوم التالي:

إن صرصارا يكفي لأن يهدم سمعة أكبر المطاعم!

والإنسان في العالم الخارجي يستطيع أن يذهب إلى المرحاض متى يشاء، لا أحد يمنعه، لا أحد يدق عليه الباب ويطلب منه أن يخرج فوراً، لا أحد يجبره على حمل القذارة بصفيحة ترتج بين يديه وتتسرب إلى ثيابه ويديه..

هل ما زال العالم الخارجي موجودا بالفعل؟

كانت أنيسة تترك لي أن أفكر، لاحظت ذلك مرات كثيرة. وربما كانت ترى في عيني أضواء الشوارع، وقامات النساء، وروعة الأشجار! كانت تتركني أتيه في العالم، ولكي تزيد آلامي كانت دمعة صغيرة تتساقط من عينيها، وعندما تراني أتابع خيط الدموع، تقول:

— إلى متى يا رجب تظل وراء القضبان؟ وإلى متى تظل وحدك؟

انظري.. انظري يا أنيسة، ليس رجب هو الذي تراه عيناك الآن، مات رجب، وقع بنفسه شهادة الوفاة، كانت الساعة تقترب من السادسة، عندما ارتجفت يده لثانية صغيرة ثم سقط، الإنسان الممدد على السرير الآن، المطفأ العينين،

الصامت، لا علاقة له بذاك الذي كان من قبل.. آه لو لم تكوني أختي يا أنيسة، وأنت يا هدى، لو كنت امرأة أخرى، لو أن ذلك حصل لما سقطت.

قالت أمي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف والحنان:

– اسمع يا رجب، أنا أمك وأنت قطعة من لحمي، وليس في هذه الدنيا أحد يعزك مثلي، لكن لا تسمع كلام عمتك، ماذا تقول للناس، لأصدقائك، غدا إذا اعترفت وخرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي. افتح عينا وأغمض عينا تمر الأيام، وتبقى رافعا رأسك. إذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، ولا تستطيع أن تنظر في وجه أحد. خذ بالك يا ولدي.

لماذا مت يا أمي؟ لماذا؟ لماذا تركت أنيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم؟ آه لو أن لي أختا غيرها! وأخي لم يزرني مرة واحدة، قال لأنيسة ذات مرة، يريد أن يصلني كلامه:

– رجب لم يعد صغيرا، قلنا له ألف مرة أن يترك الأعمال الصببانية، ولم يسمع. الآن، إذا تعهد أن يقدم براءة، فهو أخي، وإذا لم يفعل فلا هو أخي ولا أنا أعرفه.

لما سمعت من أنيسة هذه الكلمات بصقت على الأرض، بصقت بغضب ودست فوق البصاق، واستدرت بكل ثقلي، قلت لها:

– قولي لأسعد لا هو أخي ولا أنا أعرفه، وإذا جاء يوم وطلبت منه شيئاً فليطردني مثل كلب. لكن بالمقابل إذا تكلم عني كلمة واحدة، فأنا مستعد أن أقضي حياتي كلها في هذا المكان، ودمه في رقبتني.

كنت غاضبا مثل ثور، ولم تمض دقيقة على كلمات أنيسة، حتى استدرتُ وعدت إلى العنبر، رغم أن الزيارة كانت في بدايتها!

مات اسعد بالنسبة لي منذ ذلك الوقت، وحتى قبل ذلك الوقت لم يكن موجودا بنظري. كانت أُمي تعتبره لئيمًا، خسيسًا، لأنه باعنا حين كنا صغارا، وبعد وفاة أبي مباشرة.

لن تفرح يا أسعد، صحيح أنني وقعت تلك الورقة اللعينة، لكن لن أترك لك فرصة للشماتة، لن ترى وجهي، وقد لا أراك في حياتي كلها!

أول شيء أريد أن أفعله غدا زيارة قبر أُمي. هل تذهبين معي يا أنيسة؟ لا أريدك أن تذهبي، دليني على قبرها فقط. أريد أن أكون وحيدا إلى جانب القبر، سأبكي، سأقول لها كل شيء، سأقول لها كيف حصل الأمر، لماذا حصل. هي الوحيدة التي تفهمني، تفهم ما يدور في رأسي حتى دون أن أقول كلمة واحدة. سأبقى ساعات إلى جانب قبرها، لكن لماذا ماتت؟ أن قوة غامضة وغبية هي التي تدير هذا الكون، وهي نفسها التي انتزعت أُمي في وقت كنت أريدها أن تبقى.

أعرف إنها كانت تتكوم لساعات طويلة أمام زاوية السجن، وأمامها سلة فيها أكل وخبز وبرتقال، وفيها ثياب، وفي مكان ما من الثياب رسالة. كانت تنتظر دون تعب، حتى إذا سمحوا لها بالدخول، كنت أرى من بعيد ابتسامة تملأ وجهها، وفي تلك الدقائق، التي لم تكن تزيد على العشر أتزود بالقوة، بالجنون، بالمحبة، كنت أتزود منها لفترة طويلة تكفيني أسابيع، حتى عندما يمنعون الزيارة.

وماتت. أنيسة لا تشبه أُمي، الملامح، الصوت، نظرة العيون، كل شيء مختلف، كانت كل واحدة تحب بطريقة مختلفة، كل واحدة تعبر عن حبها بطريقة الخاصة. آه لشد ما كنت قويا في السنوات الأولى، وفي تلك السنوات تحملت من الضرب والإهانات ما لا يحتمله بشر، وصمدت، وبعد أن رحلت أُمي، تغير كل شيء في: الآلام، الخوف من الموت ومن عالم الحرية، الكراهية. لقد أصبحت إنسانا جديدا.

هم قتلوها. كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي والأمهات الأخريات، مثلما يطردون الكلاب، كانوا يضربونهن بالعصي، يشتمونهن، كانوا يقولون عنهن بغايا وقوادات، ولا يتورعون عن شيء أبدا. رأيتها مرة ترتجف أمامي، كانت خائفة وقد تملكها الحزن، حاولت أن تبسم، حاولت أن تخفي اضطرابها، لكن في لحظة رأيتها تبكي. لما سألتها قالت:

– يحق لهم أن يفعلوا كل شيء.

وصمتت، تاركة لدمعة كبيرة أن تسقط دون أن توقفها أو تمسحها كما تعودت أن تفعل. ولما سألتها مرة أخرى، جاءت كلماتها غامضة حزينة:

– الكلب أمسكني من صدري.

وأشارت برأسها إلى الحارس الذي كان يدور حولنا.

حفروا لأمي مئات الخنادق، كانوا يحفرون لها خندقا جديدا في كل مرة تأتي فيها لزيارتي. منعوا الأكل، منعوا الثياب، منعوا أمواس الحلاقة، ضربوها، قالوا لها: لو لم تكوني بغيا لما خلفت هذا القواد، وأشاروا إلي، وهم يدفعونها أمامهم!

كانت أمي صخرة. كانت أصلب من كل الصخور، غدا سأقبل التراب مئات المرات، آه لو أستطيع أن أرى وجهها لثانية واحدة، لثانية.. ثم لتذهب بعد ذلك، لا أريد أن أراها، تكفي تلك الصورة، وهي تطل علي من وراء القضبان، وتقول بصوتها المجروح القوي:

– الدنيا حياة وموت يا رجب، وصيتي لك أن لا تضر أحداً، تحمل يا ولدي.

قالت لي هذه الكلمات قبل أن تموت بشهرين، تذكرت ذلك فيما بعد، عندما رأيتني مرة أفكر، وتتيه نظراتي بعيدا. أحسست بالخوف، وأحسست بالأفكار اللعينة تقترب من رأسي.

قالت تلك الكلمات لتحارب خوفي، لتحارب في لحظات الضعف القدرة.

غدا سأنام عند القبر، سأقول لها أن جسدي هو الذي خانني يا أمي، أنت التي بنيت هذا الجسد، وإذا إنها ر فلأنه ضعيف هكذا، وأنا لست مسؤولاً، لم يكن جسدي ضعيفاً بهذا المقدار عندما كنت حية.

كانت تأتي لزيارتي كل أسبوع. بعد موتها فجأة تغير جسدي، أصبح هشاً مستعداً لاستقبال الألم، أصبح عبئاً علي، لا يتركني أنام، لا يتركني أذوق الأكل، وله فوق ذلك طلبات تزداد كل يوم!

أنيسة تابعت الرحلة حتى نهايتها، بدأت تنبهي إلى أمور لم أكن ألاحظها من قبل:

– تطلع هذه الناحية يا رجب.

ومثل طفل صغير أدير رأسي، وتصرخ:

– عروق رقبتك نافرة مُزْرَقَة، هل ضربوك؟ هل حصل لك شيء؟

وعندما أهز رأسي دلالة النفي والاستغراب، تقول:

– العروق تظهر إذا ضعف الجسم، وأنت ضعيف جداً في هذه الفترة.

وبشكل سري وبطيء أتطلع إلى يدي الممدودة، أتطلع إلى العروق، وأتحسس صدري!

تابعت أنيسة الرحلة الخطرة حتى نهايتها، ومع الرطوبة والرائحة الكريهة والألم، لاحظت يوما بعد آخر أن أشياء كثيرة في جسدي تتغير وتضطرب.

انكسرت يدي حين كنت في العاشرة، بكيت بتوجع، صرخت من الألم، رأيت أمي تقول لي بلهجة لا تستعملها إلا في لحظات الغضب:

— لو رآك أبوك تبكي مثل النساء، لكسر يدك الثانية. ماذا حصل حتى تبكي هكذا؟

ولا أكف. كان الألم أكثر مما احتمل، ولم تجد أمي غير تلك القصة التي كررتها على مسامعي مرات كثيرة..

— أصيب المرحوم والدك مرة، انكسرت رجله عند الساق، أصيب برأسه عدة إصابات، ومع ذلك قتل اثنين، ومنع الآخرين من أن يتقدموا. لو كان سليما لقتلهم كلهم. تصور إنه جبر رجله وركب الحصان وحده، وعاد إلى البيت. ماذا يقول عنك إذا راك تبكي هكذا؟

أمي التي تنام تحت التراب الآن، تركت لي أنيسة تقودني في الدهاليز اللعينة. ظننتها وهي تتحدث عن العالم الخارجي، تتحدث عن الجنة. كانت تسرف في وصف حديقة البيت، وأنا

أتذكرها من سنوات طويلة: حديقة صغيرة، لها سور من أحجار مصفوفة بعلو نصف القامة، ولأن أرضها تستقبل المياه القذرة والصابون، تحولت إلى سبخة لا تنبت فيها غير تلك النباتات الشيطانية والتي تتحمل الحرارة والبرد ومياه الغسيل. أتذكر تلك الحديقة جيدا، ولا أعتقد أن من الممكن أن تتحول خلال فترة غيابي إلى شيء مختلف، لكن أنيسة تصر وهي تتحدث عن الحديقة:

– عباد الشمس يا رجب أطول من رجل على حصان.
المداد، الريحان، الآس.

– وماذا أيضا يا أنيسة؟

– لو تراها يا رجب، إنها الآن غير الحديقة التي تعرفها!

– وهل بدأت تزرعين فيها القمح والشعير؟

– أتمزح؟ آه لو تراها!

– لا أمزح، مجرد أسئلة.

– وغرفتك، كل أسبوع أنظفها بالصابون، وهي الآن حاضرة، نظيفة، يلعب فيها الهواء والشمس.

– وأي شيء آخر في عالم الحرية يا أنيسة؟

– كل شيء تغير، الشوارع غير الشوارع، البيوت غير البيوت، الحقائق، الأضواء، أشياء كثيرة تغيرت!

— وماذا أيضا يا أنيسة؟

وتضحك وهي تجيب:

وأنت يا رجب تغيرت كثيرا. كبرت عشر سنين، عشرين سنة، من يراك الآن لا يعرفك: الشيب، التجاعيد.

وتتغير نبرة صوتها وتتقلص الابتسامة وهي تضيف:

— الله يلعن السجن ويومه، قلنا حين تخرجت من الجامعة سعادتنا بدأت، لكن ما مر شهر حتى تحول الفرح إلى مأتم!

لو ظلت أُمي، لظلت شابا وصامدا، لو ظلت هدى لظلت أقوى وأشد، لكن جسدي هو الذي عذبي، لم يتركني ارتاح يوما واحدا. حاربت جسدي فترة طويلة، جاملته، سألته أن يقف إلى جانبي، لكن شيئا من الخارج ظل يغزوني دون رحمة.

أنيسة تقترب وتبتعد. ترتب الغرفة، ترتب بقايا ملابسها. سمعتها وهي تفتح الحقيبة، ثم حين فتحت الخزانة. أي شيء في هذه الحقيبة المسلولة؟ بقايا ثياب، بقايا يابى حتى المتسولون أن يمدوا إليها أيديهم، لو تركتها في السجن لكانت تنفع أحداً، أما في العالم، خارج السجن، فإنها تثير الشفقة! ولكن لمن اتركها؟ هل يقبل أحد من الأصدقاء أن يمد يده إليها؟ لم تكن ملوثة بنظرهم فقط، كانت تحمل رائحة جيفة، ربما كانوا أحرقوها لو تركتها.

اصنعي ما تريدن أنيسة بهذه الخرق. لا أريدها، لن ألبسها بعد اليوم، أريد أن أتخلص من كل شيء له علاقة بالماضي. إذا لم تمزقيها فسوف أحرقها، يجب أن أحرق كل ما له علاقة بالماضي. وأي ماض أريد أن أحرق؟

السادسة.. تلك الساعة اللئيمة التي جعلت نهايتي حقيقية مؤكدة، نهائية. قبل ذلك كنت رجلا وبعد ذلك أصبحت شيئا آخر. لم يحتمل التوقيع إلا ثانية صغيرة، حصل الأمر بسرعة، اضطربت يدي واضطرب التوقيع، نهاية التوقيع طويلة، مشوشة. آه لو توقفت في تلك الثانية، آه لو توقفت!

-2-

ظل نور الغرفة يتأرجح على الستارة وأنا أنظر إليها بصبر نافذ، كنت أريد أن أتأكد من نومه قبل أن أنام. انتظرت حتى سمعت أنفاس حامد تغرق في هذه الدورة الأزلية من الاطمئنان، جررت نفسي بهدوء، وانزلت إلى الصالة.

كان السكون يغطي الدار كلها، الأولاد نائمون منذ ساعات، وفي الخارج شيء يشبه الريح الصغيرة، كنت أرى آثارها من الاهتزازات اللينة للستائر، ومن صرير باب قن الدجاج. لم أكن أتصور أن الأيام تنقضي خفيفة راکضة هكذا، انقضت تماماً، مر أسبوعان لم أره خلالهما كما تمنيت. غدا يسافر، لا.. اليوم، لم تبق سوى ساعات قليلة وابدأ الانتظار من جديد. قال لحامد بصرامة، يريدني أن أسمع الكلمات تماماً:

— إذا انقضى شهران ولم أعد، فمعنى ذلك أن إقامتي طويلة، إذا وجدت هناك عملاً مناسباً بقيت!

لم تكن هذه الفكرة تخطر على بالي، سمعتها مرات كثيرة، لكن قبل هذه الليلة لم أكن متأكدة إنه يعنيها، كانت كلماته واضحة، وان بدا فيها شيء غريب، ثم يعود إليها بطريقة أخرى.

في هذه الليلة لست متأكدة من شيء، حتى السفر كان من الممكن أن يتخلّى عنه. هل أطلب منه أن يبقى؟ ولكن كنت أعرف أن أية كلمة جديدة تُسبب له عذاباً لا تحتمله صحته. ليذهب. الحل الوحيد أن يذهب. وأنا سأتعلم الانتظار من

جديد. انتظرته خمس سنين حتى عاد. واليوم يمكن أن انتظره، إنه لا يعني كلماته تماما، هل يبقى؟ وأي عمل يستطيع أن يعمل؟

قبل أن ينام حامد بكيت وأنا ألح عليه لكي نقنعه بأن يترك فكرة العمل، قلت:

— سنبيع البيت ونرسل له ما يحتاجه، له أكثر من نصف البيت ومن حقه أن يبيعه.

ان رجب الآن ليس رجب الذي أعرفه. تغير كثيرا. رفض استقبال احد من أصدقائه، كان فظا وهو يصرخ في وجه عادل، ويطلب منه أن يقول للذين جاءوا بأنه غائب ولن يعود قبل منتصف الليل. وعمتي، آه لشد ما غضبت، لأول مرة رأيته تبكي بهذا الشكل. امسكها من كتفها وهزها بقوة يريد أن يوقعها على الأرض، لم تكن تدري أن زغرودة فرح يمكن أن تسبب له مثل هذا الغضب؟ ظنت أول الأمر إنه يداعبها، لكن عندما توالى هزاته القاسية خافت، وتوقفت. نظرت إليه بتساؤل واستغراب، فلما رآته غاضبا والكلمات تتطاير من فمه، تراجعت وهي تنظر إلي تسألني بعينيها، لم أكن أعرف ما ينبغي أن الفعل، اقتربت منها، احتضنتها حتى إذا رأت دموعي، انخرطت في البكاء، أما هو فقد دخل إلى الغرفة وارتج الباب وراءه صاخبا عنيفا.

قالت عمتي بعد أن ابتعدنا كثيرا عن الغرفة، وجلسنا في

طرف الحديقة، عند الباب:

– والله يا ابنتي لم أصدق، كان كل يوم بسنة، كنت أريد أن أفرح به سبعة أيام. ومسحت دموعها وهي تقول بصوت مكسور: رأيت ما فعل؟

قلت لعمتي أشياء كثيرة لأقنعها، لكن قبل أن يحل المساء كانت تعود إلى القرية، والدموع تملأ عينيها، ورجب رفض أن يخرج إلى الغداء. ورفض أن يقول كلمة. ظل يدخن ويشرب القهوة، ولما جاء حامد ودخل غرفته رأى بقايا دموع في عينيها!

انتهى ذلك كله.

اقتربت من باب الغرفة ووضعت أذني. كان السكون الأخرس يغرق الدار. ظننته نائماً وأنه نسي الضوء فلم يطفئه. انتظرت لحظة، ثم شققت الباب بهدوء ومددت رأسي، كان يجلس في السرير مثل كرة، وما كاد يراني حتى انتفض. شعرت أن ملامح وجهه تنخض دفعة واحدة، تصبح غاضبة، أردت أن أراجع، لكنه كان قد رآني، تقدمت لأوضح له وأعتذر، ولم أجد سوى الضوء حجة. قلت:

– ظننتك نسيت الضوء يا رجب!

وهز رأسه دون أن يجيب. كان وجهه حزيناً وغاضباً، ودخان السجارة يتصاعد ويتلوى، حتى ظننت وأنا أنتشق

الهواء، أن عددا لا يحصى من السجائر يشتعل في نفس الوقت، فيجعل الرؤية مضطربة، والتنفس ثقيلًا. قلت بلهجة متوسلة:

– يجب أن تنام يا رجب. ثم ساعة، ساعتين، حتى تستيقظ نشيطا وتستطيع أن تسافر!

ورأيته يسحب سيجارة جديدة ويشعلها من السيجارة التي في يده. حتى إذا انتهى، أطفأ الأولى، ودون أن يعدل جلسته، قال وهو منحن:

– أتعرفين يا أنيسة أن حياة السجن أفضل؟

كنت انتظر كلمات مجنونة مثل هذه التي يقولها رجب الآن. لقد تأكدت ظنوني، بدأ يقول الكلمات التي أخاف منها، والتي حاربتها خلال الأيام الماضية. لم أكن أصدق أن حنيننا مثل هذا يمكن أن يعاوده. سألته وأنا أقترّب وانظر إليه، لكي أتأكد أن عيونه تعني الكلمات التي يقول:

– وهل يزعجك شيء يا رجب حتى تقول مثل هذا الكلام؟

ولم يجب. ظل يهز رأسه بلوعة مميتة، حتى ظننت أن الدموع ستنفجر من عينيه. لم أكن أحب بكاءه فقد تمزقت روحي وأنا أراه.

في هذه اللحظة يجب أن أحارب، لكي تبقى صورته مثلما كانت قبل السجن.

بدأت الدموع صغيرة خجولة في عينيه في اليوم الأول،
ولكن لا يكاد يوم جديد يأتي حتى أرى حزنه يتحول إلى
غمامة سوداء تفرد ظلها على البيت كله.

جلست بخوف على حافة السرير. كنت مستعدة لأن احتمل
كل شيء حق انتزع العذاب الذي يموج في داخله، ويدفعه في
كل وقت إلى العصبية والبكاء، قلت وأنا أشد يده وأمسكها:

— رجب.. برحمة أمي، أكاد أموت من صمتك، قل يا
رجب، هل رأيت شيئاً، أو سمعت شيئاً أزعجك؟

وبنفس الطريقة المدمرة الكاوية، هز رأسه دلالة النفي.
كنت أريده أن يقول. لم تبق إلا ساعات قليلة ويرحل، وإذا لم
يتكلم الآن، فقد لا يتكلم أبداً. ضغطت على يده، وسألته من
جديد:

— الدنيا لا تستأهل أن تعذب نفسك بهذا الشكل، ما الذي
يعذبك؟

هز رأسه وكتفيه، وعبرت ملامحه الحزينة عن شيء. لم
يكن يريد أن يتكلم. أحسست، أنه لو تكلم، فسوف يتعذب أكثر.
ومع ذلك لم أتركه، اعتقدت أن عذاب لحظة، بكاء لحظة، قد
يخلصه. ألقيت رأسي على ركبتيه، وقلت له بتوسل:

— ارحمني يا رجب، لقد اسودت الدنيا في عيني، وإذا لم
تقل لي، إذا لم تتكلم، فسوف أقتل نفسي.

وسمعت صوته، بدا لي كأني اسمعه لأول مرة، كان صوتا
مبحوحا يائسا:

- هذه الطريقة تعذبني أكثر يا أنيسة!
- أية طريقة؟ ما يعذبك؟
- لا شيء، تأكدي إنه لا شيء.
- وهذا الصمت والعصبية؟
- ماذا تريدني أن أفعل؟
- تكلم، أنا أختك وأريد أن أساعدك، قل لي ما في قلبك،
أنت تعرف أن الإنسان إذا تكلم يرتاح. ما الذي يعذبك؟
- ماذا تريدني أن أقول يا أنيسة؟
- قل، قل أي شيء، المهم أن لا تترك شيئا في قلبك.
- وضحك بيأس، كان يريد أن يسيطر علي ويعذبني، حتى
إذا تلاشت الضحكة، قال وملامح وجهه تعربد بالحزن:
- وماذا تقولين إذا لم يبق لي قلب؟
- وجلست مقابله على السرير. جلست مثل جلسته. ولا
أعرف لماذا طلبت أن يشعل لي سيجارة.
- ضحك هذه المرة مثل طفل، لكن بحزن أيضا، وسألني
وهو يسحب سيجارتين من العلبة:

– نبدأ السهرة من أولها؟

وأشعل السيجارة ومدّها إليّ، ثم قال بنفس اللهجة:

– إلا تعرفين أنني سأسافر في الصباح ويجب أن أنام؟

وضحك وهو يراني أدخن، لأول مرة أراه يضحك. ربما كانت طريقيّتي في التدخين هي السبب! أشعل سيجارته وقال:

– ابلعي الدخان.. ابلعيه، لا فائدة في أن تحصره في حلقك ثم تتركه!

وعب نفسا، وتابع:

– انظري إليّ... لقد بلعت الدخان، وبعد لحظة أخرجه من فمي وأنفي، انظري!

إن رجب الذي أراه الآن، هو نفس الطفل الذي عرفته قبل أكثر من عشرين سنة. نفس الشاب الدامي الوجه الذي كان يعود من المظاهرات. وعندما أراه الآن يعلمني التدخين، أتذكر كيف علم أمي. كانت أمي في البداية قاسية، شتمته أكثر من مرة، رمت السجائر في المرحاض، ولكنها تغيرت بعد أن أدركت أن طريقتها لا تجدي. بدأت تحذره، وتذكر له قصصا كثيرة، حتى كان يوم أصبحا يجلسان عند أول المساء في الحديقة، على كرسيين واطئين ويدخان. ضحك عليها كثيرا حين رآها تدخن بطريقة النفخ كما كان يسميها، ولم تمض

فترة حتى أصبحت أُمي تشتري علبة سجائر، كل ثلاثة أيام،
ثم لم تعد تكفيها العلبة أكثر من يومين، ولما سجن رجب لم
تكن تفعل شيئاً سوى التدخين والبكاء!

قلت لرجب، أحاول إلا أذكره بكل شيء:

– يبدو أنني سأتعلم التدخين..

رد علي وقد عاد لملامحه الحزن:

– الأفضل أن لا تتعلمي!

– وأنت.. لماذا تدخن بهذا الشكل؟

– قريباً سوف أترك التدخين. أشعر أن التدخين يتعبني،

وأنتِ يجب أن لا تتعلمي مثل أُمي!

التقط رجب الخيط. رفرفت صورة أُمي فوقنا. رفرفت مثل
طائر كبير، تصطك أجنحته في الهواء. وتغير كل شيء في
لحظة. قال يريد أن يجرنِي:

– أُمي كانت تدخن كثيراً... أتتذكرين؟

– أتذكر.

حاولت أن أهرب، قلت أتذكر ولم أرد أن أقول شيئاً آخر،
لكن رجب لاحقني، كأنه يريد أن نتحدث عنها، وعنّها فقط.
سألني:

– هل كانت تدخن كثيراً لما كنت في السجن؟

– مثل قبل، أكثر قليلا!

– نفس السجائر؟

– نفسها.

– كم سيجارة كانت تدخن؟

– علبة في اليوم!

وهز رأسه دلالة الاستغراب، كأنه يريدني أن لا أكف عن ذكر كل شيء، ولما وجد أن دفاعي الوحيد هو الصمت، سألني:

– وهل استمرت تدخن حتى أثناء المرض؟

– أوصاها الطبيب أن تنقطع، قالت له إنها لا تستطيع، وعندما وجدها مصرة طلب منها أن لا تدخن أكثر من سيجارتين إلى ثلاث سجائر.

– وماذا فعلت؟

حاولت أن أبتسم لكي أجعل الحديث عنها أقرب إلى ذكرى بعيدة، ذكرى لا تولد حزنا من أي نوع.

قلت وقد تغيرت نبرة صوتي فأصبحت عالية ولها رنين:

– تصور.. كل محاولاتي في إخفاء السجائر فشلت، كنت أمنعها. كنت أبعد السجائر عن البيت كله، ولكن دائما تجد طريقة. تفتش عن السجائر حتى تجدها، تبعث ولدا لكي

يشترى لها علبة سجائر دون أن أعرف، وتضعها تحت وسادتها. عرفت كل الأماكن التي كانت تخبئ فيها السجائر، ومع ذلك ظلت تدخن!

– ظلت تدخن كثيرا؟

– ليس أقل من عشر سجائر!

– عشر سجائر في اليوم؟

– كانت تتوسل، كانت تستغل وجود الزوار، وبعض الأحيان تبكي وتتذكر السجن ورجب، وأجد نفسي مضطرة لأن أعطيها سيجارة من أجل أن تكف عن البكاء وتنسى.

– وظلت تدخن حتى اللحظة الأخيرة؟

– في اليومين الأخيرين لم تعد تستطيع، انهارت تماما، أما قبل ذلك فقد ظلت تدخن رغم وصايا الطبيب، ورغم كل المحاولات لمنعها.

– وكيف ماتت أمي يا أنيسة؟

لا أستطيع أن أتحدث عن موت أمي بحياد. مهما حاولت لا أستطيع. كنت امتلئ تصميمًا على إلا أتحدث مع رجب عن موتها، رغم إنه في اليوم الأول، قبل أن ننام، قال لي إنه يريد زيارة قبرها في الصباح التالي، حاولت صرفه عن الفكرة، لكن شبح أمي ظل يلاحقنا نحن الاثنين طوال هذه الأيام، أقام معنا في البيت، وما يزال حتى الآن. حاولنا كثيرا كل

بطريقته، أن نتحدث عن الأمر، وإن لا نتحدث بنفس الوقت.
حاولنا ذلك كثيرا، أما الآن، فإننا نواجه المشكلة، وهذه المرة
دفعه واحدة!

وفي اليوم الثاني، بعد أن غادر رجب السجن، ذهبنا معا
إلى المقبرة. قال لي بعد أن وقفنا لحظات فوق القبر، ورأى
دموعي، قال بعصبية:

— ارجعي الآن يا أنيسة.

ولما رأيته واقفة لا تحرك، ورأى دموعي، قال لي مرة
أخرى:

— ارجعي إلى البيت، وأنا سأبقى هنا بعض الوقت، سأزور
قبر أبي وقبر خالي.

ونتيجة لإلحاحه عدت، رأيته وأنا أخرج من المقبرة
يتابعني بنظراته ليتأكد، ولا أعرف أي شيء فعل.

لكن عند الظهر، لما عاد، رأيته شاحبا، عصبيا، وتمنيت لو
اني لم أمتثل لكلماته وبقيت معه.

والآن يريد أن ينكأ الجروح كلها مرة واحدة، قلت له وأنا
أفكر بطريقة لا تجعلني إنها ر أمامه وأغرق في بحر من
الدموع:

— لقد مضى على موتها ثلاث سنوات، ونسيت!

أمسك بكتفي وهزني. كانت يده حنونة دافئة، والسيجارة في فمه تهتز، سألني وهو يغمض إحدى عينيه، ربما من أثر الدخان، وبصوت غامض متداخل:

– أنتِ تنسين يا أنيسة؟

حاولت أن أبتسم وأجبته:

– نسيت يا رجب!

تراجع فجأة. أسند ظهره إلى السرير ومد قدمه اليسرى على طولها، ورأيته يحاول إبعاد نظراته عني. رجب لا يخطئ في معرفتي. أن ابتسامات صغيرة، وبطريقة معينة، هي النذر الأخيرة قبل الانفجار. كان يعرف أنني أحتمل كثيرا لكن فجأة ينتهي كل شيء، أسقط، أصبح مثل طفلة صغيرة لا يمكن لأحد أن يمنعها أو يوقفها. رأني أكثر من مرة أبكي ذلك البكاء الصاخب المجنون. والآن، تراجع وغير جلسته، كان يحاول أن يسحب الذكرى كلها.

كنت أريد البكاء، كانت لدي عشرات الأسباب، وتصورت اني إذا تركت لنفسي الحرية في البكاء فقد أنقذ رجب أيضاً. كنا، نحن الاثنان، بحاجة إلى أن نغتسل بالبكاء، ولا يهم السبب الذي نبكي من اجله، فقد كانت قلوبنا تمتلئ بالأحزان لدرجة أن اي شيء يكفي ليكون سببا.

عندما سقط رماد السيجارة على الوسادة، انتفض، نفذه

بعصبية، وهو ينظر إلي وابتسامة صغيرة ترتسم على شفثفه.
قال:

— ما دمت نسيت كيف ماتت العجوز فإنك كبرت كثيرا،
وربما نسيت كل شيء! — لست صغيرة يا رجب، عمري الآن
يزيد على الأربعين.

— وهل ينسى الناس ويخرفون في هذه السن؟

— المهم يا رجب، أنت لا تعرف كم تحملت وكم تعذبت!
وهز رأسه هذه المرة. هل أتركه يفلت ويبقى يتعذب؟ لماذا
لا نبكي معا، ومن أجل أمي هذه المرة، لكي يغسل نفسه
ويعود إنسانا آخر؟

قلت وأنا أغير جلستي فوق السرير، أراجع وأستند إلى
الحافة الواطئة:

— لا يمكن أن أنسى شيئا يا رجب. أتذكر كل شيء كما لو
أني أراه الآن، وهل تتصور إنني أنسى أمي وموتها بهذه
السرعة؟

تغيرت ملامح وجهه، وبدا بعينيه المتسعيتين، أكثر رغبة
في أن يسمع. التقط بسرعة سيجارتين من علبة جديدة، وقال
يسألني دون أن يقطع علي أفكاره:

— سيجارة؟

ورفعت إليه وجهاً رافضاً، وربما كان متعباً ومتحفزاً في ذات الوقت. تركته يشعل سيجارته وينفث نفساً أو أكثر قبل أن أبدأ تلك القصة الحزينة.

— أتعرف كيف ماتت أمي يا رجب؟ لماذا ماتت؟

رأيت في نظراته إشعاعاً غاضباً، ينفذ إلى أعماقي، تابعت قبل أن يجيب:

— لقد قتلوها يا رجب!

ودفنت رأسي في الفراش وأخذت أبكي. لا أتذكر أنني بكيت هكذا في حياتي كلها. في لحظة تجمعت آلاف المواقب الحزينة، وضغطت على رأسي بقوة، حتى تصورت أن رأسي سينفجر، لكن والدموع تنزف من عيني بغزارة، رأيت المواقب الحزينة تتفكك، تتباعد، ثم تبتعد، وظلت صورة أمي وهي تعود في ذلك اليوم، عند العصر، الصورة الوحيدة المليئة بالأسى.

لما رفعني ومسح دموعي، أحسست إنه استغل لحظات بكائي، وأنا أدفن رأسي في الفراش، وبكى هو الآخر. كانت عيناه حمراوين، لكن لم يكن فيها دموع، وكان وجهه محتقناً من الألم وشديد الاصفرار، أما السيجارة فقد ظلت وحدها على المنفضة تتابع بدخانها مشهداً يائساً، قلت له وفي صوتي بقايا دموع مضطربة:

– هم الذين قتلوها يا رجب، لولا هم لكانت حية إلى الآن!

– كيف؟ من قتلها؟

– لا أعرف، لو لم يقتلوها، لرأيته الآن أمامك!

– اجلسي يا أنيسة، لا احتمل أكثر، أكاد أختنق.

– قبل موتها بعشرة أيام، كان يوم خميس، ذهبت مع أمهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية. لا أعرف من الذي أقنعها بالفكرة، لكن خلال أيام لم تهدأ ولم تتعب وهي تنتقل من بيت لبيت، حتى تجمع عددا من النساء، ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يُسمح لهن بالدخول، أو بمقابلته. ولا أعرف من اقترحت أن لا يتركن المكان حتى يصلن إلى نتيجة. كشفن عن رؤوسهن، ونفشن شعورهن، وبدأن بالصراخ والعويل، وقد صممت كل واحدة منهن أن تموت! أنت تعرف موقف الشرطة، بدأوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة. ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو أن الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجلت في نهايتها.

قبضوا عليها وقبضوا على عشرات أخريات، وفي النظارة كانوا وحوشا، ضربوها، أهانوها، شتموها، وأبقوها حتى اليوم التالي، بعد أن عرفوا اسمها وجاءت تراجع من أجل من. عادت إلى البيت عصر يوم الجمعة وبدأ لي كل شيء منتهايا.

أصابته الحمى منذ تلك الليلة، وكانت صحتها تزداد سوءاً، وتنهار كل يوم، ولم تتكلم إلا قليلاً، كانت تشتم وتدخن، وبعض الأحيان تبكي. أحضر حامد ثلاثة أطباء، أعطاهم الأول إبراً، والثاني طلب إجراء تحاليل لها ثم اقترح أن تنقل إلى المستشفى، أما الثالث، فقد وصل بعد أن ماتت بخمس دقائق...

كانت لا تذكر في الأيام الأخيرة إلا رجب. قالوا لها في النظارة أن رجب سيموت قبلها، وأنهم سيضاعفون مدة محكوميته، وأن رجب سيأكل ضرباً لا يحتمله حمار.

وفي اليومين الأخيرين، عندما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت ترفع يديها إلى السماء وتقول: «اللهم قو رجب، وأعم عنه عيون الظلام» وتشتم.

هم قتلوها يا رجب، وأنا منذ ذلك الوقت خفت، وحزنت عليك أكثر من حزني على أمي. خفت أن يقتلوك!

وبكى رجب. كان يجب أن يبكي من أجل قضية محددة، مفهومة. أفهم بكاءه الآن، أما في الأيام الماضية فقد كان غامضاً، لم أكن أعرف لماذا يصمت ولماذا يبكي.

تركته يفعل ما يشاء. كانت الدموع مثل سيول صغيرة تتدفق، وتتساقط من عينيه على خديه. لم يرفع يديه ليمسحها، ليمنعها، تركها تسيل، ولم أتصور في حياتي أن الرجال يملكون هذا المقدار من الدموع.

في لحظة سكون، وأنا أحاول مسح دموعي، وانظر إليه بعيون جديدة، سمعت صرخة جعلتني ارتجف، قال بصوت حاد يشبه سقوط الحجارة:

– أنت مجرمة يا أنيسة، لماذا لم تقولي لي هذا وأنا في السجن؟

– وما تستطيع أن تفعل يا رجب؟

– لماذا لم تقولي؟ لماذا؟

– كانت أحزانك تكفيك!

– لكن لماذا لم تقولي لي؟

– لا أعرف، تصورت أنني لو قلت لك فسوف أزيد همومك وحزنك.

– كنت بحاجة لذلك.

– انتهت تلك الأيام يا رجب، يجب أن ننسى.

– ننسى؟

– وهل نستطيع أن نفعل شيئاً آخر؟

وضرب وجهه، وضرب جبهته. كانت صرخاته حادة مزقت صمت الليل، وكانت ضرباته مثل سكاكين تنغرز في القلب. هجمت عليه أريد منعه، دفعني بقوة، وضرب رأسه بالجدار، ولا أعرف أن كان حامد أفاق على الصرخات أم

على ضربات رأسه... رأيته فجأة ينتصب وسط الغرفة، وقد ارتاع وجهه لدرجة أنني تصورته إنسانا آخر.

كان يجب أن نبقى وحدنا. فأني إنسان لا يستطيع أن يفهم مشاعر تلك اللحظة، حتى حامد، زوجي، الذي أعرفه، منذ ثلاثة عشر عاما، بدا لي غريبا وكدت أصرخ في وجهه لكي يخرج، لكن رجب وهو يضرب رأسه بالجدار، وصرخاته المتشنجة المتدفقة من الألم الممض، لم تترك لي حرية التصرف. رأيت حامد يهجم عليه، يمسكه من كتفيه وجهزه بقوة. ولا أعرف كيف بدأ الحديث من جديد.. أو متى.

في وقت ما، سمعت حامد، يقول بصوت قاس:

– يجب أن تناموا... لستم صغارا لكي تتصرفوا بهذه الطريقة!

حين أطفأ رجب السجارة، وتمدد في الفراش، قال لي حامد بصوت حاد:

– انهضي يا عاقلة!

هل نام رجب بعد ذلك؟ لم يشعل الضوء، ولم نسمع صوتا، لكن شيئا في داخلي قال لي إنه لم ينم. ظلت طوال الساعات الأخيرة مفتوحة العينين في الظلمة، انتظر. كنت أنتظر سماع صوته أو سماع طلق ناري رغم إنه لا توجد في البيت كله أسلحة. كنت أتوقع صوت ارتطام رأسه بالجدار. عندما رأيته

يضرب رأسه هكذا، خفت كثيرا، تصورت في لحظة خاطفة أن رجب اكتشف الطريقة التي سيقفل بها نفسه. سيقف في أول الغرفة، ويركض بسرعة نحو الجدار المقابل ويضرب رأسه، أن ضربة واحدة من هذا النوع تكفي لأن ينتهي.

لما انتظمت دورة النوم الأزلية، وأصبحت أنفاس حامد منتظمة، عدت أتذكر من جديد: أمي تقف في وجه الباب تمنعهم من الدخول. جاءوا عند الفجر، قبل الفجر بقليل، سمعنا صوت أمي، كانت تصرخ في وجوههم، لكن دفعوها بقوة ودخلوا. قبضوا على حامد أول الأمر، ظنوه رجب، لكن الهمسة الصغيرة التي وصلت إلى إذن قائد المفزة من أحد العناصر، جعلته عصيبا أكثر مما تصورنا. دفع حامد في صدره، وصرخ في وجهه:

— أين الحقير رجب؟

وقلبوا البيت كله، لكن رجب كان قد استعد قبل ذلك بثلاثة أيام، واختفى. تركوا في البيت اثنين. كان الاثنان يتغيران كل بضع ساعات، وكانا يجلسان، أغلب الوقت، في الصالة، في مواجهة الباب. كانا يقفزان مثل الذئب إذا سمعا خطوات تقترب، يفتح احدهما الباب، والثاني يشهر مسدسه ويقف في الناحية الثانية. افزعا الصغار وأبكوهما، أما نظراتهما إلى الكبار فكانت اتهامات مباشرة حاقة. كانت عيونهما من نار، وطلباتهما لا تحتمل التأخير أو المناقشة. باختصار قلبا حياتنا

كلها خلال تلك الأيام الكئيبة، لم نكن نستطيع أن نتجول أو أن نتحرك، وفي اليوم الرابع، عندما وصل رجب بعد الغروب قبضا عليه.

قبضوا قبل ذلك على خالد وأدمون. كانوا فرحين بخالد وكانوا ينتظرونه منذ فترة طويلة، واعتبروا صيده أثمن صيد في تلك الفترة. أما رجب فقد تملكه الغضب حين رآهم أمامه، انقض بشراسة، أخذ يضرب ويشتم، لكن لم يقاوم طويلا، سقط بعد ضربة على رأسه، بكعب المسدس، وظهرت أصابع حمراء منتفخة على وجهه، أما صرخات أمي وأظافرها وهي تدافع عن رجب فقد ذهبت أدراج الرياح. دفعوها بقوة، قالوا لها كلمات لم تستطع أن تنساها إلى أن ماتت. قال لها القصير الذي ضرب رجب بكعب مسدسه، كان يعربد من الغضب والتعب:

— ابعدي يا قدرة، لولا انك قحبة، لما خلفت ابن الحرام هذا!

بعد فترة قصيرة من القبض عليه، رجع الذي ذهب لاستدعاء العناصر، أما الآخر، فقد ظل مستندا إلى الجدار وببده المسدس. كان عصبيا وخائفا، أمرنا أن نبقى في أماكننا، وهدد بأن يطلق النار على أي واحد يتحرك من مكانه.

لما أخذوا رجب، ولولت أمي وركضت وراءهم. تجمع الناس في الزقاق، لكن احدهم وقف وهو يرفع مسدسه وهدد

كل من يتقدم. حتى أُمي، لم تستطع أن تتابع، امسكها الرجل أول الأمر، ثم تدخل الناس في الزقاق، وقالوا لها كلمات أقرب إلى الخشونة.

وبدأت أُمي تدور. كانت تخرج من الفجر ولا تعود إلا بعد الغروب. لم تترك مركزا إلا وذهبت إليه، لكن دائما ينتظرها نفس الجواب:

— ليس عندنا أحد بهذا الاسم!

كانت تريد أن تتأكد من شيء واحد: أن رجب لا يزال حيا. لم تكن تتمنى أكثر من ذلك، ولم يقل لها أحد تلك الكلمة اللعينة. ظلت تبكي طوال وجودها في البيت ودموعها تسبقها:

— أنيسة... ماذا تقولين لو ذهبت إلى الحاج مصطفى الغزاوي، إنه يعرف أناسا كثيرين، ويمكن أن يساعدنا؟ قبل طلوع الشمس سأذهب إلى بيت مدير الشرطة، سوف أقبل يده، أريد أن يطمئنني أن رجب ما يزال حيا. الكلب أبو سعدي لم يشأ أن يتطلع في وجهي، قال لزوجته أن لا علاقة له بالأمر، ويجب ألا أسأله مرة أخرى.

... وحامد استعان بكل الناس الذين يعرفهم. أصبح عصيبا دائم الصمت، فإذا سألته صرخ في وجهي، أما إذا سألته أُمي فكانت تبدو عليه علامات الضيق ويردد بعض الكلمات التي أصبحت تثير أُمي أكثر مما تطمئنها.

أربعة شهور كاملة ولا أحد يعرف عن رجب شيئاً. لبست أمي طرحة سوداء وعصبت جبينها بشريط أسود. عافت نفسها الأكل وقالت بيأس مميت: «قتلوه.. أربعة شهور وهم يضربونه، لو كان جملاً لقتلوه». واثّر السهر والقلق على صحتها، تحولت إلى شبح، لا تعرف للراحة طعماً. وإذا كانت في البيت تشق الباب وتتطلع إلى الشارع، لعل أحداً يأتي ويقول لها كلمة، فإذا ينست جلست في الركن صامتة، لا تكلم أحداً. أما كلماتها وهي تنبه على الجميع أن يتركوا لها فتح الباب إذا دقه أحد، فقد حفظها الصغار وظلوا يرددونها فترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت تتعود، ولكن رافق العادة ذلك الغضب الذي يتحول إلى ثورة لأبسط الأمور. كانت تصرخ في وجوه الصغار، تبعدهم عنها بغلظة، وتغضب إذا ضحكوا بصوت عالي، وتغضب إذا ضجوا ولعبوا. لم تعد تطيق أن ترى أحداً يضحك، قالت لي مرة، لما رأيتني أضحك:

— لم يبق إلا أن تحني رجلك، مات رجب وعليك الآن أن تفرحي وترقصي!

ندمت كثيراً على تلك الضحكة حين رأيت أمي تبكي. ولم تكف عن البكاء إلا بعد فترة طويلة، وظلت أياماً لا تتكلم معي!

ظلت أمي هكذا، حتى كان يوم رجعت فيه وتغيرت تماماً.

قالت وهي ما تزال في حوش الدار قبل أن تدخل:

— أنيسة.. يا أنيسة، رجب عايش، رجب حي.

وحدثتني كيف ذهبت إلى السجن، وظلت هناك ساعات طويلة، حتى إذا رأت ذلك الشرطي الذي يشبه ابن عمتي محمود، كما قالت، هجمت عليه، تريد أن تقبل قدميه، ورجته أن يساعدها فقط في معرفة ما إذا كان رجب داخل السجن. رق قلبه وقال إنه سيتأكد من ذلك حالما يعود إلى السجن، في الثانية بعد الظهر. وانتظرت من الثامنة والنصف حتى الرابعة، وكانت أكبر بشرى في حياتها حين قال لها إنه في السجن.

ظلت طوال الليل تكرر القصة وكل مرة تضيف إليها تفاصيل جديدة، لكن القلق بدأ يساورها من جديد. ماذا لو كان يكذب عليها؟ ماذا لو كان في السجن شخص آخر بنفس الاسم؟ ماذا لو أخطأ في السؤال؟ كانت تريد أن تتأكد، فكرت طويلا تلك الليلة، وقبل طلوع الشمس هيأت صرة صغيرة وضعت فيها ملابس وبعض الأكل وذهبت!

وظلت تعود كل يوم وهي تحمل نفس الصرة. كانت تبقي الملابس، أما الأكل فتخرجه، لتهيئ غيره لليوم التالي.

رجب أكثر من أخ بالنسبة لي، رغم السنين العشر التي تفصلنا. أتذكره عندما كان طفلا، وأتذكره، وهو معصوب الرأس، بعد المظاهرات. أتذكر ضحكاته وصرخاته وغضبه.

لكن رجب الذي يرقد في الغرفة المجاورة إنسان آخر. كبر كثيرا في الشهور الأخيرة. لم أتصور الإنسان يمكن أن يكبر بهذه السرعة، ولكني رأيته بعيني وهو يكبر كل أسبوع.

لما رأيته قبل شهرين تشبثت بالباب الحديدي وبدأت أبكي بصوت عال. تصورت أنني لن أراه بعد ذلك. كانت عيناه تغوران في وجه معروق أصفر، كأنه قام لتوه من مرض خطير، وانه سيستأنف المرض، وبشكل اشد بعد أن أتركه. مددت يدي إلى وجهه ألتلمسه، ولم يفعل مثل المرات السابقة، ترك يدي تترتاح على وجهه، ولما رفع إلي عينيه مرة أخرى رأيته كما لم أراه من قبل.

كنت ألوم أمي كثيرا، وأنا أراها كالنحلة تحوم في البيت والأزقة طوال النهار، كانت تقضي وقتها أمام باب السجن، وعندما تريد أن تستريح تذهب لأُم سجين آخر وتبدأن معا الندب والذكرى. قلت لها مرة وبتحريض من حامد بعد أن مل الجو الكئيب:

— سافري عند عمتي، هناك يمكن أن تستريحي!

نظرت إلي بمرارة ولم تجيب أول الأمر، ولما رأيته صامته ونظراتها أقرب إلى اللوم، قلت:

— رجب ليس أول رجل يسجن، ولن يكون الأخير، ولو عرف أنك تفعلين هذا كل يوم الغضب.

صرخت وكان صوتها غاضبا وحزينا:

وماذا فعلت؟ هل سرقت؟ هل نهبت؟

– لا.. ولكن الدوران في الشوارع، ماذا يفيد أن تظلي هكذا؟

– اسمعي يا أنيسة، لا تتدخل في أموري أبداً، أنا كبيرة وأعرف ماذا يجب أن أفعل!

– ولكن الناس يتكلمون

– عن أي شيء؟

– يقولون أم أسعد جنت، طوال الليل والنهار دايرة على كعبها.

– لم أقم بعمل مخجل أبداً.

– ا بقي في البيت، ويوم الزيارة زوري رجب، وهذا هو الشيء المعقول.

– والشيء غير المعقول؟

– أن تكوني بهذا الشكل!

– سأظل بهذا الشكل مهما قال الناس وإذا لم يعجبك ارحلي أنت وزوجك!

وظللنا فترة لا نتكلم. جاء حامد ذات يوم، قلقا مضطربا، ولما ألححت في السؤال قال لي أن ثلاثة سجناء قتلوا، لأنهم

حاولوا الفرار، وأضاف وهو يبتسم بحزن: هكذا كتبت الجريدة! كانت تأكل، كانت تجلس على الأرض وأمامها صحن معدني لم تغيره من وقت طويل، وقد وضعت قطعة اللحم جانبا على قطعة من الخبز، لعلها تأخذها لرجب. رغم أننا كنا في يوم الأربعاء، أي قبل الزيارة بيومين! لما رأني توقفت عن الأكل، تطلعت إلي باستغراب، وتساؤل، رغم محاولتي أن أبدو هادئة. نحت الصحن جانبا ونظرت إليّ، وقبل أن تسألني قامت بحذر، حملت السلة ولم تنس أن تلتقط قطعة اللحم وتمضي!

وفي المساء ظلت ساعات طويلة تلح علي لأقول لها ما سمعت. قلت لها كل شيء، وأكدت أن الحادث وقع في السجن الصحراوي البعيد، فلم تقتنع، وأيقظت حامد، بعد منتصف الليل والدموع في عينيها لتطلب منه الذهاب معها إلى مدير الشرطة في تلك الساعة المتأخرة. وألح عليها حامد كي تؤجل الأمر إلى الصباح، ولما يئست فتحت باب البيت وجلست على العتبة حتى الصباح!

كنت أتصور أن ما تفعله أُمي يسئ إلينا كلنا، وإلى رجب بشكل خاص. كنت أعتبر موقف رجب خاطئاً منذ البداية. إذ ما فائدة العمل الذي يقوم به؟ وهل يستحق هذي السنين الطويلة التي يقضيها في السجن؟ وأُمي، ماذا يجدي أن تذهب من بيت لأخر والسجناء في سجنهم بعد أن صدر عليهم الحكم؟

كنت أتصور الأمر خطأ، لكن ظلت تصوراتي تنام في صدري، لم أقلها لأحد، حتى حامد وهو يسخر من السياسة، كان يضطرنني أن أدافع عن موقف رجب، وقد أدى ذلك إلى خصومات كثيرة. أما مع أمي فقد كان الأمر مختلفا تماما إذ أحسست أن كلمة واحدة أو التفاتة تصدر عني، تسيء إلى رجب فإن ذلك يمكن أن يدفعها إلى الجنون. آخر مرة بعد صدور الحكم بشهور، قالت لي:

– اسمعي يا أنيسة، إذا سمعت كلمة واحدة عن رجب فلن تراني عينك، سأرحل.

بعد وفاتها تغير كل شيء. ندمت كثيرا على تلك الأفكار التي كانت تنتطح رأسي بين فترة وأخرى، وندمت أكثر على الكلمات التي قلتها، بل تصورت أن موقفي ساعد على موتها بهذه السرعة.

منذ أن ماتت، قررت أن أكون لرجب أكثر من أخت. أصبحت أمه وأخته في نفس الوقت، وتحملت من أجل ذلك أكثر مما تحتمل امرأة في مثل سني. حتى حين كنت أسافر إلى تلك القرية الملعونة، على أطراف الصحراء، كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد. وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجه اثنين من الشرطة عندما أسمعاني كلمات بذيئة، ونزعت حذائي أكثر من مرة وهددت المحبر بالضرب، أما الانتظار والجلوس على باب السجن،

فقد تعودته تماما وبدأت أجد لذة حين أسمع قصص الأمهات والزوجات عن الأبناء والأزواج، وأصبح لدي شيء يمكن أن أرويّه عن رجب!

بعد فترة من الزمن أصبحت بنظر النساء امرأة لها ميزة تفوق الكثيرات. كيف أن رجل حكم إحدى عشرة سنة، وظل معلقا سبعة أيام بليليتها في السقف، وانه تعرض لعذاب لا يحتمله إنسان. كانت النسوة يستمعن إلي بخوف ممزوج بالاستغراب والتقدير، وكنت لا أمل أبدا من إعادة هذه القصص، التي كان لها أن تنهي بكاء امرأة عجوز، أو بنت صغيرة، بصورة خارقة. كنت أقول لهن: كل ما تسمعه من الشرطة كذب، فالشرطة تقول هكذا كي تخيفنا، ولو صح ما يقولونه فإن الرجال قادرون على الاحتمال أكثر مما نتصور، ماذا تظنن؟ أخي رجب إسماعيل، ظل ثلاثة شهور وسبعة أيام في المنفردة. كان ينام ويأكل، دون أن يرى إنسانا أو يسمع صوت إنسان، ليس هذا فقط، رأيت مباشرة بعد هذه الفترة كان أكثر شجاعة وأقوى من ذي قبل!

نفس القصص التي كانت تردها أمي بدأت أرددها، وكأني سمعتها من لسان رجب مباشرة، لم يقلها أحد، بل رأيتها بعيني وأصبحت مقتنعة بكل كلمة، وكانت النساء في أغلب الأحيان يسألني عن أدق الأمور وأصعبها.

لكنني لم أستطع ممارسة هذا الدور حتى النهاية. لما رأيت

رجب قبل شهرين مريضاً، ونوبات الإغماء تتكرر، وجدت نفسي أحارب نفسي أكثر مما أريد أن أحاربه. قال طبيب السجن، وهو من نفس قرية حامد:

– يجب أن تفعلوا شيئاً من أجله وبسرعة. إذا تأخرتم خسرتكم الرجل!

لما قال لي حامد ذلك أصابني الخوف. تصورت أن رجب لن يموت فقط، وإنما سينتهي معه كل شيء. اسودت الدنيا في عيني، وبدأت أحاول. نسيت كلمات أمي التي ظلت ترددها لكل من يسألها، حتى قبل أن تموت بأيام قليلة. قالت مرة لعمتي، وهما تتحاوران:

– ماذا تظنين يا حسيبة، رأس مال رجب شرفه، إذا فقدته فقد كل شيء. ثم أنا أعرفه، الله يسلمه، عنيد ورأسه مثل الصوان.

قالت أمي هذه الكلمات عشرات المرات، كانت ترددها لنفسها، حتى لو لم يسألها أحد، كانت تقولها أمامي وأمام حامد لكي تحارب تلك الأفكار التي تدور في رؤوسنا، حتى لو لم نقلها.

في يوم ماطر، عند أول المساء، دخلت مبلة ترتجف، ظننتها أول الأمر ترتجف من البرد، لكن ما كادت تجلس قريباً من النار، حتى خرج صوتها غاضباً:

— الله يقطع هذي الأم، هذه ليست أما، هذه مزبلة، نكون جالسين بانتظار أن يسمحوا لنا أو أن يأخذوا الأكل، وما أن يظهر أمر الحرس، ويبدأ ينادي على الأسماء، حتى تولول والدموع على خديها قناطير. قبل دقيقة كانت امرأة عاقلة، تحكي وتنتظر، لكن حين تدخل على ابنها تسبقها أصواتها، تبكي، تولول، تصرخ. هذه الآن تقتل...

وتصمت أُمي ريثما تجفف شعرها على طرف النار، بعد أن تفرده. تنظر إلي لترى آثار كلماتها، ثم تتابع، وهي ترخي الجذيلة الثانية وتقلبها:

— أم... ما أحقر مثل هذه الأم، اليوم خرج ابنها، خرج بعد أن اعترف على جماعته ووقع.

وتتطلع إلي، كانت نظراتها تبدو حانقة، أكثر من كلماتها، وكنت أتصور أن أُمي تقاوم قوة خفية، تعاودها بين فترة وأخرى على شكل خوف أو رغبات غامضة. لكن كانت تخاف منا أكثر مما تخاف من نفسها.

نسيت كلمات أُمي تماما لما رأيت رجب ذلك اليوم. وعندما جاءت كلمات الطبيب، تصورت أنني لن أراه مرة أخرى، وقررت أن اخترق مقاومته.

تقلب حامد، ضرب بيده طرف السرير، كأنه يقاوم قوة تحاصره، لما استقر في الفراش من جديد، انتزعت نفسي، مشيت على أطراف أصابعي، حتى إذا اقتربت من باب غرفة

رجب، أنصت..

كان يقطع السكون صوت أسنان تصطك. رجب نائم إذا. أتذكر صريف الأسنان، تلك العادة التي لم يتخل عنها أبدا. كانت تسأله أمي أن كان قد رأى أحلاما، كان يحاول أن يتذكر، وأغلب الأحيان لا يستطيع، حتى إذا سألتها عن سبب سؤالها، أجابته وتلك الابتسامة تملأ وجهها:

— قلت لنفسي ستفتت أسنانك، وكان صوتها عاليا وهي تصطك.

تعود رجب على السؤال. كان وجهه يتقلص وهو يحاول التذكر، لكنه لا يتذكر أو على الأقل، لم يكن يتحدث عن أحلامه.

تطلعت إلى الساعة الموضوعة على طرف الشباك، كان فسفورها يشع مثل حبات صغيرة راکضة. استغربت أن الساعة بلغت الثالثة والنصف. في السادسة يغادر رجب، يسافر، وقد لا أراه مرة أخرى.

لم يبق إلا ثلاث ساعات، ساعتان، وتنتهي تلك الأيام التي كونت حياتنا معا. لم تكن حياة حلوة، كانت صعبة، ومع ذلك أحبها أكثر من أية أيام أخرى.

خلال سجنه كنت انتظر الجمعة، وكأني طفلة صغيرة، ماذا انتظر بعد الآن؟

ان شيئاً في داخلنا تمزق، أحسست بذلك ونحن نمد أيدينا إلى الطعام في المساء الأول بعد أن خرج رجب من السجن.

كان الجو ثقيلاً. رجب صامت أغلب الوقت، لا ينظر إلى أحد، والمرح الذي حاول حامد أن يخلقه لم يجد على شفتي رجب إلا ابتسامات شاحبة، كانت ابتسامات حزينة وتغيب بسرعة، ويحل مكانها صمت ثقيل، ينذر بأخطار كبيرة.

تجنبنا الحديث عن السجن. لم نسأله إلا أسئلة عادية لا تثير ذكرى، وتجنب أكثر منا أن يتحدث. وفي كل المرات التي جلسنا فيها معاً، كان يحاول أن يظل صامتاً، لكن رغبتني في أن أخرج من صمته دفعتني لأن أهذي وأتحدث في أمور كثيرة غير مترابطة. كان يسمع ولا يجيب. حتى أسئلته، كانت من ذلك النوع الذي لا أعرف كيف يتذكرها. الآن تبدو لي الأمور أكثر وضوحاً. كنت أجيب عن تساؤلاته الصغيرة بسرعة، لم أكن أتصور إنها تعني أكثر من تساؤلات.

سألني عن جارنا الأسود، قلت له مات. سألني عن تمام الخادمة العجوز، قلت له ماتت. سألني عن أم جعفر، قلت له إنها ماتت قبل دخوله السجن، ولم يستغرب إجاباتي.

في وقت ما، وأنا أدور حوله ملهوفة وكأني معصوبة العينين، أريد أن أفعل شيئاً، لإبعاد الكآبة الثقيلة التي تخيم على الدار، والتي سرت عدواها إلى الأولاد، فأخذوا يلزمون الصمت أغلب الأحيان، أو يذهبون إلى الخارج ليلعبوا،

حاولت أن أذكره بأيام لعبه، وحين كنا في المدرسة... رأيته مرة واحدة يضحك ضحكة صغيرة فرحة، لكنه زمها بسرعة، وبدأ على وجهه ما يشبه الندم!

قبل ثلاثة أيام، وكنت أسير أمامه في الحديقة، خلف الدار، أريد أن أريه الأزهار الجديدة، وشجرة المانوليا التي كبرت، سألني دون تمهيد عن هدى!

ما زال الجرح في قلبه ينز. لم ينسها، ولم تغب عن فكره. كان سؤاله متلهفا ومباشرا، قال لي وعيناه إلى الأرض:

— ما أخبار هدى، يا أنيسة؟ هل ترينها؟ ألم تسأل عني؟

حاولت كثيرا تجنب كل ما يذكره بها. لم أذكر عنها شيئا، ولم أعطه بعد الرسالة التي تركتها، وأوصتني ألا يقرأها إلا بعد أن يترك السجن. قلت لنفسى، وأنا أحارب الأفكار التي تدفع بطيفها: «أصبحت الآن بعيدة، والأحسن أن ينساها، أما الرسالة فسوف أتصرف فيها بشكل ما».

أعرف هدى، كانت تريد أن توضح له شيئا ما. قالت لي عندما أغلقت الرسالة ودفعتها إلي مع تلك الدمعة الراجية «احفظي سري». ولم أشأ إلا احترام هذه الرغبة، كنت أريد في ذلك الوقت أن أترك لرجب ذكرى مضيئة، أما الآن، وأنا أراه حزينا لهذه الدرجة فقد تصورت أن قراءة مثل هذه الرسالة قد تتعبه، وتولد في نفسه أحزانا جديدة، وصممت أن أكتم أمرها.

قلت له، وأنا لا أزال أسير أمامه وعيناى تتيهان فى الأفق البعيد، أأول أن أتأيلها بالصورة التي يآبها رآب:

— لن أقول لك، هذه المرة، أن هدى ماتت، لا، إنها لا تزال آية. وبيتها لا يبعد كثيرا من هنا، ولكن هدى آغيرت، آغيرت كثيرا. أصبحت الآن سمينة، أسمن مما تتصور، وتذهب إلى آفلات الاستآبال، وتآآآ بمنااسبة وبدون مناسبة عن زوجها!

— ألم تسأل عني أبدا يا أنيسة؟

— فى البداية كانت تسأل، لكن منذ سنة، أو أكثر، لم أراها إلا مرة أو مرتين.. ولم تسألني...

وأضفت وأنا أأول تخفيف أثر كلماتي:

— عندما رأيتها لم تكن وآيدة، ولم أستطع أن أراها على انفراد، ربما كان هذا هو السبب الذي منعها من السؤال!

ظل صامتا يسير. لا أعرف عالم الرجال إلا من آلال رآب وآامد! وآتى هذا العالم، لا يبدو لي واحدا أو متشابها. وآين أتذكر هدى الآن، أتصور إنها آاولت كثيرا. كانت تبكي. كانت تقضى عآنا ساعات طويلة، ولا تفعل شيئا إلا البكاء. سألتني مثل طفلة صغيرة: «هل أهرب يا أنيسة؟ لا أطيق أن أتزوج غير رآب». لكن رآب كان بعيدا ومستآيلا، وأهلها كانوا يلاحقونها ويآاصرونها، ولم تكن

تستطيع أن تتخلص.

حاربت شبحها، عندما كان يسألني عنها وهو سجين. قلت له أشياء لم تحصل، ولكن ماذا أستطيع؟

ومع الأيام تغيرت هدى. تغيرت فعلا هذه المرة. لم تعد تسأل، لم تعد تبكي، خلقت لنفسها عالما جديدا، وبدأت تصبح جزءا منه. أما الرسالة التي تركتها لرجب، فقد حاولت بعد سنة من زواجها أن تستردها. ألحت كثيرا، رجتني ودموع الخوف تملأ عينيها، قالت أن زوجها سيقتلها لو عرف بذلك. وحين قلت لها اني أحرقت أوراق رجب كلها، وأول ما أحرقت رسالتها، بدت غاضبة وشاكة، وكانت كلماتي تلومها أكثر مما تقنعها، وأنا أقول: كل العالم القديم احترق ولا أريد أن نتحدث عن الأمر من جديد!

قلت لرجب، وأنا امسك بيده لكي اكتشف عالمه الداخلي:

— أمي زرعت لك هذه الشجرة، زرعتها بعد شهرين من سجنك.

قال بتساؤل لذيذ:

— شجرة حور!

— نعم شجرة حور، وقالت عندما يخرج رجب من السجن سيكون كبيرا شامخا مثلها!

ولأول مرة رأيت وجه رجب يتقلص من الألم، ثم تركني

بسرعة. اتكأ على حائط الدار باستسلام يائس، وبعد لحظة صمت مدمرة بكى. كان بكاء متوجعا، أقرب إلى النشيج.

ترأى لي في فترة من الزمن أن الحديقة التي حدثته عنها حين كان سجيناً، ستخلق في نفسه الفرح، ولكنني الآن وأنا أشير إلى الأشجار وأحدثه عنها تصورت أنني أقتله.

تركته يبكي. لم أفهم أول الأمر. ظننت أن ذكرى أمي هي التي دفعته لهذا البكاء، لكن لما استعدت الكلمات وجدتها حادة، نازفة بالمرارة..

قبل أن ينتهي ذلك اليوم، رأيت رجب والعرق المريض يغسله تماماً، كان يحاول قطع الشجرة، وبعد أن تعب، عاونه حامد. لم نسأله سبباً، ولم نحتج على ما يفعله، تركنا له أن يتصرف دون كلمة احتجاج واحدة، أما حامد، فقد قلت وأنا أقنعه بالإحاح لكي يساعد:

— بعض الناس يتوهمون خصومهم بالأشياء المادية. رجب يتصور هذه الشجرة عدواً. لا نريد أن نناقشه، المهم أن تساعد!

ساعده حامد بصمات. ظلا يعملان معاً، وعندما هولت الشجرة، تداعى جزء من السور. وفي محاولة يائسة، للاعتذار، قال رجب بطريقة مرتبكة:

— سأبني غداً هذا السور بنفسى.

فرحت عندما سقطت الشجرة. أما حامد فقد أغرق بالضحك بعد أن استراح، وأخذ ينظر إلى رجب تلك النظرة التي تمتلئ بالمودّة، وكانت ابتسامة ظافرة على وجهه عندما قال له:

– مثلما قرأنا في القصص... هذه الشجرة هي رمز للماضي، والآن بعد أن انتهت وسقطت سقط معها الماضي وانتهى، ماذا تقول يا رجب؟

قال رجب بكلمات بطيئة أقرب إلى الغموض:

– هذا النوع من الأشجار، النوع الضامر، الطويل، يولد في نفسي حزناً، ومن أيام بعيدة وأنا أكره الحور والسرو، إنها أشجار كئيبة!

حاول حامد أن يتحدث عن الأشجار، عن الماضي، لكن رجب الصامت أول الأمر، ثم الذي نهض فجأة وبشكل عصبي، جعله يتوقف، وكأنه أحس بخطئه!

بعد ذلك اليوم، ظل رجب في غرفته، لم يغادرها إلا قليلاً. أما السور الذي قال إنه سيبنيه، فقد طلب مني في صباح اليوم التالي أن أفتش عن رجل ليقوم بهذا العمل، تقبلت الأمر بهدوء، ولم أكن لأحتج على أي تصرف. كنت أريده أن يفعل ما يريحه، فلو بناه لما قلت كلمة واحدة، والآن وهو يسألني أن أفتش عمن يبنيه قلت وأنا أظهار بالمرح:

– أنت تهدم وحامد يبني! وحتى إذا لم يبنه حامد، فسوف

نفتح للحديقة بابا آخر.

وهز كتفيه دلالة الاستخفاف، وعاد إلى غرفته، وأغلق الباب وراءه!

الآن، مرة أخرى نسير في الحديقة، ورجب يسألني عن هدى. ماذا أقول له غير هذه الكلمات الميتة؟ أن هدى في ذاكرته هي تلك المرأة التي تقفز مثل غزال، تضحك، تغني، وبعض الأحيان يحمر وجهها من الانفعال، إذا اختلفت معه حول أمر من أمور السياسة، التي لم تكن تفقه منها إلا القليل!

رفع حامد رأسه في الظلمة. كان يريد أن يتأكد أن كنت قد نمت، أغمضت عيني بسرعة، ثم بعد برهة صغيرة، وكرد فعل لحركته، استدرت إلى الناحية الثانية، وتظاهرت بالنوم!

ربما تجاوزت الآن الرابعة. سيضيء رجب النور، قال لي في الليلة الماضية ونحن نطلب إليه أن ينام مبكرا:

— سأضع الأشياء التي استعملها في الحقيبة الصغيرة، سأرتبها بنفسني لأعرف مكانها.

وحاول أن يغير لهجته ليدخل الطمأنينة إلى نفسي، تابع وهو يضرب كتفي بمودة:

— سأنهض مبكرا لأحلق وأرتب الأشياء.

سينهض رجب. ربما نهض الآن، لم يضيء النور، لكن لا يمكن أن يستمر نائما.

في الأيام الماضية راقبته بدقة، كان ينهض مبكراً، ولا أعرف أين يذهب، خفت كثيراً لما رأيته في اليوم الثاني يخرج وتعمدت أن أنتظره.

يا إلهي كم تغير رجب، لم يعد ذاك الذي أعرفه، الذي عشت معه. إنه الآن إنسان آخر. هل مات رجب ذاك؟ هل تركه في السجن؟ والإنسان، هل يمكن أن يتغير بهذا المقدار؟ الصوت المشبع بالثقة والمودة، تراجع ليحل مكانه صوت هامس يخنقه البلغم والسعال، العيون الضاحكة، التي كانت تسميها أمي عيون اللصوص، انطفأت تماماً، عيونه الآن مثل مرايا مجللة بالبخار، لا ترى أبداً، تتطلع، لكن لا ترى. آه لو تركني رجب أطلع إلى جسده. هل يمكن أن يتغير الجسد أيضاً؟

قلت له والأطياف والأفكار تتراكض في رأسي بسرعة مجنونة:

– السجن غيرك؟

– لا.. لم أغير، وإذا تغيرت، فنحو الأحسن!

– السجن يغير الإنسان إلى الأسوأ، ألا ترى كم كبرت؟ كم تعبت!

ولكن لم أعد أعتمد على أحد، تعلمت أشياء كثيرة. غسيل الملابس، الصحون، ولا تستغربي يا أنيسة إذا قلت أنني

أصبحت اشطر من امرأة في خياطة الأزارار والرقع.

– وتعلمت أن تغتسل وحدك؟

– في البداية كنت أحلك ظهري بالجدار، لكن تعلمت أن أمسك الليفة من الناحيتين وأفرك.

لو أرى جسده لأتأكد من الجروح في الساقين، والكتف، إلا تزال جراحك التي أتذكرها في مكانها؟ ألم تتغير؟

لا يريدني أن أرى جسده كي لا أكتشف الآثار التي قالوا إنها في أجساد السجناء مثل الخرائط، ولكن إلا تتغير تلك الآثار؟ سمعت قصصا كثيرة عن السجناء الذين يفاخرون وهم يشيرون إلى آثار التعذيب: الورم في الأرجل، العلامات الزرقاء على الظهر، كانوا ينظرون إلى العلامات بدهشة يمازجها الشعور باللذة، كأنهم يكتشفونها لأول مرة. نظرت إلى جسد رجب قبل أيام، كان يمد ذراعه في كم القميص، تقدمت منه دون أن أشعر، ووضعت أصبعي على كتفه قريبا من الصدر، أتحسس نتوءاً متورماً.. رفع ذراعه بسرعة، يريد أن ينتهي من ارتداء قميصه، ولما رأى السؤال في عيني قال:

– لا تظني أن كل شيء من السجن، هذا مكان الجرح عندما سقطت عن شجرة الجوز. إلا تتذكرين؟

أتذكر أن ذراعه كسرت، ولكن لا أتذكر وربما أو علامة، وحتى لا يترك الفرصة لأسأله قال:

– لا يتركون علامات، ولا يحبون أن يكون السجين مشوها، حتى لو اعترف فإنهم يحتفظون به إلى أن يشفى!

– هل ضربوك كثيرا يا رجب؟

وبعصبية رد، كأنه فوجئ بالسؤال، ولا يطيق أن يتحدث:

– لا.

– والأخبار التي سمعناها؟

– كذب.. كلها كذب.

لم أستطع أن أصدق، تمنيت لو أرى جسده، لو رأيته بنظرة خاطفة، اقرأ فيه كل شيء: الآثار، التغيرات، الكبر، ولكن رجب يعتبر جسده، منذ وقت بعيد، سرا، ولا يبيح لأحد أن ينظر إليه. أتذكر عندما سمع قصة ذلك الرجل الذي سكن بعيدا من بيت خالتي، والذي كان يحلو له أن يتعري من أغلب ملابسه ويصعد إلى السطح، عندما سمع رجب أن أولاد الحي ضربوه وأرغموه على أن يترك البيت، قال لأمي وهي تتحدث عنه:

– الحيوانات تقرف من النظر إليه، ماذا يظن؟ هل يتصور

أن النساء يتراكن عليه ويرتمين تحت أقدامه؟

ولم يعلق أحد على تلك القصة، لكن رجب قال لمنعم، ابن

خالتي، بعد أيام وهو يسأله عن الرجل:

– لو كنت مكانك، لأركبته حماراً بالمقلوب وجعلته يسير في الشوارع! إلا يخجل من كرشه؟ من مؤخرته التي تزيد عن خنزير؟

إن شيئاً في جسد رجب يسبب له الخوف، لست متأكدة، لكن لما سألت حامد عن شبابه وحاولت أن أقارن، تبين لي أن الاثنين يختلفان، فحامد لا ينسى أبداً القصص التي تؤكد قوته، كان يكررها بلا ملل: «ثلاثة كانوا.. وكنت وحيداً لم يكن معي سلاح، لكن تظاهرت أن شيئاً في جيبي، ضربت الأول فسقط على الأرض، ضربت الثاني على وجهه، وسال منه الدم، وبعد الضربة الثانية كانت اثنتان من أسنانه الأمامية في فمه وعندما بصق الدم، سقطت إلى الأرض.. أما الثالث فقد بقي متفرباً أول الأمر، ثم هرب».

سمعت هذه القصة من حامد عدة مرات، وسمعت غيرها. رجب لا يحب أن يمتحن جسده. كان يعتمد على خفته، ومهمته أن يبدي براعته في أمور يتصور أن الآخرين لا يستطيعونها. كان ماهراً بالكرة، بالركض، أما جسده فأقرب إلى الضمور، وظل كذلك في فترة طويلة، حتى حين أصبح كبيراً، وبدأ يعود من المظاهرات دامي الوجه، متورم الشفة، فإنني أعتقد إنه كان يعتمد على براعته أكثر مما يعتمد على قوته!

قلت أول أمس وأنا أضع في صحنه قطعة أخرى من

الدجاج:

– عادل يأكل أكثر منك، لماذا لا تأكل؟

رد علي بكلمات غاضبة، وهو يضرب على بطنه دلالة الشبع:

– أصبح الأكل مضجرا بالنسبة لي. ومع ذلك أكلت كثيرا!

ربما يريد أن يعذب نفسه بشكل ما. بدأت أعتاد عليه من جديد، لكن رجب لم يعد ذلك الذي أعرفه. بعد ساعة يرحل، وهناك، من سيعد له طعامه؟ وهل سيأكل؟ إنه الآن معنا ويهرب من الأكل، ماذا سيفعل إذا ظل وحيدا؟ لن أنسى أن أكتب إليه، سأوصيه دائما أن يهتم بصحته، لقد أفسده السجن اللعين، وهو الآن بحاجة إلى عناية زائدة، لكي يعوض السنين الخمس التي لم يأكل خلالها مرة واحدة مثل إنسان! لقد قال أن أكل السجن لذيذ، لا أصدق أبدا، عندما رأى وجهي ساخرا قال بإصرار:

– الجوع أحسن معلم. قبل السجن كان لي مزاج خاص: هذا طيب، هذا أحبه، هذا لا أحبه. في السجن كنت أكل أي شيء، ولكي لا أعلق، قال:

– حشو مصران، المهم أن يأكل أي شيء، فقط لكي لا يجوع، ومع ذلك كان الأكل لذيذا.

والنوم.. هل استيقظ رجب؟ بقيت له ساعة، ويرحل، أن

النوم عدوه في هذه الأيام. لا أعرف متى ينام ومتى يستيقظ؟ كان الضوء يلعب في أنحاء الغرفة أغلب الساعات، ولما سمعت أقدامه عند الفجر، في اليوم الثالث بعد الخروج من السجن، استغربت كثيرا. أتذكر أنني رأيت ضوء غرفته بعد أن استيقظت للمرة الثانية، تلك الليلة. كان النوم يطفو على عيني بلذّة، ظننته أول الأمر قام ليشرب، وأنه سيعود، لكن لما سمعت الباب الخارجي يغلق وراءه اضطربت. أين يذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟ تركته، ولم أسأله في اليوم الأول، لكن عندما سمعت الباب في اليوم التالي، وفي نفس الموعد، تقريبا، قلت في نفسي: رجب يعرض نفسه لمخاطرة جديدة.

انتظرتة حتى عاد. تظاهرت أنني لم أسمعه عندما ذهب، أبديت دهشة كبيرة وأنا أراه يدخل. فتح الباب بهدوء وانزلق، لما رأيته أمامه تراجع وبدت في وجهه آثار غضب وحيرة.

قلت له وأنا أضغط على الكلمات لكي أجعل لها وقعا متشجعا:

– خرجت إلى الهواء لكي تحارب الأرق، يبدو أنك لم تتعود على الحياة الجديدة!

قال باضطراب:

– نمت مبكرا، ولم أستطع البقاء في الفراش أكثر، فخرجت!

– تعودتم أن تستيقظوا مبكرين؟

– ليس قبل السادسة!

– ولكن الساعة الآن أقل، كما الساعة الآن؟

قال وهو يتجه إلى غرفته، لكي أكف عن الثرثرة:

– حوالي السادسة، ربما أكثر قليلا!

– هل أصنع لك قهوة يا رجب أم تريد أن تنام ثانية؟

– سأنام!

رجب يفعل أشياء غامضة، إلى أين خرج؟ ماذا فعل؟ أريد أن أعرف، لكن لو أحس أنني أراقبه، لو سألته، فإنه لن يرحب بمثل هذه الأسئلة، ولن يغفر لي! لم تتغير عاداته في السجن، والأسئلة تولد في نفسه مرارة، لا تلبث أن تصبح عصبية منهورة.

كان يقول لأمي إذا سألته:

– إذا كنت تحبيني فلا تسألي. أصبحت كبيرا وأعرف كيف أتصرف، لا تخافي أبدا!

وعندما تحاول أن تتوصل إليه، أو تشعره بأنها لم تستطع النوم، لأنها قلقة وخائفة، كان يقول:

– نامي، وإذا جئت ولم أرك نائمة، فسوف أتأخر أكثر. سأنام خارج البيت.

حاولت معه مرات كثيرة، ولما فشلت، تركته. ونفس الأمر حصل بالنسبة لما يقوم به من أعمال. لم تتجرأ أن تسأله، بعد تلك الليلة التي رد عليها بطريقة جعلتها عصبية أول الأمر ثم ذهبت إلى فراشها وأخذت تبكي! قالت له مرة:

– يا بني لو تترك السياسة، أنت ترى بعينيك كيف أخذوا ابن النداي، كيف حبسوا مجدي، ماذا تفيد السياسة يا بني؟
قال لها بغضب:

– هذه قضايا أكبر منك فلا تتدخل، أنا كبير وأعرف كيف أتصرف.

– ولكن ترى بعينيك؟

– ماذا أرى؟

– كل يوم يحبسون واحدا، كل يوم يقتلون واحدا، ماذا أفعل إذا حبسوك؟ إذا قتلوك؟

– اطمئني إذا حبسوا فسوف يحبسونني فقط، أما أنت فلن يقتربوا منك!

– وهل تتصور أنني احتمل الحياة يوما واحدا بعد أن يحبسوك؟

– لماذا لا تحتملين؟

– أموت، أقتل نفسي؟

— ما شاء الله، كنت أظن أن لي أماً أقوى من الرجال، كنت أتصور أنني إذا ذهبت إلى السجن، أذهب وأنا واثق، وأنا مطمئن، لا دموع ولا صراخ، أنت الآن وقبل أن أسجن تهددين، تريدين أن تجعلني امرأة؟ أن أتحول إلى رجل مخصي؟

لا أعرف ما الذي دفعني لأن أتدخل. لو ظلت المناقشة بينهما لانتهت دون نتائج. لكن عندما قلت لأمي بلهجة باردة، أقرب إلى التأنيب، أن تكف عن التدخل في شؤونه، ردت علي بعصبية:

— أنت لست أماً ولا تعرفين شعور الأمهات، إذا سجن فلن تركضي في الشوارع، ولن تسهري الليل. ماذا أستطيع أن أفعل؟

قلت لها بنفس اللهجة:

— رجب أمامك الآن، وقبل أن يُسجن يجب ألا تتحدثي عن السجن.

— بعدما يموت تريدين أن أوصيه؟

قال رجب بعصبية كي ينهي المناقشة:

— اتركوا الموضوع، وإذا سُجنت فأنا أتحمل النتائج!

— لكن يا ابني أنا أم وأنت تعرف قلب الأم.

- إذا كانت كل أم تقول الكلمات التي تقولينها فلن يتحرك أحد، وسوف نموت في المزابل.
- ولكنك تعرض نفسك للهلاك يا ابني.
- أنا كبير وأعرف ما يجب أن أفعل!
- قلت وأنا أفهم رجب، وأريده أن يهدأ:
- أمي.. التركيبة كما يشاء.
- إلى الجحيم، ليفعل ما يشاء، وأنا لن أتدخل ولا شأن لي!
- قال رجب غاضباً:
- اذهب إلى جهنم ولا أريد أن يذهب معي أحد!
- لو كان أبوك حياً وراك بهذا الشكل، تُعرض نفسك للخطر، لعرف كيف يربيك!
- الحمد لله إنه ميت، وحتى لو لم يكن ميتاً، فأنا أعرف كيف أتصرف.
- هل تقول شيئاً إذا منعك من العمل في السياسة؟
- ربما لن يمنعني. راح ذاك الوقت الذي كان يستطيع فيه أحد أن يمنعني!
- يا ابني يجب أن تسمع كلمتي.
- أنت خرقة ولا تعرفين شيئاً.

قالت بعصبية جامحة، وكأن الجرح الذي أصابها لم يترك لها فرصة لكي تفكر بهدوء:

— مائة جهنم، وأكون مجنونة إذا سألت عنك!

— مائة جهنم، وأنا لا أريد من أحد أن يسأل عني!

ذهبت غاضبة إلى فراشها، لكن ما كادت تستقر في الفراش، حتى بدأت تبكي، كان بكاؤها هادئاً أول الأمر، ثم تحول إلى نشيج، ولم يفعل رجب شيئاً. ذهبت إليها، وظللت أتكلم معها ساعة، قلت لها أشياء كثيرة، ولم ترد علي بكلمة واحدة، حتى إذا هدأت، نامت دون أن تبذل ملابسها!

منذ ذلك الوقت تجنبت سؤال رجب عن أشياء كثيرة. كنت أحاول أن أضعه في جو معين كي يتكلم، فإذا تكلم وحده، أو تهيأ، أدفعه تدريجياً لما أريد، وأغلب الأحيان أرى على وجهه ما يشبه الندم، إذا تحدث في أمور لا يجدر أن يقولها لامرأة أو لإنسان غريب!

ومنذ ذلك الوقت، عرفت أن رجب لا يضيق بالأسئلة فقط بل يكرهها، وتدفعه لأن يتصرف بقسوة ليست من طبيعته.

سأل جارنا ذات يوم، وكان جاراً جديداً، ظل يسكن بالقرب منا إلى أن ماتت زوجته في السنة. الماضية، وكان يكبر رجب بقليل. سأله حين كان يزورنا لأول مرة عن أصل العائلة، وعن عدد أفرادها وعن مصدر دخلها. أجاب رجب

عن أسئلته بضيق، حتى إذا سأله عن مساحة الأرض التي نملكها في القرية، وما إذا كنا نستثمرها مباشرة أو عن طريق أقاربنا، نظر إليه رجب نظرة حائرة وقاسية وسمعته يقول بعصبية:

– لي أخت واحدة ومتزوجة، وأنا لا أريد أن أتزوج في الوقت الحاضر!

فلما استغرب الرجل، وبدأت على وجهه علامات التساؤل والحيرة، قال له رجب:

– يا سيدي، لا حاجة لمثل هذه الأسئلة، وأعتقد أن أحدا لا يسألها إلا إذا كان يريد أن يصاهر!

حاول الرجل أن يعتذر، لكن ظل هذا اللقاء مطبوعا في ذاكرة رجب، كذكرى حزينة تنثير في نفسه الكراهية، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها لأمي، حين ألحت عليه أن يرد الزيارة لجارنا، قال لها بحزم:

– لا أريد زيارته، أما التحقيق فسوف يأتي دوره، لا تخافي!

ولما استغربت أمي رده، قلت لها بعد أن خرج كيف أن ذلك الجار أثار رجب بالأسئلة.

وصمتت أمي دون أن تقول شيئا!

يجب أن استيقظ، سأذكر كل شيء عن رجب فيما بعد،

الآن أريد أن أراه، أن أتملى من وجهه في الساعة الأخيرة، قد لا يعود، وحتى لو عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب.

لما دفعت الباب بهدوء، رأيت رجب ينحني فوق الحقيبة الصغيرة. تقدمت على أطراف أصابعي لكي لا يراني، حتى إذا أصبحت قريبة جداً، رأيته يضع مجموعة من الأوراق!

أتذكر الدفتر الأسود، وهذه الأوراق اللعينة. خفت وتصورت أن الغضب سينفجر دفعة واحدة، وسيغرقنا في بحر من الحقد الأصم. إنها نفس الأوراق، نفس الدفتر، لقد أعطاها لأمي، وكان شديد الحرص على أن يبقوها سرية، وبعيدة، بحيث لا تصلها يد.

أتذكر أن صمنا مرتاباً كان يخيم على الغرفة، في ذلك اليوم، رأيت أمي تجفل وتضع الأوراق بسرعة تحت الفراش حين دخلت، تراجعنا وأنا أتظاهر أنني لم أر شيئاً، وقبل أن تموت أمي، قالت، وهي تشير إلى المدخنة، في الغرفة العليا، الصغيرة:

– أنيسة، أمانتي الوحيدة أن تحفظي هذه الأوراق لرجب، لا أعرف ما فيها لكنه أئتمني عليها كثيراً.

لم أحب. ظلت الأوراق في مكانها فترة طويلة، لكن الشيطان الثاوي في قلب كل إنسان، ارتعش ذات يوم في قلبي، ولا أعرف كيف امتدت يدي إلى الأوراق.

لا أستطيع أن أقول كل شيء، لأنني لم أقرأها كلها، وحتى لو قرأتها، فربما كان من المضي أن أتكلم. لم تكن أوراقا خطيرة، ولا تعني أحداً غير رجب، ولو وقعت في يد أي إنسان فلن يجد فيها ما يجده رجب. إنها دون كلمات كبيرة، عالمة الصغير، أفكاره، أحلامه، حبه وجنونه، وفيها بعض الشتائم، هذا ما أريد أن أتذكره.

لما رأي ارتجف، نظر إلي بحقد، كأنه يرتكب عملا فظيحا، ولكي أبعد أفكاره وأوحي له بالثقة قلت:

— أصنع القهوة الآن أو بعد أن تحلق؟

رد وابتسامة شاحبة تتخلل كلماته:

— لا يهم.. الآن أو في أي وقت.

— وهل انتهيت من ترتيب أغراضك؟

— تقريبا!

— ألم تنس شيئا؟ حاول أن تتذكر.

ودون أن يحاول، قال بعصبية:

— لم أنس شيئا.

ارتمتي على مقعد قريب. دفع الحقيبة برجله لكي يبعدها، قال لي وهو يمد إلي سيجارة:

— أنتذكرين ما كانت تقول أُمي عن السيجارة الأولى؟

هزرت رأسي دون أن أجيب، كنت أريده أن يقول، لأنه يتذكر أمي من جوانب لم أستطع أبداً أن أتذكرها، فلما رأني صامته، قال:

– «السيجارة الأولى سم، أقوى من السم، ضع سيجارة في ماء واتركها حتى تحل، وانظر إلى لون الماء بعد ذلك، إنه اصفر قائم، هذا هو السم». أما كيف عرفت السم، من قال لها أن لونه هكذا، فلم تجب أبداً. كانت تردد هذه القصة كلما رأنتي أأخذ قبل الأكل، وكأنت تحاول أن تسرق مني السيجارة، تركض لكي تعطيني شيئاً أكله، أتتذكرين ذلك؟

هزرت رأسي. ورأيت ملامح وجهه تعتكر وتتداخل، حتى لتصبح قاسية، قال:

– لذلك سأدخل وحدي، لن أعطيك سيجارة مثلما فعلت في الليلة الماضية.

قلت وأنا أحاول تقليد أمي لأدخل على قلبه بهجة الذكرى في الساعة الأخيرة:

– وكيف تدخل قبل أن تأكل يا رجب؟ إلا تعرف أن السيجارة الأولى سم، أقوى من السم؟

– السجن يعود! والسيجارة الأولى الآن تجعل لحقي استمرار طعم المرارة، التي احتاجها.

– لماذا تقول هذا يا رجب؟

– وهل ما قلته شيء سيئ؟

– تغيرت حتى طريقتك في الكلام!

سحب عدة أنفاس، وهو غارق في ذكريات بعيدة ومتناقضة، هذا ما أحسسته من حركاته العصبية ومن وجهه الذي كان يتغير في كل لحظة، وكأنه يصارع قوى عديدة. فجأة، رأيته يعتدل في جلسته، يسحب قدمه التي كانت مثل مخلوق زائد في ارض الغرفة، ويقول:

– ما زلت حائرا يا أنيسة، هذا الدفتر الذي تركته عند أمي، والذي أخذته منك، وأشار إلى الحقيبة، لا أعرف إن كان يجب أن أخذه معي، أم أحرقه قبل السفر. إذا أخذته قد يفتشونني ويجدونهم، وهذا فضيحة جديدة، فضيحة من نوع آخر: رجب عاشق، رجب يكتب أشعارا، رجب يحلم. سوف ينشرون كل شيء كي يضحك علي الجميع، خاصة أصدقائي، وقد تصل الجريدة إلى السجن: إلى عصمت وأمجد.. والآخرين، سوف تتأكد كل الأفكار التي قالوها عني. وإذا لم أخذه معي، وإذا أحرقته، قد أندم، فيه بقايا أشياء أريد أن أحتفظ بها كذكرى.

كان يتدفق وهو يتكلم، كأنه يتحدث إلى نفسه، لم يكن يرى أحدا، ولم يكن يسألني، كانت كلماته محاولة أخيرة لإقناع نفسه.

قلت:

– اتركه عندي يا رجب، وعندما تعود سوف تتصرف به
كيفما تشاء.

– ولكني أحبه يا أنيسة، وقد فكرت فيه كثيرا وأنا سجين.

– أعتقد أنك قرأته في هذه الأيام، وتذكرت كل ما فيه، ولا
حاجة لأن تُعرض نفسك لأخطار جديدة، أليس من الأفضل أن
تتركه؟

– قد يكون من الأفضل أن أحرقه، ماذا تقولين؟

– اتركه عندي الآن. سأضعه في مكان أمين، ولن تمتد إليه
يد حتى تعود!

– قل لي الصدق يا أنيسة، هل قرأت هذه الأوراق؟

كيف أجيبه؟ هل أقول أنني قرأت بعض الصفحات؟ هل
أنكر؟ لا أستطيع أن أقول كلمة ولا أندم عليها. إذا قلت قرأتها
فسوف يغضب، أتذكر صمته عندما دخلت عليهما، حين
أعطاه لأمي. إذا قلت لم أقرأها، فلن يصدقني، سنفضحني
عيوني. إنه يسأل بعض الأحيان بعينيه، تكون عيناه مركزتين
علي تماما، وبشكل مدمر يرى ما يجول في رأسي من أفكار،
حتى لو لم أقل كلمة واحدة. قلت وأنا أغامر بكل شيء:

– قرأت بعض الأوراق يا رجب، لأنني خفت من الشرطة،
خفت أنه إذا جرى تفتيش جديد وعثروا على الأوراق، أن
يخلقوا لك المتاعب، قرأت لكي أتأكد أن هذه الأوراق لا

علاقة لها بالسياسة!

– وأي شيء قرأت؟

أمسكت يديه بكلتا يدي، أحاول أن أفنعه ليصدق، قلت:

– صدقني يا رجب إنني لا أتذكر، كنت أريد أن أعرف فقط.

– وأي شيء عرفت؟

قلت ضاحكة وأنا أهزه لكي يقوم:

– لن أفشي أسرارك لأحد، تأكد من هذا تماما.

– حتى لو ضربوك؟

– حتى لو ضربوني.

– لو استعملوا الكهرباء؟

– لو استعملوا أي شيء.

– تكذابين.

– أكذب؟

– نعم تكذابين. الإنسان يقول إنه لن يقول شيئا، أما إذا بدأوا يضربونه، إذا استعملوا أساليبهم، فإنه سيقدر في تلك اللحظات. وكيف يقرر؟ أن جسده هو الذي يقرر، الإرادة في تلك اللحظات تموت، تخبو، والجسد وحده هو الذي يفعل كل

شيء!

– وهل تحملت كثيرا قبل أن تقول يا رجب؟

بصق على الأرض، وقام.

كنت أتمنى لو تكلم، لو قال شيئا فإن صورة رجب ستبدو أكثر وضوحا بالنسبة لي، ولكنه الآن يرحل، وترحل معه أسرارهِ، هل قال رجب شيئا؟ هل تحمل كثيرا قبل أن يقول؟

ماذا كان شعوره بعد أن رأهم يعيدون عليه الكلمات التي قالها جسده، وهو يتلوى تحت كلماتهم وكرابيجهم؟

كان من الواجب أن أرغم رجب على أن يقول شيئا، لكن يبدو هذا مستحيلا الآن. لماذا لم أسأله في الأيام الماضية؟ لماذا تركته وراء الستائر في غرفته العجوز يعلك ذكرياته وحده؟ أن الإنسان مهما كان قويا، لا يعادل ذبابة إذا كان وحيدا! رجب كان وحيدا، هو الذي اختار أن يكون كذلك، لكن لماذا يختار ويقرر وحده؟

والأوراق.. والدفاتر، أتركهما له؟ أحتفظ بهذه الذكرى وأبيح لنفسي كل الحق في أن أقرأ الكلمات وأتذكر رجب عندما كتبها؟

رأيته وهو ينهض ويضرب الحقيبة بحقد، ربما كان يضرب الأوراق، الماضي، لحظات تعب! قلت وأنا أحاول أن أعيده:

– ماذا قلت. هل ستترك الأوراق أو تأخذها معك؟

– لا أعرف، قبل أن أغادر البيت بدقيقة واحدة سأقرر!

– الأفضل أن تقرر هذه اللحظة، ونحن الآن وحدنا، أما إذا كان معنا حامد والأولاد فقد يكون صعبا أن تترك الأوراق. إذا رأوها فسوف يسألون، ولن أستطيع أن أحفظ بها سرية كما فعلت في الفترة الماضية!

– لا تخافي يا أنيسة، إذا قررت أن أبقئها هنا، فسوف أقول لك أن تحرقها، لأنني لست بحاجة لها بعد ذلك!

– الأفضل أن لا تأخذها، لو تتركها الآن، سأحفظ بها حتى تعود!

– لا أعرف!

كنت أصنع القهوة لما أخذ يحلق، كان الصمت ممتدا مثل جسر من الموت، لم أكن أسمع تمزق صوت الماء وهو يتقلب في الوعاء ويغلي، تذكرت الأوراق من جديد، وكنت أضع القهوة في الماء الغالي وأتذكر:

مجموعات من الأوراق مطوية بعناية، ودفتر أسود له غلاف مقوى، وصفحات كثيرة، حاولت أن أتذكر...

مذكرات ثلاثة شهور، انتهت قبل السجن بفترة طويلة، وخلال الشهور الأخيرة لم يكتب شيئا رغم الأوراق البيضاء. بعد المذكرات أشعار، ثلث الدفتر أو أكثر قليلا.

كان عنوان الأشعار «عربدات صغيرة وحزينة» أما القسم الأخير فقد وضع له عنوانا ثم شطبه، كان العنوان الأول: «أفكار من أجل الحرية» وبعد أن شطب هذا العنوان كتب تحته «بلا عنوان»!

ماذا قرأت؟ هل أتذكر الكلمات واللحظات العنيفة التي مرت تحت عيني؟

انسفحت القهوة. رأيته هذه المرة يقف ورائي، ويضحك. لقد تبادلنا الأدوار الآن. قبل قليل كنت أتابع حركاته وهو يرتب الحقيبة الصغيرة، لم يرني أول الأمر، وعندما التقت عيوننا أجفل، وبدا حائرا وغازبا. والآن، منذ متى يقف ورائي ويراقبني؟ كانت يدي ترتفع وتنخفض بوعاء القهوة دون وعي، حتى إذا قربتها من النار أكثر مما ينبغي، انسفحت، انطفأت النار واستيقظت.. ورأيته يضحك!

قال لي ينقذني من الحرج:

— لقد نسيت كيف تحضر القهوة، لم نشرب طوال سنوات، لكن أستطيع أن أصلحها الآن بعد أن أفسدتها!

ولم أتركه. أضفت من جديد ملعقة من البن وقليلًا من السكر.

لم يتغير رجب وحده، تغيرنا كلنا، وإلا كيف أفسر هذا الولع، هذا الارتجاف في اليد والخفقة في الصدر؟ كيف أفسر

تصرفاتي كلها؟ لم أعد كما كنت أختا وأما. إنني أتعذب الآن. ولا أعرف كيف ستنقضي هذه الساعة الباقية، أخاف أن نبقي وحيدين. أخاف على نفسي، وأخاف عليه أكثر. ماذا لو عاد إلى البكاء مثلما فعل في الليلة السابقة! ماذا لو بكيت؟ أن هذا الجو المشحون دائما يهدد بالانفجار كل لحظة، يمكن أن يتحول في ثانية إلى عويل مجنون، إلى هستيريا من البكاء لا يوقفها أحد!

وإذا لم نبك فماذا نستطيع أن نفعل؟ هل أدور حوله لأنظر إليه وأحفظ تفاصيل وجهه وحركاته قبل أن يرحل؟ هل أشغل نفسي بأشياء تافهة لكي لا أجلس في مواجهته وأنظر إليه؟ أكاد أفقد سيطرتي على نفسي!

كنت طوال الفترة الماضية أخاف أن أكون وحيدة مع رجب. أجلت مرات كثيرة الأفكار والكلمات التي كنت أريد أن أقولها. الآن، وأنا أراه يلتقط فنجان القهوة ويشرب منه رشفات بينما كان يسير نحو الصالة،

سيطرت علي رغبة جامحة لأن أمنعه من السفر. ولأول مرة أرى في حركته فرح طائر مهاجر. كان رشيقا، وخطواته ترقص، أما أصابع يده عندما أطبقت على الفنجان والصحن معا بطريقة محكمة، فقد بدت لذيدة تنهش الإنسان من الداخل.

قلت لنفسي وأنا أضرب الأرض بحقد: «لماذا يعود رجب في هذه اللحظة إلى أيام الطفولة؟».

لما جلسنا على مقعدين متقابلين، سألته بصوت هامس:

— إلا تؤجل سفرك يا رجب؟

كانت الابتسامة على وجهه غطاء رقيقاً للتصميم المعذب. هز رأسه كما لو إنه يترنم بالرفض، ولم يقل كلمة واحدة. وخيم علينا الصمت.

كانت عيونه تتراكم في كل الأنحاء، لنألا تتوقف لحظة واحدة، وتلتقي بعيني. أية أفكار كانت تحوم في رأسه؟ أية رغبة تسيطر عليه؟ لو طلبت منه أن يبقى، لما وافق، سيحمل حقيبتة بعد قليل ويلوح بيده ويسافر، سيسافر وفي حلقه تلك الشهقة الموجعة! ما دام الأمر هكذا يجب أن أبدو متماسكة قوية، لأقل له كلمات لذيذة يتذكرها حتى وقت بعيد. قلت:

— لا أقصد أن تؤجل سفرك تماماً، كنت أريدك أن تعدني!

— أعدك؟ بأي شيء؟

— أن تعود وان تكتب!

— سأكتب، سأكتب كثيراً.

— رسالة في الأسبوع؟

— ربما...

— سأحاول.

هذا وعد يا رجب!

– سأكتب دائماً، لن أقول لك كل أسبوع أو أسبوعين، لكن سأكتب عندما أكون قادراً.

– قادراً؟

– إذا رأيت أن في الكتابة راحة. أما إذا لم أكتب فمعنى ذلك أنني أبحث عن الراحة، أطاردها ولن يكون لدي وقت لكي أكتب!

– معنى هذا أن أتعذب وانتظر. إذا انقطعت رسائلك فسوف أعرف أنك في حالة صعبة، وعلي فوق ذلك أن انتظر! أليس كذلك؟

– رحلة صغيرة يا أنيسة، ولا أعرف لماذا نحب أن نتحدث بهذه الطريقة عن الرسائل والفراق والعذاب. ألم تتعودي علي؟ ألم يعودك السجن كيف يجب أن تصبري وتتحلمي؟

– ولكن انتهت أيام السجن، وحتى عندما كنت سجيناً كنت أحسك قريباً.. أما الآن!

– السجن يا أنيسة في داخل الإنسان، أتمنى إلا أحمل سجنى أينما ذهبت، أن مجرد تصور هذا عذاب يدفع بالإنسان إلى الانتحار!

تنحنح حامد، ليشعرنا إنه اقترب. كان يحس بغريزته أن لحظات مثل هذه تجعلنا أقرب إلى الحلم، وكان يحرص أن يترك لنا الاستمتاع أو العذاب، دون أن يتدخل. أن الرجل

الغريب، أيا كان، زوجا أو صديقا، تبقى بينه وبين الأيام البعيدة سدود من الغيوم السوداء، الأيام التي كونت طفولتنا وحياتنا الأولى، ولا يستطيع أن يخترقها إلا بعد فترة طويلة من الحياة المشتركة والعذاب، حتى إذا صارت ماضيا، اتسعت آفاق الرؤية وبانت الحياة كلها وكأنها مقاطع من الحجارة الصلبة المتداخلة.

تنبتهت وحامد يدخل. كان وجهه متعبا من أثر النوم القلق، ترك أصابعه تتخلل شعره، بطريقة عصبية محرجة قال:

— أحلام الليل أقسى من عذاب النهار!

جلس حامد، لم نسأله ولم يتكلم. أخرج الصمت، نظر إلي طويلا وفي عينيه ذلك التساؤل الممض والذي يحمل لوما أكثر من التساؤل، حتى إذا رأني لا أتحرك، قال:

— وأنا..؟ أين قهوتي؟

انتفضت، أغمضت عيني أكثر من مرة، كاني أفيق من حلم، لما رأيت حامد يبتسم، ابتسمت له ونهضت!

انقضت الفترة الباقية كما ينقضي حلم لذيق...

عند السابعة، وضع رجب الحقيبة الكبيرة عند الباب من الداخل، وعلق الحقيبة الصغيرة في كتفه أول الأمر، ثم تركها تسقط وبدأ يدور في البيت ليلقي عليه آخر نظراته.

كان يدور بحركة أقرب إلى من يفتش عن شيء ضائع.

كان يخرج من غرفة لأخرى، ينظر إلى الجدران، إلى النوافذ، إلى وجوهنا. كانت نظراته متسائلة. لم يكن يتكلم، لم يكن يتذكر، كان يبحث، ولا يريد معونة من أي نوع، حتى قال له حامد:

— لم يبق لنا وقت، يجب أن نتحرك.

انتفض، هجم على الصغار مثل ديك مبلول، حمل رامز ولىلى على صدره، قبلهما بحنان كأنه لن يراهما بعد اليوم، وظل ينقل نظراته بينهما يريد أن يتشرب وجهيهما، حتى إذا أحس بجسم عادل وخالد يحتكان به قرفص، وضع رامز ولىلى على ساقيه، تاركا لهما أن يتشبثا بعنقه، وأمسك خالد من كتفيه، وهزه محاولا أن يمنحه قوة أو أن يدمره، ثم التفت إلى عادل وضربه في بطنه، وقال له بلهجة أمرة:

— لن تكذب بعد اليوم إذا سألك أحد عني فستقول إنه سافر، وأكون قد سافرت بالفعل، أليس كذلك؟

وهز عادل رأسه دلالة الموافقة ولم يتكلم. أما خالد فظل يدور حوله كأنه يراه لأول مرة.

وددت لو تنتهي الحياة في هذه اللحظة. شعرت بالحزن كبيرا كثيفا مثل يد قاسية تنتزع أمعائي، ولكني صممت أن أبقي قوية، كنت أريد لرجب أن يتذكر وجوهنا الضاحكة، لتكون له زادا في الغربة. أما حامد فكان وهو يرقب المشهد، راضيا ومحرجا في نفس الوقت.

قال حامد يخاطب رجب من خلال الصغار:

– اتركوا خالكم يا أولاد.. لا تؤخروه.

ظلت الوحيدة التي يجب أن يفعل رجب شيئاً من أجلها. هل يهز يدي وينسحب بسرعة لكي ينفذ نفسه، هل أركض إلى غرفتي ولا أرى في عينيه دمعة محبوسة يخاف أن تنطلق في اللحظة الأخيرة؟

تمنيت لو أن أمي تراه للحظة واحدة ثم تموت. لو كانت موجودة الآن لحملت عنا اللحظة الثقيلة المشحونة بالخطر، لجنبتنا الدموع وآلاف المشاعر المضغوطة، والتي تتجمع في سيول صغيرة، لتصب في تلك النقطة الضعيفة.

لقد رحلت حين كان يجب أن تبقى. رحلت دون عودة، وهي الآن ترقبنا، ترقب أيدينا، عيوننا، لهائنا، خفقات قلوبنا، ترقب لتعرف كيف نتصرف، كيف نواجه لحظات ضعفنا المدمرة،

كانت لا تحب أن تبكي أمامه. أوصتني آلاف المرات أن أحبس دموعي، حتى لو اختنقت ولا أبكي أمامه. كانت تقول «البكاء يهد أكبر الرجال، وأقسى ضربة توجه لرجل أن يرى أمه أو أخته تبكي أمامه».

لن أبكي الآن. لن أبكي. سأدفن وجهي في صدره وأقبله، وبعد أن يغيب سأكبي، سأبكي وحدي، لن أترك له في غربته

ذكرى دموعي، وكأنها نجوم سوداء تتساقط عليه لتضغط على قلبه. سأضحك، لكن فكي لا يطاوعني، أحسهما ثقلين متصلبين، سأبتسم، الإنسان يستطيع أن يبتسم، والابتسامة إرادة حتى لو كانت حزينة!

التقط رجب الحقيبة مثل قط، وبسرعة لم أفطن لها سحبني من يدي إلى الغرفة القريبة. تصورت الدفتر الأسود والأوراق. كان رجب يفكر طوال الوقت، كان يصارع ولكنه في النهاية قرر شيئاً!

دخلت وراءه وبذلك الرشاقة الخائفة المضمحلة من ذاكرتي، والتي نسيتها لفرط ما ابتعد بها الزمن، رأيت يد رجب تدخل إلى جيبه. كنت أنتظر شيئاً. ماذا خبأ في هذه الساعة الأخيرة؟ وأي حزن ستولدها هديته؟

بيد مرتجفة أعطاني مغلفاً مفتوحاً. قال لي قبل أن أقرأ الكلمات المكتوبة على ظهره:

— ما زلت متردداً هل أعطيك الأوراق كلها أم لا. هل أترك هذه الآن؟

كان يريد أن يسأل. أن يتكلم، لكن عيون الصغار وحامد المترصدة، قطعت عليه كل شيء.

قلت له أحاول تخليصه، من الإحراج:

— اتركه كله لي، وسوف أفعل الشيء المناسب.

وباستسلام بائس خفض عينيه. لم تنته المأساة بعد، ما زال يصارع نفسه: الأوراق، الدفتر.

قلت والرغبة تسيطر علي في أن يبقي الأوراق عندي:

— أعطني الأوراق يا رجب، سأحتفظ بها حتى تعود!

ان أقوى الناس وأكثرهم قدرة على التصرف، يفقدون في لحظات معينة قدرتهم على أن يتصرفوا منفردين. يجب أن يكون احد إلى جانبهم لكي يقول لهم ما يجب أن يفعلوا. رأيت رجب ينحني على الحقيبة، وبمرارة يسحب الدفتر والأوراق ويضعها بكلتا يديه على كافي المفتوحتين. ودون أن ألفت إلى الباب المفتوح وإلى النظرات المنصبة علي، رفعت طرف الفراش، مثلما فعلت أُمي تماما قبل أكثر من خمس سنين، ووضعتها هناك، وضعتها بصمت دون كلمة، ولكن بخوف أيضا.

الخطوة الأخيرة قبل الرحيل. دفعني بيد رقيقة أمامه، حتى إذا أصبحنا عند الباب، قبلني، قبل شعري، وقبل وجنتي. كان لا يريد أن يتركني. وأنا كنت أستجيب له ولا أفعل إلا تلك الحركات الصغيرة، والتي تشبه ردود الفعل لحركاته.

تمنيت لو أتلاشى. كنت أختنق بدموعي، وأتعذب. لو أن دمعة واحدة انفجرت إلى الخارج لجعلت روحي تتنفس وتحاول أن تتملأ منه قبل أن يرحل، لكن كنت مسلوبة، أجاهد مثل حيوان مخنوق لكي ألتقط الهواء.

لما خرج، كانت أمطار بداية الشتاء الصغيرة الناعمة
تنزلق بهدوء أخرس على أوراق الشجر. وكانت الأقدام على
ممشى الحديقة، تترك علامات حزينة باهتة. ظل الأولاد
يركضون وراءهما، حتى غابا في الشارع. أما أنا فقد ظللت
عند الباب ألتقط بقايا صورته التي بدأت تغيب.. وبدأت أبكي!

-3-

اهتزي أشيلوس. اهتزي أكثر، تحولي إلى حوت، إذا أصبحت حوتا، انتفضي فجأة، اقلبي البشر، وعندما يطفون حواليك موتى، ممسوخى الوجوه، التقطهم واحدا بعد آخر: ازدري المخلوقات التائهة، والذكريات، ولحظات السقوط، أسمعين أشيلوس ما أقوله لك؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات، إذا سمعتها جيدا سيزول الندم، ستقضي لحظة التردد، ونفعلين!

أشيلوس باخرة الركاب اليونانية تبحر الآن عبر المتوسط، إذا انقطع المطر، وظل البحر مثلما هو الآن، غاضبا كرجل وقور، فعند الغروب سنصل إلى البيرييه، البيرييه أول خصلة من أرض اليونان، لن أتوقف فيها أكثر مما تتوقف الباخرة، لا أريد يونان معذبة، سأحيي رجالها من بعيد، وأواصل الرحيل، قالوا أن الحرية في أرض أخرى، أبعد من اليونان، يمكن أن يعيش فيها الإنسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم، سأرحل إلى تلك البلاد.

أشيلوس، كفي عن الدعابة السمجة، اهتزي كما أقول لك، اهتزي مثل راقصة شرقية عذبتها ذكرى أيام الجوع، وتريد بأردافها أن تضرب العالم، أن تنتقم! هل تريدان أن أقول لك كل شيء يا أشيلوس؟ لا تلعبى هذه اللعبة، لا تفكري أن نخون بعضنا؛ بقيت لي خمسة أيام يا أشيلوس، سأشد على الدرايزون كآخر تحية يمكن أن يوجهها إليك إنسان راحل، لن يراك مرة أخرى!

أمس في شمس خريفية كابية كنت أضرب الحاجز على
ظهر أشيلوس، وأقول لنفسي بصوت عال، يمكن أن يسمعه
إنسان على مسافة أمتار! لم أكن خائفا، ربما لأول مرة في
حياتي لا أشعر بالخوف. قلت لشيء ما، للبحر، للحاجز،
للشمس، لا يهم لمن قلت:

— أريد أن أنسى. أن أتوقف نهائيا عن استعادة تلك الأيام
البائسة. الذكرى حيوان قارض، حيوان يزحف في الدماء.
وأنت أيها الحيوان ألا تخاف من دمائي الملوثة؟

أقول لك كصديق: الدماء التي أحملها الآن في عروقي
يفتتها الروماتيزم، لا تغرق في هذه الدماء، فتش عن غيرها.
أسمع ما أقول لك؟

أنا الآن أملك جسدي، أستطيع أن ألقيه في البحر، لا أحد له
سلطان عليه مثلي، كانوا يستطيعون ذلك، فعلوا أشياء كثيرة،
لكنهم الآن لا يستطيعون، أصبحت بعيدا، في كل ثانية ابتعد،
أنجو، وحتى لو أرادوا الآن أن يفعلوا شيئا، فلن يكون أمامهم
إلا طريقة واحدة: أن يطلقوا علي الرصاص، وحتى لو أرادوا
ذلك فيجب أن يفعلوا ذلك من بعد، لن أتمكن أبدا أن يلمسوا
جسدي مرة أخرى... اهتزي يا أشيلوس وابتعدي.. أنا أبتعد،
ابتعد!

هل يمكن أن أتصالح مع نفسي بشكل ما؟ أريد أن أتفق مع
هذه النفس. أعرف أن كل شيء في خبا، تمزق، لكن يمكن

للإنسان أن يعقد صلحا مع أيامه الأخيرة، هذا ما أريد الوصول له.

الباخرة، منذ ثلاثة أيام، توفر لي جوا من الحرية، لكنها حرية لا تصل حدود أن أغني. تمنيت أمس أن أغني بأعلى صوتي. كان المهاجرون يغنون أغنيات حزينة، كانوا يغنون ويتوعدون القدر بأن يعودوا. كنت أريد الغناء دون أن أتوعد أحداً. لم يبق أحد إلا وغنى. لماذا تركت نفسي تذوي وراء السارية ولم أغن؟ الآن أستطيع، الأيام الخمسة الباقية تتيح لي الغناء طوال الليل. كانت أغنياتهم تهدر. كانت تختلط بالدماء، بالصراخ، كانوا يحبون أن يقوموا بالعمل، وصوت آلة التسجيل يمزق الصمت الثقيل!

كيف أدعو الناس لكي يخرجوا إلى ظهر الباخرة ويسمعوا غنائي؟ حصل الأمر صدفة، الشمس هي التي ولدت فيهم رغبة الغناء. كانت الشمس خريفية دافعة وحزينة،

كل الرجال والنساء على ظهر الباخرة، ناحية المؤخرة، وفجأة بدأ الغناء.

العرب الذاهبون إلى فنزويلا والأرغواي، وإلى أماكن بعيدة لم يسمع أحد باسمها، غنوا، كانت أغنياتهم حزينة، تحمل مرارة الملح الذي فسد، والملح إذا فسد لا يمكن أن يصلحه احد. ولم يغن العرب وحدهم، غنى ثوار المناطق الفقيرة المغتصبة. غنى مكسيكي وهو يعزف على قيثارة.

وفي مرحلة عاطفية شديدة البوح، غنى هندي وباكستاني معا!
هل كانا يعبران عن شيء ما؟ أكانا يعرفان بعضهما قبل
الغناء وهل عرفا نفسيهما أكثر بعد أن غنيا معا.

كنت أقف وراء السارية، ورغبة الغناء في حلقي مثل دمل
أريده أن ينفق، لكن لذة العذاب، غير المقدسة، جعلت السارية
كبيرة مثل أشباحهم وقررت أن أصمت. الصمت دواء، تعلمت
أن أتجرع هذا الدواء في كل الأوقات، وكنت أشفى!

هذا القدر من الحرية، فوق أشيلوس الهادرة في الليل
والنهار، يكفيني زادا لسنين. أشيلوس يا صديقتي.. يا
صديقتي، أنت لم تري السجن، لو رأيته يوما لتغير صوتك،
كانوا يريدون صوتا، مجرد صوت، يصرخون: «قل كلمة يا
ابن القحبة»، واصمت، لا أقول شيئا. ويضربون. لو عرفت
السجن يا أشيلوس لتعلمت كيف تصمتين. لو توقف صوتك
دفعة واحدة، فإن الرعب سيشلهم، سيموتون. «قل أي شيء يا
ابن العاهرة، اشم.. أما أن تظل صامتا مثل الجدار، فسوف
تغرق في البول حتى تموت». ولا أجد شيئا، أي شيء لأقوله،
وأصمت.

سأنظم لك أشعارا يا أشيلوس، وأريد أن أغني. لا أحد الآن
على ظهر الباخرة، إنهم يتكلمون في الصالة وفي البار.
يتعودون على الأيام القادمة تماما مثلما تعودت على أيام
ماضية، هكذا بدأت المسألة.

بدأت المسألة أول الأمر في الهواء إلى جانب حقول القمح أو تحت ظلال الأشجار، كانت تترافق الكلمات مع الشتائم والضحكات، ثم أصبحت الكلمات لا تقال إلا في الغرف المغلقة المليئة بالدخان، كانت كلمات تمتلئ بمقدار مجنون من الثقة والدخان، حتى أصبحت في النهاية همسا من تحت الأبواب أو دقات على الجدران.

الإنسان يتعلم، وأنت يا أشيلوس تريدين أن تُعلمي البشر، احصريهم في الصالة والبار لتمتلئ رئاتهم بالدخان والكلمات. في البيرييه سينزل قسم من البشر، وبعد ساعات يرحل الآخرون على ظهر الماء إلى مكان آخر، ثم إلى مكان ثالث.

لو تابعت الكتابة، لو وضعت لعيني حواجز مثل تلك التي يضعونها للبالغ كي لا تضل، لو غنيت أو صرخت. هل ترضين يا أشيلوس؟ ولكن من أنت أيتها الخزيرة الملساء كي أستجديك؟

كانت لهم شعور طويلة، فوق أيديهم حتى الأصابع، كانت لهم شعور في صدورهم، أما رؤوسهم فقد تعودت أن تترك لشعورهم الحرية في أن تنزلق، ساعات الغضب.

«ألا تعرف أين ذهب نجم؟ خد، خد». الزبد يتطاير حول أفواههم كما يتطاير حولك يا أشيلوس. العيون تنتفخ من الدهشة والغضب. «يجب أن تتكلم يا قواد. سأعلمك كيف تقول كل شيء. أن تعيش هذه المرة!» كان جسدي يرتعش،

يتمزق، يتحول إلى كلب لا يتوقف عواؤه. «والآن ماذا تقول؟
ألا تعرف أين نجم؟».

قل لهم شيئاً يا رجب، الكذب عليهم، لا لن أقول كلمة
واحدة. اصرخ وقد احتقن وجهي وأحس عيني تخرجان:
«اسألوني عن نفسي يا كلاب».

«أخيراً بدأت تتكلم.. من أنت يا "م...."(2) حتى نسألك عن
نفسك، نريد هادي، نريد نجم، أين يختبئ هادي، قل لنا يا ابن
القحبة!» واصمت. لو عرفت السجن يا أشيلوس يوماً واحداً
لعرفت الصمت، لتحولت إلى صوت ينتفض في الشمس
ويأكل الحشرات التي تحوم فوقه. سيأتي يوم تقفين في ميناء
مهجور مثل سجين قال كل ما عنده، ولم يكتف أحد. سيغادر
كل شيء، حتى الجرذان، وإذا هبت ريح تميلين على هذا
الكتف، ذاك الكتف وتغرقين. لم يتركوا لك فرصة لكي تغرفي
في البحر الكبير، في أعماق المياه الخضراء، سوف يجرونك
حتى تصلين إلى ميناء مهجور، وهناك يجردونك من ثيابك،
من الذكريات، ويتركونك وحدك تموتين. لا تنسي ما أقوله لك
يا أشيلوس!

آه.. ما ألد أن يموت الإنسان وهو قوي. كانوا خائفين
لدرجة الرعب عندما مات هادي، لم يصرخوا في وجوهنا
مثلما كانوا يفعلون. صمتوا. نحن الذين سألناهم. صرخ زيد

في وجوههم: «أين هادي أيها القتلة؟ لا تظنوا أن دم هادي يذهب دون ثمن». لم يقولوا شيئاً، ظلوا ينظرون إلينا بصمت والخوف يمزق أحشاءهم.

ظلوا خائفين فترة طويلة. كنا نسمع أصواتهم الخائفة، خطواتهم وهي تنتقل بحذر. لماذا يخافون ما دام هادي قد مات؟ وهل يخاف القاتل لهذه الدرجة؟ كان هادي قويا وكبيراً. كانوا يخافون منه في كل وقت.

كان يضحك مثل طفل وهو يقول لنا: «لا تخافوا منهم أبداً. إنهم أنذال وُضعاء كلهم وجبناء. كانوا يقولون: اعترف يا هادي ولا أحد يمد يده عليك، قل من معك يا هادي وثمان الاعتراف الحرية، يجب أن تعترف» ولا يسمعون مني كلمة واحدة.

لما تعبوا من هذا الأسلوب، بدأوا يجربون أساليبهم الأخرى: السجائر الأجنبية، فناجين الشاي، المعاملة الجيدة. وبعد أسبوع: ماذا تقول يا هادي، هل حان الوقت الذي تقول لنا فيه كلمتين وتخرج؟ وأصمت...

وتعبوا أيضاً.. وبعد ذلك هل تعرفون ماذا حصل؟ الإنسان أيها الأصدقاء، أقوى من الصخر، يحتمل كل شيء. جربوا الضرب، التعليق، الكهرباء، المنفردة والمرحاض، جربوا الأضواء وأصوات التعذيب والغناء. وأقول لهم: لن تصلوا يا أنذال إلى ظفر هادي ولن تظفروا بشيء!

كان صمته يعذبهم. وتعلمنا الدرس قبل أن يقبضوا علينا!
من أين جاءت هذه الطفلة؟ لها وجه الأطفال وجرأتهم،
وفيها عنادهم، قالت لي أمس ونحن نتكئ على حاجز السفينة،
بعد أن انتهى الغناء:

– أنت من بلد... أليس كذلك؟

قلت لها أداعبها، ولم أحس إنها أنثى كبيرة، إلا بعد أن
رفعت صدرها عن الحاجز:

– كيف عرفت؟

– عرفت!

– ولكن كيف؟

– الشكل لا يخفى، قدرت، وأنت، الآن تؤكد!

– لم أقل شيئاً!

– ولكن من طريقة السؤال، من الكلمات، عرفت أنني لم
أخطئ!

هكذا بدأ بيننا الحوار أمس. لم أرها قبل ذلك، ومنذ ساعات
وأنا أتجنب الصعود إلى الصالة لكي لا أراها. لا أفكر الآن
بأي شيء، ولم أعد أحب أن أتحدث مع إنسان. قال الرجل
الذي انضم إلينا بسرعة، بعد أن عرف أننا من نفس بلده، وهو
يضغط على حروف الكلمات لتبدو واضحة:

– الذي لا يعرف لغة أجنبية ويسافر وحيدا يكون مثل الضائع.

قال الكلمات وظل واقفا إلى جانبنا، كأنه يريد ردا على كلمات ليس لها رد. قلت له لكي أوفر على الصغيرة:

– إلى أين تُسافر؟

– إلى إيطاليا!

– لفترة طويلة؟

– شهرا! وأنتما؟

– أنا أسافر إلى فرنسا، لفترة طويلة!

– وأنت؟

– إلى بريطانيا.. للدراسة!

عرفت إذن إنها تسافر إلى بريطانيا، وأنها طالبة، لم أسألها من قبل، وبعد ذلك تحدثنا مثل طيور عصبية، عن البحر والغناء والسفر. كان البحر في بداية الغضب، قلنا ذلك. وكان الغناء قد انتهى، قلنا كان الغناء رائعا.. أما السفر، فقد بدأنا نتحدث، لما وقف الرجل إلى جانبنا، ودون أن نسأله تبرع وقال كل شيء:

– حظي جيد. أغلب المرات التي سافرت فيها، يسر لي الله أناسا طيبين، شبابا يعرفون اللغات، وقضينا في الباخرة وفي

ايطاليا فترات جيدة، السفر للذي يسافر أول مرة صعب، لا يعرف الإنسان كيف يتصرف، والطلّيان، إذا رأوا واحدا لا يعرف لغتهم، سرقوه، ضحكوا عليه.. أنهم خبثاء!

قالت له الطفلة التي لم أعرف اسمها أبدا:

– سافرت كثيرا وأصبحت تعرف كل شيء!

– لكن اللغة، اللغة يا أنسة مصيبة كبيرة.

– ألم تتعلم شيئا من السفر؟

– كلمات، أقل من عشر كلمات: مرحبا، شكرا، مع السلامة.. مثل هذه الكلمات.

– ولكني لا أعرف اللغة الإيطالية!

– المهم لغة أجنبية، أية لغة، العربية بعد بيروت لا تفيد شيئا، حتى هؤلاء اليونانيون الذين قضوا فترة طويلة في مصر، ويعرفون اللغة العربية، لا يحبون أن يتحدثوا بها بعد أن تغادر الباخرة بيروت!

تركتهما يتكلمان. بدأ يتحدث عن ايطاليا، عن الطبيعة الجميلة والشوارع، وأتذكر أن آخر كلمات سمعتها وأنا أبتعد:

– إذا رغبت يا أنسة، فسوف يكون لي الشرف أن أطلعك...

وذابت الكلمة في الهواء قبل أن تصل أذني، ليس لدي شيء

يمكن أن أقوله لهذه الطفلة، سأكون مضجرا لدرجة الألم. لماذا أخرج إلى الصلاة؟ لماذا أفسد عليهما الأفكار المضیئة التي تشتعل في رأسيهما وهما يتجولان في روما، أو في أماكن أخرى! إذا رأيتني على ظهر الباخرة سألتني، لماذا أقول لها؟ أشيلوس أنت لا تسألين، تسمعين ولا تجيبين. لقد امتلأت روحي بالأسئلة حتى لا أطيق الآن أن يسألني أحد. لا أعرف شيئا ولا أريد أن أعرف أي شيء!

ولكن بعد ايطاليا سنقضي يومين وثلاثة أيام، كيف أواجه هذه المرأة الطفلة بعد أن تتدرب على يد هذا المتألق الجامع؟ يمكن أن أربط في غرفتي أطول فترة. يمكن أن أتجنب لقاءها، ويمكن أن أظل صامتا كما فعلت من قبل. ولن تتعب لتجد صديقا. الجميع يفتشون عن أصدقاء. أنا الوحيد الذي لا أريد. يكفي ما رأيت وما عرفت. الآن أشيلوس، الحديد الصلب، الخشب المثقل بالملوحة والمطر، الزبد المتطاير، الأيام الصعبة التي تنتظر عندما تموتين، يا أشيلوس، حين تهرم أركانك وتتداعى، أي مصير سيواجهك؟ أشيلوس وحدها التي أريد أن أتحدث معها، ووحدها يمكن أن تسمعني! أشيلوس تسمع ولا تسأل!

«دون أن نسألك. احك كل شيء، يجب أن تعترف، الأفضل أن تعترف. لماذا تصمت مثل النعجة؟ هل أنت خائف؟ كما قلت لك إذا اعترفت لا أحد يمد يده، أما إذا لم تعترف الآن فسوف أجعلك تعترف مثل كلب. أتعرف كيف

يعوي الكلب، ستعوي أكثر منه».

قلت لهم وقلبي يرتجف:

— ماذا تريدون أن أقول؟

— ابدأ من يوم ما جئت من "... (3) أمك.

— تعرفون كل شيء عني!

— نريد أن نسمع منك.

— اسألوا.

— أمرك يا بك، سوف نسأل وأنت تجيب، لكن إذا كذبت بكلمة واحدة، فلا تلم إلا نفسك.

كان يوم اثنين، أول يوم بعد عيد الفطر. قبضوا علي قبل نهاية دوام يوم الخميس. كانوا يتراکضون، لم ينظروا إلي طويلا، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور:

— هذا بعهدتك، جديد، وأريدك أن تعتني به!

امسك بي حاتم، أمر الحرس، مثل قط أجرب. امسك بكتفي وقال بلهجة امرأة:

— افتح السرداب يا عبد.

دفعني أمامه. صرخت بتحد:

— أنا مريض بالقلب، ولا أستطيع أن أنزل إلى القبو!

أتذكر اني رأيت الباب يفتح، ثم رأيت بقعة الدم وقد غطت مساحة واسعة من أرض القبو. لا أعرف كيف نزلت الدرجات العشر. حصل ذلك في لمح البصر، ضربني حاتم على وجهي بظهر يده، وفي اللحظة التالية أحسست برجل تضربني على ظهري، وأهوي، لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، حصل بسرعة!

كان القبو صغيراً لدرجة أن ثلاثة أشخاص لا يمكن أن يناموا فيه، أما الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لدرجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقاً، كانت تستقبل ضوءاً باهتاً، ينزلق إليها من أرض الحوش.

ما أن أفقت من الصدمة الأولى، حتى بدأت أصرخ. شتمت، قلت بأعلى صوتي: أيها الأنذال. انفتح باب القبو. كان الضوء في الخارج زاهياً فواحاً، وكان طلاء الجدار المواجه، له صفرة لذيذة. فرحت لما رأيت الباب يفتح. لقد استجابوا لصراخي، ولن يقولوا شيئاً لسجين اضطرت له المعاملة القاسية لأن يشتم.

قال لي رجل لم أستطع أن أتبين وجهه، لأن الضوء وراءه كان يطغى ويعطيه ظلاً أسود:

— اخرس يا ابن الكلب، وإذا سمعت صوتك مرة أخرى يا ابن القحبة ألعن أجداد أجدادك؟

أي شيطان حرك لساني في تلك اللحظة؟ أية أفكار دارت في رأسي؟ لا أدري. قلت له بصوت أردته أن يكون صلباً:

— أنا مريض، ولن أبقى في القبو!

— مريض.. سوف تُشفى الآن.

أوقعني خرطوم الماء المندفع من أعلى. وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه، وذهبت كلماتي التي حاولت أن تكون قاسية، في جوف المياه المتدفقة، حتى إذا تعب قال:

— هذه المرة ماء، إذا سمعت صوتك مرة أخرى أغرقتك في البول!

لم أنم، ظلت طوال الليل ارتجف، حاولت كثيراً، فكرت كثيراً بطرق لا حصر لها من أجل أن أتخلص من الماء، لكن ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى. فتحوا لي الباب في اليوم التالي. خرجت لفترة، دقوا علي باب المرحاض مرتين أو ثلاثاً، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. شعرت بحقد لا يوصف، بصقت على أرض المرحاض مرات كثيرة، لكن الألم في رأسي كان قوياً لدرجة أنني لم أستطع أن أفكر. لما رجعت رأيت رغيفاً من الخبز وقطعة صغيرة لا تزيد على قطعة نقود معدنية من الجبن، كنت جائعاً، لم أتذوق شيئاً، منذ صباح اليوم السابق.

كنت أريد النوم، بعد أن شبعت. كان طعم الخبز لذيذاً، أكلت على مهل وقد جعلت قطعة الجبن آخر شيء أضعه في فمي. بدا لي النوم، في تلك اللحظة، أجمل لذة يمكن لإنسان أن يمارسها. وقفت في الزاوية، أحاول أن استند إلى الجدار وأنام، ولكن رجلي وهما تلامسان الماء البارد، جعلتا النوم مستحيلاً. رفعت ساقا وتركت الأخرى في الماء، بدلت ساقا بالثانية، ولكن النوم كان لا يأتي!

لا أعرف كيف خطرت لي فكرة وجود مصرف للمياه. بدأت أتلثم الأرض شبرا شبرا، لعلني أجد ذلك المصرف اللعين، بدت الأرض صلبة متجانسة لدرجة أن قطرة ماء واحدة لا يمكن أن تنفذ. فكرت أن أصرخ، أن أستغيث، قدرت أن الحارس الآن لن يكون هو نفسه الذي وجه لي خراطيم الماء. قلت في نفسي: لا يمكن أن يكونوا جميعهم قساة بنفس الدرجة، وهذا الحارس الذي ألمح حذائه بين فترة وأخرى، من الشق المستطيل الملتصق بالسقف، لا بد وأن يكون أحسن من ذلك.

لا يمكن أن يشق الصراخ طريقي لقلوب هؤلاء الرجال. يجب أن أدق باب القبو بهدوء، حتى إذا اقتربوا مني، إذا سألوني، رجوتهم أن يخلصوني من الماء، لكي أنام ساعة واحدة. كانت ساعة واحدة تكفيني. قلت لنفسي بتصميم: لا يمكن أن أرجو أحداً، سأجلس على درجة من درجات القبو وأنام. لمت نفسي كثيراً لأنني لم أفكر بهذا الأمر من قبل،

وصممت ألا أترك شيئاً إلا وأفكر فيه.

بدأت من أولى الدرجات، كانت ضيقة، صغيرة، لا تتيح للإنسان أن يجلس، وكانت حوافها محطمة في أكثر من موضع، حتى أن تفكيري قادني إلى أن هذه الدرجات حطمت بشكل مقصود لكي لا ينام عليها أحد!

بدأت بالدرجة الأولى، كانت أكثر الدرجات ضيقاً. تركتها ونزلت إلى الثانية، كان أحد جوانب الثانية مكسوراً بحيث لا يمكن الجلوس عليها أبداً، أما الثالثة فكانت مريحة للغاية. جلست فوقها، كانت لا تتسع لي إلا إذا جلست، لو حاولت أن أنام يجب أن أمد رجلي لكي تتجاوز درجتين أو ثلاثاً. مددت رجلي، شعرت بألم في ظهري، شعرت بألم رأسي يزداد، تركت رأسي يرتاح على الدرجة العليا، استدرت لأنام على جنبي، استدرت إلى الناحية الثانية. كان السقف، أو الظلام يغطي كل شيء، حتى أن فكرة الموت طغت علي لدرجة لم أستطع أن أنام. طردت الأفكار، وحاولت من جديد. قلت بتصميم لا حدود له: لا يوجد غير هذا المكان ويجب أن أنام. أغمضت عيني، لكن فكرة أن أتخلص من المياه عاودتني من جديد. وفكرت في البحث عن مصرف، أو الدق على الباب، وفكرت بالصراخ. ثم فكرت أن أقول للحارس كلمات حلوة، وأذكره بالعيد لعله يرق لي ويساعدني! وطردت كل الأفكار. قلت وأنا أحاصر الألم الذي أحسه ينبع في كل مكان من جسدي: أنت يا رجب لا تزال في يومك الأول، لم تر شيئاً،

فإذا بدأت تضعف منذ الآن، فسوف تسقط مثل جيفة. اصمد. تحمل. ورفاقتك ألم ينزلوا قبلك إلى هذا القبو؟ ألم يحتملوا ويناموا، ثم خرجوا أقوياء؟ ولكن كيف يستطيع الإنسان أن ينام؟ أين؟

آه.. ما أشد روعة أدراج القبو! استغرب الآن كيف ترددت في أن أنام عليها. هل كنت أحمق لهذه الدرجة؟ وهل يريد الإنسان مكانا أفضل من تلك الأدراج لكي ينام؟

بدأت الضجة منذ وقت مبكر صباح الاثنين. سمعت أصوات البشر ووقع أقدامهم الكثيرة. كنت أرتجف من الخوف، كنت أتابع الخطوات حتى تبتعد. تصورت كل خطوة. تضغط على أعصابي، تناديني. حاولت أن أجسد في رأسي أشكالا للبشر من خطواتهم: هذه خطوات رجل ثقيل، هذه الرجل نحيف، هذه الشرطي، وإلا لماذا تبدو ثقيلة بليدة هكذا؟ وهذه أليست خطوات الضابط؟ ولكن الضباط لا يمرون قريبا من القبو، لا يقتربون منه، تكفي إشارة صغيرة لكي ينتقل كل شيء عندهم. وهذه الخطوات لماذا تبدو بطيئة متعثرة؟ موقوف؟ وهل بدأوا في هذا الوقت المبكر؟

إن لهؤلاء البشر عالمهم الخاص. يجب إلا أتدخل، لأتركهم، لأكتشف كل شيء بنفسي، أما التفكير فيجب أن أوفر كل ذرة من أجل أن أظل متماسكا، أن أجبت عن الأسئلة دون خوف. وهل يسأل هؤلاء الناس؟ هل يتكلمون مثل باقي

المخلوقات؟

في إحدى الجلسات قال هادي، وهو ينظر في وجوهنا بصرامة:

– يجب أن تعرفوا منذ البداية، الطريق طويل وصعب، من يجد نفسه غير قادر فليقل الآن، لن نلوم أحدا إذا تخلى الآن، أما بعد التوقيف والسجن، فأني اعترف، أي انهيار، سوف يجعل من المعترف والمنهار خائنا... أتسمعون ما أقول لكم؟

خرجت الكلمات من أفواهنا صلبة. ظننا أن هادي لا يثق بنا بالمقدار الكافي. كنا نريد أن نبرهن له كيف نكون رجالا، لا نعترف ولا ننهار. لم يستمع إلى الكلمات التي قلناها، اكتسب وجهه حزنا مخيفا وهو يقول:

– الآن لا نستطيع أن نحكم على أحد، السجن هو المحك الوحيد، ولكن ليس معنى كلامي أن تحوم حول السجن مثلما تحوم الفراشات حول النار، لا، السجن آخر شيء يجب أن يقع لأي واحد منكم، احذروا كثيرا، اعملوا كل شيء من أجل أن لا تقعوا في أيدي البوليس، وإذا وقع الإنسان فيجب أن يثبت إنه رجل ويعرف كيف يتحمل!

كان ذلك منذ وقت بعيد، أتذكر أن ريحا عصفت خارج النافذة، ولا أتذكر أن كانت ريح الخريف أم ريح الشتاء. وبمجرد مرور هذه الذكرى الآن، أحس أن كلمات هادي لم تكن واضحة بالمقدار الذي يدفع الإنسان لأن يقرر في الوقت

المناسب. كانت الرياح أقوى من كلمات هادي وأشد قسوة!

قلت لهم وأنا أتلو من الألم:

– لا أعرف هادي ولم تره عيني!

– تتصور أن ما تعاني منه ألما؟ سوف ترى بعينك كيف تأخذنا وتشير إلى البيت الذي يختبئ فيه، دون أن نسألك، لن يطول صمتك!

– ولكني لا أعرف إنسانا بهذا الاسم!

– هذا ليس اسم إنسان، إنه وحش، أتعرف وحشا بهذا الاسم؟

– قلت لكم لا أعرف أحدا!

قال لنا هادي ذات مرة، وكنا ثلاثة:

– لا تصدقوا. أن أكبر قوة على الأرض، لا يمكنها إرغام الإنسان على الاعتراف، اقصد إذا أراد الإنسان. بعض الناس يموت ولا يعترف. القضية متوقفة على الإرادة، وعلى البداية إذا قرر الإنسان أن لا يعترف، إذا صمم، وتحمل لحظات العذاب الأولى، يصبح كل شيء بعد ذلك سهلا.

الإرادة.. كنت أتصور أن بعض الكلمات لا تعني شيئا أبدا. وأنت يا أشيلوس الهرة، هل تريدني شيئا؟ في القمرة البعيدة،

في المقدمة، يجلس رجل يتجاوز الأربعين، له لحية صغيرة رمادية. هو الذي يريد كل شيء. يقول لك أسرع، توقفي، انحرفي إلى هذه الناحية أو تلك، ذاك هو الذي يريد، وأنت أيتها الرائعة، أيتها البقرة الثقيلة، لا تفعلين شيئاً سوى انتظار أن يقول لك.

كنت أتصور أن الجسد يسقط، ينخر، يفقد القدرة على الاحتمال، وكنت أتصور الإنسان إذا وصل إلى هذه المرحلة، يجب أن يستسلم. هذا ما تصورته في البداية، ولذلك كنت أمتحن جسدي. ضربت رأسي بالحائط مرات كثيرة، ضربت ساقي اليمنى بطرف حذائي الأيسر. سقطت من الألم، تصورت أن ضربة مثل هذه سوف تدفعني للاعتراف، لكن التعذيب، أمواج البحر، هبات الرياح، هذا العناد الأخرق الذي تعبر من خلاله الطبيعة عن وجودها، والملاح، الذي يعرف ارتفاع الأمواج، اتجاه الرياح، ويعرف خراقة الطبيعة، يستطيع أن ينجو، أن يستدير إلى هذه الناحية أو لتلك وينجو، لتصبح الطبيعة في النهاية ذكرى حزينة!

الحقيقة كلها أقولها لك أيتها الهرة.

قال لنا هادي، وقد استبد به الغضب لدرجة تصورت إنه سيبيكي:

— قلت لهذا القذر مرات كثيرة أن يسافر، عرفت إنه سيضعف ويعترف، وفي كل مرة يتذرع بأوهى الحجج ليبقى.

كنا نريده ونخاف منه. كنا نريد ثقافته وقدرته في الكتابة، وكنا نخاف أن يسقط في أيدي البوليس وينهار.

قبل أيام وجهنا له أمراً بالسفر، قال: أعطوني مهلة ثلاثة أيام لكي أستعد، قبضوا عليه في اليوم الثاني، وقبل أن يمضي أسبوع، كان توقيعه في الجريدة. لقد تحولت إرادته إلى كلمات، وحتى الكلمات كان يتخلص منها بكتابتها على الورق، كان يكتب لنا، والآن يكتب لهم!

— قل لنا أين هادي ولا نريد منك شيئاً آخر.

— ولكني لا أعرف إنساناً بهذا الاسم.

— إلا تعرفه؟

— لا.

كل شيء في أشيلوس يذكر بتلك الأيام. نزلت أمس إلى العنابر. الوقود والمؤن ورجال لا تظهر منهم سوى أشكال غامضة تتحرك في الدهاليز نصف المضاءة. كنت أرى وجهي في عيونهم. الغضب. الحقد. الشتائم. هل يحتوي الإنسان على هذا المقدار كله من القسوة والشتائم؟

مددوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر أطفأوا في ظهري، على رقبتني، داخل أذني وبين أليتي، كانوا يضحكون أول الأمر، وأنا أحاول الدفاع عن

نفسى بساقي الطليقتين. رفست مرتين أو ثلاث مرات، ولما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة، وبدأوا يصرخون: «اعترف.. اعترف يا ابن الزنا».

أتذكر أنني قلت لهم: لا أعرف شيئاً، ولن أقول لكم يا كلاب!

انهالت علي آلاف الضربات بالكرابيج والأحذية. ضربوني بأحذيتهم على وجهي المتدلي، قفز واحد منهم فوق كتفي، وكانت يداي مربوطتين وراء ظهري. شعرت أن عظامي تتمزق ورقبتي تسقط مثل خرقة. وصرخت:

— لا أعرف، لا أعرف شيئاً!

ارتفع صوت الغناء، وضعوا عصا غليظة بين أليتي، ضحكوا وأنا أتلوى، بصقوا علي، أحسست بماء ساخن فوق ظهري، هل كانت دمائي تنفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر؟

«أتصورون أن الإنسان إذا قال شيئاً ينتهي الأمر؟ لا، الكلمة الأولى بداية لسلسلة من الاعترافات، وأي تأخر في الاعتراف، في الإجابة، يثيرهم أكثر من الصمت. لا أقول لكم هذا الكلام إلا عن تجربة. جربت نفسي، ورأيت الذين جربوا العكس. الخرزة الأولى وبعدها ينفرط كل شيء!»

قال هادي هذه الكلمات ونحن نتذكر وجه ناجي، بعد أن

قرأنا اعترافاته، وكنا نسير إلى جانب النهر، كان الصمت فسيحا مثل حقل لا نهاية له، وكان الخوف ينعقد فوق رؤوسنا ظلا حزينا. قلت له ذلك اليوم:

– هل تتصور أن اعتراف سعد الدين كان نتيجة التعذيب؟

– لا أريد التصور. سعد الدين اعترف، واعترافه نتيجة الخوف، الخوف من التعذيب، أو من التعذيب ذاته. عندما يخاف الإنسان يفقد السيطرة على نفسه.

– والاعترافات الأخرى، هل ضربوه من أجل أن يحصلوا عليها؟

– إذا بدأت الخيانة لا تنتهي. الشيء له بداية، أما النهاية فلا يعرفها أحد!

– لم أكن أتصور أن سعد سيعترف!

– وقد يأتي يوم يتبين لنا أن سعد الدين لم يضرب، لم يمس.

– أتقصد إنه متعاون معهم منذ البداية؟

– فقد أرادة المقاومة. كان يلذ له أن يسأل كل من دخل السجن عن كل شيء، كان يسأل عن أدق التفاصيل وأصغرها. «متى استدعوك أول مرة؟» «كم كان عددهم؟»، «لما أشكالهم؟» «هل جلست؟» «نمت» «متى انتهى التعذيب، قبل الفجر أم بعده؟» كانت أسئلة سعد الدين تحيرني، لماذا

يسأل بهذا الشكل؟ ربما ارتسمت في رأسه الصورة قبل أن يسأله كلمة واحدة، ولكي يتجنب التعذيب قال لهم كل شيء!

— كيف يمكن للإنسان أن يعترف حتى قبل أن يضرب؟

— مثلما قلت، الضرب لا يغير إرادة الإنسان، وربما كان العكس هو الأصح. بمجرد ما تمتد إلي يد امتلئ تصميمًا أن لا أقول كلمة واحدة، ومع كل ضربة جديدة ازداد بعدا عن السقوط. الإنسان إرادة قبل كل شيء!

— باعوك يا رجب، اعترفوا عليك، لم يتركوا كلمة إلا وقالوها، وأنت إلى متى؟ ألا تعترف؟ ألا تنتقم لنفسك؟
— ليس لدي شيء.

كانت الأغنية تتحدث عن القمر. أتذكر بعض الكلمات، عندما رأيت يده تمتد إلى مفتاح الصوت أحسست برجفة تسري في دمي.

هل يخافون أحدا؟ لماذا إذا يرفعون صوت آلة التسجيل؟ وهذه الأغاني التي تتحدث عن القمر والبحر، ألا تنتهي؟، لن أسمع هذه الأغاني. سأحطم الراديو دون رحمة إذا سمعتها، لا أطيق.

أمس فوق ظهر الباخرة كانوا يغنون بشكل مختلف. كانت أفواههم وهي تصرخ بتلك الآهات، تحمل معنى ألم الإنسان. رأيت دموعهم المتحجرة في عيونهم، أما الأغاني التي كانوا

يغنونها فإنها تذكر بالعالم السفلي، عالم الدماء والققط.
ظللت صامتاً. الأغنية تتموج مثل السياط في دمي. قال لي
ببرودة كالوية:

– اخلع ملابسك كلها، قطعة وراء أخرى، ولا تتأخر!
حاولت مرات كثيرة أن أتمرد. ظلوا ينظرون إلي بسخرية،
وكانوا يضحكون. ولكن في النهاية تعودت أن استفزهم. إذا
قالوا اخلع ملابسك، اخلعها. إذا قالوا انبطح على وجهك افعل
وكأنني أقوم بواجب يومي. إذا قالوا اقعد مثل سعدان، كنت
أجلس واضعاً يدي حول ركبتي. كان شيء واحد يملأ عقلي
في كل وقت: أن أظل جداراً، صامتاً. أن لا أقول إلا ما أريد.

– رجب... هذه المرة لا نريد أن نضربك، ماذا تقول؟

– تعودت وليس عندي شيء أقوله!

– إلا تخاف؟

– أنتم تعرفون!

– والله يا ابن القحبة سأجعلك عبدة، سوف تتكلم هذه
المرة.

قالت الطفلة التي رأيتها أمس، وهي تستند على الحاجز
بجانبي:

– كانت الحفلة رائعة: الغناء والمزمار، ما رأيك؟

. كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلاً، في الواحدة، وتمتد حتى الخامسة صباحاً، حتى السادسة. متى ينام هؤلاء الناس؟ هل ينامون فعلاً؟ ولماذا في هذه الأوقات بالذات؟ كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة، وكل دقيقة تأخير، كل كلمة احتجاج، وحتى النظرة كان يقابلها في الطريق عقاب.

— عصبوا عينيه، وضعوا رأسه في الكيس.

يمكن للإنسان أن يحتمل كل شيء. حتى الضربات التائهة التي لا يعرف من أين تأتي، يمكن للجسد أن يتحداها. سقطت مرات كثيرة من الضربات. كنت أظل على الأرض، لكي أتعبههم وهم يرفعونني. كنت أتباطأ أثناء الوقوف لكي أدمر أعصابهم. وتتوالى الضربات. بالأيدي، بالأحذية، بالعصي. كانوا يضربونني على وجهي، ثم مباشرة على ساقِي. يضربونني لكُمات على بطني، فإذا شددت عضلات بطني تحسباً للضربات التي ستأتي، أسمع وشيشا في أذني ثم أحس لها ينفجر من خصيتي!

— ألا تعترف؟

— ماذا تريدونني أن أقول؟

— قل كل شيء في بطنك يا ابن القحبة!

وأبدأ:

– 1، 2، 3، 4.

وقبل أن أصل إلى الخمسة أحس الأرض رخوة، وأحسها تدور. كانوا في البداية يتضايقون من أية كلمة أقولها. وقررت أن أصمت. بدأت ألمح في وجوههم آثار الصمت: دامية مفزعة.

– قل كل شيء. اصرخ، اشتتم، أما أن تبقى صامتا فهذا لن نسمح به أبدا.

– الققط يا محمد.

وضعوني في كيس كبير، ادخلوه في رأسي، وقبل أن يربطوه من أسفل، ادخلوا قطتين. هل يمكن للإنسان أن يتحول إلى عدو للحيوان؟ والققط ماذا تريد مني؟ كانت يداي مربوطتين إلى الخلف، كنت مستلقيا على وجهي أول الأمر، وكلما ضربوا الققط وبدأت تنهشني، وحاولت أن أنقلب على جانبي، أحس برجل ثقيلة فوق كتفي، على وجهي، وأحس الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي. لما فكوا الكيس، كنت أريد أن أرى الققط، كنت أريد أن أحفظ صور أعدائي الجدد. تراكضت الققط المذعورة، كأنها خرجت من الجحيم. كنت دامي الوجه وأحسست بالنزف من عيني اليسرى.

ضحكوا كثيرا، لما رأوا دمائي. استلقى نوري على ظهره، كان يضحك من الفرح واللذة، وبعد أن مسح عينيه من آثار الدموع، قال لي:

– ما رأيك بهذه الحفلة؟ ألا تعترف؟

لم أستطع أن أجيب. كان جسمي يلتهب. يتمزق من الألم.
لا أعرف هل حركت كتفي، أم تصورت ذلك، قال لي وهو
يجرني ناحية الباب:

– عندي آلاف الوسائل التي تجعلك تتكلم مثل بيبغاء. هل
تتكلم، أم تريد أن تجرب؟

كنت في ذلك الوقت مستعدا لأي شيء، ليفعل نوري ما
يريد، سوف أقتله بصمتي، يجب أن أعاقبه بالطريقة التي
تقتله.

أمسك أصابعي بقوة، ودفعها بين شقي الباب وبدأ يغلقه
بهدوء. لما صرخت بصق في وجهي، قال بتشف:

– هل رأيت؟ هذه واحدة من ألف!

– لا تتعب نفسك يا نوري.. لن تظفر بكلمة.

كان يجب أن أظل صامتا!

– والله يا ابن الكلب، يا "م....."(4) سأجعلك تتكلم في
نومك..

– حاول!

هل كانت تلك أقسى الليالي؟ أطولها؟ جرب نوري كل

الوسائل، وضعتني خلف درفة الباب المفتوحة، وضرب الدرفة بقوة أول مرة. أحسست رأسي ينفجر، شعرت أن أضلاعي تخرج من عيني ولم يسألني شيئاً، بدا يغلق الباب بهدوء، وشعرت أن أضلاعي تتكسر، لم أعد أقوى على التنفس، شهقت عدة مرات من الألم ومن الرغبة في أن أعب الهواء قبل أن انتهي.

— هذه بداية.. ماذا تقول؟

لم يكن ينتظر جواباً، كان يريدني أن أمر على جميع وسائل التعذيب قبل أن يسألني. قال لي:

— سأجعلك هذه الليلة أعجوبة. لا أريد منك كلمة واحدة، وسأرفض غداً، وبعد غد، استقبالك، لا أريدك أن تتكلم من الألم، أريدك أن تقول كل شيء وأنت مرتاح تماماً!

لو طلب مني أن أنزع ملابسني تلك الليلة، لما فعلت. قررت دخول الرهان مع نوري حتى نهايته، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الرهان. قال لعبد:

— انزع ملابسك وحضر الحبل.

كانت مقاومة بائسة أقرب إلى العبث، بعد دقيقة أو دقيقتين وجدت ملابسني كومة إلى جانبي وأنفاس عبد تلهت في ظهري، وهو يشد الحبل حول يدي. ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما

يشاؤون... هذا أقصى ما يستطيع. سمعت القصة أكثر من مرة. هددني نوري أكثر من مرة، قررت أن أموت تلك الليلة. ليفعل نوري أي شيء. لم أعد أطيق أن أظل حيا يوما واحدا. أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الإنسان؟ لا أريد أن أتصور أي وصف، أية كلمة لأقول أن نوري هو كذلك.

أمسك مثل طبيب بخصيتي. بدأ يضغط بهدوء أول الأمر، ثم شدهما بعنف إلا الأسفل، أحسست بروحي تخرج من حلقي، لا يمكن لإنسان احتمال هذا الألم كله، تركهما.

أحسست بهما ثقيلتين، متدليتين كأنهما أجزاء زائدة غريبة، وبدأ يتسرب الألم إلى أمعائي حادا مثل سيخ النار. لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير، كان أكبر دبوس رأيته في حياتي. أشعل عود ثقاب، أشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها.

تمنيت في تلك اللحظة لو يغرسه في قلبي. لو فعل لانتهى كل شيء. لكن إبليس المجنون العايب لا يريد أن يقتلني. من جديد رأيته يمسك خصيتي ويغرز الدبوس الأحمر. أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى؟

الإنسان هو الإله. بصقت في وجهه من الألم والتحدي. كنت أريد أن أفعل أي شيء قبل أن أموت. لقد فعل نوري كل شيء، ألا أستطيع أن أرد عليه مرة واحدة؟

أحسست بجراحي تزغرد من الفرح لما رأيت البصقة
تتحدر بهدوء من عينيه إلى خده، قريبا من الأنف. أذهلته
المفاجأة، لم يستطع أن يفعل شيئا أول الأمر، ثم لما أحس
بالبصقة تقترب من فمه، مسحها بظهر يده. كان مجنونا في
تلك اللحظة. ضربني بحذائه على وجهي، ما تزال العلامة
باقية حتى الآن، ضربني على بطني، ضربني ببديه وقدميه،
حتى تعب. كان الآخرون يتابعون دون أن يقولوا كلمة، لكن
عندما جلس، هز رأسه بطريقة معينة، تأكدت بعدها أن حياتي
انتهت. انقض علي عبد وأبو خيرى، انقضا مثل وحوش
مجنونة، وكأنهما ينتظران تلك الإشارة. أتذكر أن وجهي
اصطدم بالحائط وبدأت الدماء تغسلني، ولا أتذكر بعد ذلك إلا
ويداي مربوطتان بالسقف وأتدلى!

أشيلوس، يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان، إلا تعرفين كم
مرة يموت الإنسان وكم مرة يولد؟ التفتي إلى الشاطئ
الشرقي، لتغرز دموعك في الأماكن المظلمة، وانظري بقايا
البشر: الضحايا والجلادين. بقايا البشر!

احذري يا أشيلوس أن عدت يوما للشاطئ الشرقي،
سيجدون لك سردابا أصغر من القبر، وهناك يجب أن تقاومي
الجنون والوحدة، لقد جنت المخلوقات هناك. القطط مجنونة لا
تقترب من البشر، لا تهرهر مثل قطط المناطق الأخرى،
تجفل من الخطوة، من قطعة الخبز، ونداء الحرية عندها أقوى
من نداء الجوع. لقد جنت القطط تماما، والبشر المجانين

يلحقون القطط، يقبضون عليها، يدخلونها في الأكياس مع البشر، يضربونها ويضربون البشر، تموء، تصرخ، تمزق بمخالبها كل شيء!

ليست القطط وحدها المجنونة يا أشيلوس: الكلاب والعصافير جنت أيضا.

آه لشد ما هم منحدرون. منحدرون وجبناء. أليس لهم أخوة؟ زوجات؟ وأطفالهم، هل تعرف هذه الأيدي أن تحمل الأطفال مثل باقات الورود وتداعبها؟ لا أصدق أن يدا مثل هذه أعدت لشيء غير أن تضرب وتضرب وتضرب.

السويدية التي تحمل من شاطئ المتوسط الشرقي ثلاثة كناريات صفراء في قفص كبير، ابتسمت لي أمس لما رأته انظر إلى طيورها بدهشة. ظلت تراقبني من بعيد، ولم تقل شيئا. هل هذه الطيور شبيهة بتلك التي كان نوري يعلقها في غرفته؟ الألوان، المناقير، خفقات الأجنحة، تكاد تكون نفسها، ربما كانت هذه أبناء لتلك، نعم يمكن أن تكون.

كان نوري قصيرا، واسع العينين، شفته السفلى ثقيلة مرتخية، أما الأذنان فقد اكتسبتا حمرة معربة. كان إذا خلع سترته وبان كرشه بدا أقصر، أما إذا رفع أكمام القميص، حتى الساعد، فإن الشعر الأسود الغزير يتدفق كشلال على يديه، وكان بهاتين اليدين القصيرتين ينثر الحبوب في قفص الطيور، وكان بهاتين اليدين يغمس رأسي في الماء، فأحس

أثقالا لا حدود لها تجثم فوفي، حتى إذا كدت اختنق، جر شعري بقوة ثور، وقبل أن أشهق شهقتي الثانية أحس من جديد ثقل الماء رصاصيا كاويا وهو يضرب وجهي مرة أخرى!

أشيلوس، هل تقولين لهذه السويدية التي تنام الآن في فراش دافئ وتحلم بطيورها، إنني أكره كل الطيور، وان نظرات الأمس كانت تشفيا ملعونا؟ هل تقولين لها يا أشيلوس؟

كانت الطيور تغرد إذا دخلنا، كانت تنتقل من طرف القفص إلى الطرف الآخر، وتنتظر الينا بسخرية، تلتقط الحب وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن نضرب. التفت مرة وأنا مُلقى على الأرض ويديا معصوبتان تحت ظهري. كنت أتمزق من الألم، كنت أريد أن أبكي، رأيتها ما تزال تقفز، هل كانت تقفز من الخوف، من الفرح؟ كانت تقفز، تغرد. نوري يحب طيوره، يطعمها بيديه، يقف طويلا يتأمل ريشها الأصفر، مناقيرها التي تنغمس في فئجان الماء الأبيض، كانت ابتسامة شديدة الفرح تطفو على وجهه وهو يرقبها!

— اكتب يا ابن القحبة.. غير خطك كيفما تشاء، سأعرف كيف التقطك مثل جرد. لا تنقري، خذي الحب دون أن تنقري. اتركيه يأكل، ابتعدي أنت، هل أنت حاضر؟ اكتب!

كل شيء له رائحة القيء. الكناري، عبد الطويل والذي تشابه يده سمكة كبيرة ثقيلة، حاتم المعروق الوجه، نوري بالضحكة المدوية، عندما يسخر، عندما يتحدى، حتى دمائي

قبل أن تجف كانت لها رائحة القيء.

وأنت يا أشيلوس، ألا تسألين هذه السويدية مرة أخرى، لماذا الأقفاص الكبيرة؟ كنارياتها الصفراء المتبجحة، توضع كلها وعشرات مثلها في ركن من قفص، وهذا الفضاء اللامتناهي الباقي من القفص، ماذا تفعل به؟

لما وضعنا في تلك الغرفة، شعرت أنني أولد من جديد. منذ سبعة شهور لم أر إنسانا غير هؤلاء القتلة. كنت في القبو أحارب الجنون. أمسكت مرة نملة سوداء كبيرة، قدمت لها رغيفي كله، وضعت أمامها قدح الماء، وقلت لها بصوت حاسم مليء بالرغبة:

— لن أتركك الآن. ستبقين هنا ثلاثة أيام، أنت ضيفي، بعد ثلاثة أيام يمكن أنت نتحدث.

لما رأيتها تبتعد عن رغيف الخبز، حملتها من جديد ووضعتها فوقه. بدأت تنزلق، تريد أن تبتعد. صرخت:

— إلا تعرفين العادة أيتها النملة المقدسة، يا ضيف الله؟ الضيافة ثلاثة أيام. قللي عني ما تشائين. قللي نوري أو عبد، قللي جلد وكافر، قللي، فأنا لا أسمع إلا ما أريد.

لم احتمل أن أحبس النملة عندما أصبحت قريبة من الشق، قلت لها وأنا أراها تتسلق الحافة:

— يجب أن لا تبقي وحيدة، لو ظلت هنا لكنت صديقك،

احذري أن تقتربي ناحية الجنوب، هناك لا يعرفون معنى
الصداقة، وليس لهم أصدقاء. إذا ضقت من قبوي، فاذهبي هذه
الناحية، ناحية الشمال، هناك تجدين الأصدقاء!

سألتني الصغيرة وهي تقترب مني:

— هل أصابك الدوار؟ لم نرك منذ الصباح؟

قلت وأنا أسحب عيني عن وجهها اللذيذ:

— اشعر بالغثيان، لكن ما زلت احتمل.

— يبدو أنك معتاد؟

— لما كنت صغيرا كنت أقضي ساعات طويلة مع خالي
في البحيرة نصطاد السمك.

— والبحر، ألم تتركب سفينة قبل هذه المرة؟

— هذه أول مرة.. وأنت؟

— أول مرة!

— هل تشعرين بالدوار؟

— لم أنم طوال الليل، أخطأت إذ لم استعمل الدواء.
تصورت أنني احتمل، لكن اليوم لم آكل إلا قليلا وأخذت حبة
دواء!

— وكيف تشعرين الآن؟

— أشعر أني مرتاحة، سأنام باكرا.

انعقدت عند الغروب حلقة الرقص. بعد ساعتين نصل البيرييه. أشيلوس البقرة البيضاء المقطوعة السيقان، تعاند البحر، تقهره، لم تتأخر في رحلتها إلا مثلما يتأخر حاتم في فتح باب القبو، كنت أسمع مفاتيحه، كنت أنتظر، وبعد أن يعالج الباب ينفتح، كانت تداهمني أشعة الضوء المغروسة فوق الباب، ولا أرى إلا ظلالا.

حفلة الرقص مجنونة. الطفلة بعيون مليئة بالدهشة، انسحب في ظلال المساء بعيدا، أصبح تحت السماء. مطر صغير مغزول من القطن، ولا تراه العين إلا في شبح الأضواء المنثورة على السفينة. أشيلوس تجاهد لكي تصل، تعذبها لحظات الانتظار الباقية، تفرس نفسها بشكل ما، تحقيقا لرغبات مبهمه.

الأقفاص الكبيرة، الدوار، النوم الباكر، وأي شيء آخر؟

كنا أربعة عشر رجلا. أربعة عشر. نعم أربعة عشر. الغرفة لا يمكن أن تستقبلنا إلا وقوفا، وقوفا تماما. كانت الأجساد متراسة، رائحة العرق، رائحة الأفواه، الشعور الطويلة، الأظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها، على هذه المسافات المتناهية الدقة لا يمكن للإنسان أن يرى شيئا. طرف الوجه قطعة لحم صماء لا تعني وجها أو جزءا من وجه، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ وتتقلص في محاولة لأن تسحب

الهواء، والشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يخيم على أقسامها السفلى سواد الدخان، ويخيم على أقسامها العليا السواد المصفر. لكن كنا أربعة عشر رجلا، وأن يكون الإنسان داخل هذه الكتلة من البشر ينتابه فرح أخرس، كل هؤلاء بشر، بشر حقيقيون، حقيقيون تماما: أنفاسهم، الحركة المتموجة، الضحكة الصغيرة، كنا بشرا حقيقيين، كنا أربعة عشر.

هل انتهت فترة التوقيف المنفرد؟ هل احتملت كل هذه المدة؟ لا أصدق.

رأيت تحت المظلة، قريبا من مقدمة أشيلوس، رجلا يضع على أذنه راديو صغيرا!

الأخبار؟ انتظر، أنتظر، سيطول الانتظار أيها المسافرين، ستموت قبل أن تسمع الكلمات التي تنتظرها. شاطئ المتوسط الشرقي لا يلد إلا المسوخ والجراء، وأنت تنتظر الخيول والسيوف! انتظر، سيظل ذلك الشاطئ يقذف كل يوم عشرات الجراء، مئات الجراء، وحتى لو وصلت أعدادهم إلى الآلاف، فستظل جراء تعوي في السرايب، أو تموت في المزابل، لأنها تريد ذلك!

اسمع الأخبار، وحدك، لا أريد أن أسمع. يكفيني ما سمعت! كانوا يوقفون التعذيب عندما تحين ساعة الأخبار. كانوا يحرصون على أن يسمعوا مقدمة النشرة، حتى إذا اطمأنت وجوههم، أداروا المفتاح، وبدأت الموسيقى من جديد!

آه.. لو ظل الشاطئ الشرقي للمتوسط بركة للتماسيح، ولو ظلت الكهرباء بعيدة، لكن جاءت هذه اللعنة لكي تقتل البشر.

أمجد يتذكر تلك الليلة، كان يتذكرها بعد ثلاث سنين. لم ينسها أبداً، انحفرت في رأسه مثل تاريخ على شجرة قديمة، على جدار دير. لما سألناه مرة عن تاريخ ميلاده، حاول أن يتذكر. قال 12 أيار، ثم استدرك وقال 27 نيسان. لما سألناه أي التاريخين هو الحقيقي؟ قال: التاريخ الحقيقي الوحيد: 21 تشرين الثاني، هذا هو التاريخ.

الكهرباء، الموت الحقيقي، ينخض القلب ثم يموت. كانوا يضعون التيار على الأكتاف، قريباً من القلب، فوق الأنف، بين الأليتين.. وينتفض القلب، يترنح، يتوقف، ويتوقفون.. مئات المرات فعلوا ذلك. لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية أخرى وانتهى الأمر. لكنهم لا يفعلون.

قال أمجد: آخر مرة كانت 21 تشرين الثاني، هذا آخر تاريخ لميلادي، وما عداه كذب أزرق!

التلفزيون، المراوح، الثلاجات، الفواكه المعصورة، أي شيء يمكن أن تولده الكهرباء؟ أن تمنحه الحياة؟ شكراً لله أنني لا أعرف أسرار هذا المخلوق العجيب، لو عرفت الاستعمالات التي تمتد إليها الكهرباء لصعقت من الخوف، لأنني لم أمتحن إلا استعمالاً واحداً: الارتجاف، الإحساس الحاد المتوتر بأن كل شيء قد انتهى، ثم والمياه تصفعني، وارتعش

رعدة الحياة هذه المرة، وما أن أكر أناسى إلى الداخل، لكي أؤكد أن رتتي ما تزالان تستقبلان الهواء حتى أشعر بالارتجاف من جديد، أحسه كاويا مجنونا، وأغيب. وما تكاد رعدة الحياة تعاودني مرة أخرى، وأنفـس الهواء إلى الداخل حتى أغيب.

أشيلوس ترقص، رقصة الديوك المذبوحة. الفرع في قلب الإنسان مغارة لا تعرف الامتلاء، لكن يا أشيلوس التي ترمين بقايا الأكل إلى البحر، كما ترمين البشر في الموانئ، ألم تعرفي الجوع، ساعات الانتظار الممضة؟ يجب أن يتعلم الإنسان، أن يتعلم باستمرار!

يجب أن يستقبل الكهرباء مثلما يستقبل الرجل المرأة، أن يذوب فيها بصمت، أن يترنح ولا يموت. قال لي نوري، وأنا موثق وملقى أمامه:

— نريدك الآن أن تقول الأشياء الأخيرة، إذا كانت لك رغبة أو رسالة!

نظرت إليه ولم أجب. كان كتفي مكسورا بعد أن وقف عليه عبد بكل ثقله، ولم يعد يهمني أي شيء. كنت أعرف أن الموت هو الراحة الكبرى التي يمكن أن أصلها، وكنت انتظر هذه الراحة بلهفة مسحورة.

قال لي وهو يخرج ورقة مطبوعة من جيبه:

— إذا لم تصدق، انظر.

قرب الورقة من وجهي، لكن لم اقرأ شيئاً. لاحظ ذلك، قال وهو يعتدل في وقفته:

سأقرأ عليك: بعد استكمال التحقيق وتوفر الأدلة بخصوص الموقوفين التالية أسماؤهم، تقرر تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص...

وقرأ الأسماء.. سمعت اسمي، كان الثالث.

توقفت مشاعري كلها، لم أستطع أن أتحرك، وحتى لو أردت، فقد كانت أية حركة مستحيلة. دفعني بقدمه، لم أحس إلا وجسمي يتقلص بحركة تشنج لا إرادية، وعاد إلى السؤال من جديد:

— أية رغبات؟ أية أوامر؟ أنت تعرف أن المحكومين بالإعدام يسألونهم أن كانت لديهم رغبات، أعرف ذلك؟
لم أجب.

بصق في وجهي وقد تغيرت هيئته كلها، صرخ:

— ألا تُصدق؟ يجب أن تُصدق يا ابن البيت العمومي! يا ابن القحبة!

ربطوا عيني، لا أدري من حملني، لكن أحسست بأيدي قاسية ترفعني عن الأرض، كنت مستسلماً، لأنني لا أستطع غير

ذلك.

هدرت السيارة وسارت، قطعت مسافة كبيرة، ثم توقفت. حملوني، أنزلوني، سمعت أصوات السلاح، كانت الطلقة وهي تدخل بيت النار، لها صدى ساخر. سمعت الرجال الذين حولي يتكلمون بصوت منخفض. لم أكن أريد أن أسمع، الألم يجزني، عيناى تحت العصاة كتل من الألم الساحق، أسناني، وكتفى المكسور كان يجعل تنفسي عسيرا مرهقا، ليكن أي شيء. الموت؟ لكن هل أموت فعلا؟ هل يقتلونني؟ ماذا فعلت؟

كنت أريد أن أصرخ. أن أقول افعلوا ما شئتم أيها القتل. لكن أصوات السلاح وهي تتحرك بين أيديهم أرغمتني على السكوت. أصوات السلاح والألم. ولكن هل أموت دون كلمة؟ يجب أن أفعل شيئا قبل الموت، كنت فرحا وأنا أرى البصقة تنزلق على وجه نوري. شعرت في ذلك الوقت أنني فعلت كل ما أستطيع. والآن؟ أتركهم يقتلونني مثل كلب دون أن أقول كلمة واحدة؟ وما فائدة أية كلمة أقولها الآن؟ ومن يسمعي؟ وماذا لو سمعني العالم كله؟ ألم يقرأ نوري علي الحكم قبل قليل؟ ألم يردد اسمي مرتين لكي أتأكد؟ كان من الواجب أن اطلع على الورقة بنفسى. هؤلاء الناس يكذبون، لا يتقنون شيئا أكثر من الكذب! قل كلمة أخيرة يا رجب، يجب إلا تموت مثل كلب، دون كلمة احتجاج، ودون صرخة، ولتكن صرختك قوية تخلع قلوبهم، لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من

أن يقتلوك، هذا أقصى ما يستطيعون!

سمعت طلقة من مكان بعيد. ساد الصمت. كنت معصوب العينين على الأرض. هل يقتلونني وأنا في هذا الوضع، ألا يربطونني إلى عمود؟ ألا يوقفونني إلى جانب الجدار؟ ليست هذه هي الطريقة التي يتبعونها في القتل، لكنهم لا يتبعون طريقة بذاتها، كل طريقة تؤدي إلى الموت، مناسبة لهم. وماذا يهمني أن أموت هكذا أو أن أربط إلى عمود؟

لما نادى أبو خيري عرفت صوته. يبدو إنه أشار بيده، ثم نادى:

— املوهم إلى ساحة التنفيذ.. تعالوا.

والطلقة، هل قتلت أحدا؟ حياة من انتهت؟ الدم ينزف، بركة دم كبيرة، رعشات ثم ينتهي الأمر. وهل احضروا كل الذين ذكر أسماءهم نوري؟ يجب أن أتذكر. سمعت أسماء: زكي، حسين، ووليد.. ومن أيضا؟ كان من الواجب أن أصغي، أن أحفظ الأسماء، أن أتذكرهم: زكي بوجهه المجذور، والشارب الكثيف، هل كسروا نظاراته؟ ألا تزال يده تمتد إليها كل لحظة لتثبتها؟ ووليد إنه لا يحتمل، له كلية واحدة، كنا نسميه نصف رجل، هل صمد كل هذه الفترة وعذبهم أكثر مما عذبه؟

كان وليد لا يترك لأحد أن يتكلم. كان يقول: «هذه القصة أعرفها، هذه النكتة أعرفها، اسمعوا».. كان يحارب ببسالة لكي يستمر دائما في الحديث. لو إنه تكلم لما ساقوه إلى هنا.

ربما قال لنفسه: تكلمت قبل السجن أكثر مما يجب، والآن يجب أن اصمت. لو تكلم لما جاء الآن، لما صدر عليه حكم الإعدام.

أيعرف هادي كم نحن صامدون؟ سيقول له احد، سيعرف. أشيلوس... أنت سفينة الحرية، سفينة لها مائة باب، لا ترجعي، اقفزي دائما إلى الأمام، ويل لك إذا أمسكوا بك يوما، إذا قبضوا عليك لا بد وأن يفعلوا بك شيئا، كانوا يفعلون، إذا صمت، إذا تكلمت، إذا نظرت، إذا لم تنظري. كانوا يجدون سببا لما يفعلون.

ولكن من يسألهم عن السبب؟

— لماذا تنتظر هكذا يا ابن الزانية؟ أتتحدى؟ اضربوه، علقوه.

— لماذا لا تنتظر إلي عندما أسألك؟ أنتظاهر بالعفة والخل... يا "....." (5) عدل وجهه يا عبد، علمه كيف ينظر!

— أحك يا ابن القحبة. يجب أن تحكي كل شيء.

— اخرس، سأدوس رأسك وأملأ حلقك... "خ...." (6) أفهم؟

كانوا كبارا، عمالقة من خشب. وكنا ضامرين، نئن، نصمت، نريد لحظة لنغفو، كنا نتلهف لكلمة من العالم الآخر.

5 شتيمة

6 كلمة قبيحة

في الأيام الأولى كنت أسأل نفسي مئات المرات: والعالم الخارجي، ألا يزال موجودا؟ والمقاهي أتستقبل البشر؟ ودور السينما ألا تزال الحفلات في المساء، الأولى في السادسة والثانية في التاسعة؟ والشوارع والأضواء ورجل ينتظر امرأة على محطة الباص؟

تصورت العالم الخارجي في لحظات معينة يتوقف، ينتهي. حزمت أكثر، وكدت أموت لما علمت بموت أُمي. رأيت أنيسة، كانت هالات سوداء حول عينيها، رأيت الخطر أوضح من قضبان الحديد التي كانت تفصلنا. قلت لها مثل ذئب جريح:

— أين أُمي يا أنيسة؟

صمتت، ثم بكت. كان بكائها مثل صرخة مفاجئة في الظلمة. في ذاك المساء بكيت، ضربت رأسي بالجدار، وظننت أنني لن أعيش، ولكن الأيام تدفقت بعد ذلك وواصلت الحياة.

الإنسان أقوى من قطة. يموت ولا يموت، عيب الإنسان في جسده، إذا ضعف الجسد، إذا تهاوى، سقطت روح الإنسان، تفتت إرادته. ولكن كيف يستطيع الجسد أن يسقط؟

كانت عيوني تنقب أجسامهم، تجعلها تتلوى من الحقد. كنت أقوى منهم مئات المرات. لم يبقوا معي شيئا: أخذوا الحزام، قيطان الحذاء، رباط العنق. كانوا يخافون أن انتحروا! هكذا قال

لي السجناء فيما بعد، لا.. لا لن تفرحوا. أنتم الذين تقتلون، السجناء لا ينتحرون، اكتبوا: انتحار هادي ابو الليل. هادي لا يموت. كنا قريبيين. لما رأونا على الشباك وهم يقودون هادي، هجموا علينا مثل ذئاب جائعة. ضربونا، أنزلونا إلى القبو، كنا ثمانية. كان القبو صغيراً، صغيراً، لم نجلس ولم ننم، كنا نريد أن نسمع صوت هادي. آخر الليل سمعنا ثلاث طلقات. لم نكن نائمين عندما سمعنا الطلقات. قلنا لخليل الذي يسمع دبيب النمل:

— اسمع يا خليل وقل لنا ماذا تسمع.

كان الليل كثيفاً مدهشاً: الصمت ورنين الأحذية. هذا ما كنا نسمعه، أما خليل، فقد بكى. رمى نفسه بيننا وبكى. لم يستطع أن يقول كلمة واحدة. حزنا تلك الليلة حتى كدنا نُجن، كانت الأضواء المشربة بالصمت تتكوم فوقنا، تتسلل من الشق القريب في السقف. في ذلك الوقت المليء بالخشوع والارتجاف، قال لنا خليل:

— قتلوا هادي.

— لا يمكن أن يقتلوا هادي...

— أقول لكم قتلوه!

— كيف عرفت؟

— أقول لكم قتلوه... قتلوه!

وبكى من جديد!

لم نسأل خليل بعد ذلك، ولم يتكلم. لكن بعد أن انقضت ثلاثة أيام، ورأينا الوجوه معتكرة عصبية، وكان البرد أقسى من أن تتحمله أجسامنا التي عافت الطعام، قال لنا خليل ونحن نأكل:

– سمعت همساتهم بعد الطلقات، كانت همسات خائفة مجللة بالرعب. كانوا يتراکضون على رؤوس أصابعهم. قالوا وهم. يتراکضون: احضروا كيسا كبيرا.. سنضعه في الكيس ونضع معه الحجارة ونلقيه في النهر.

– وماذا أيضا يا خليل؟

– خذوه الآن، ضعوه في المرحاض، لكي نسأل الآغا ماذا يجب أن نفعل!

– هل سمعت هذا يا خليل؟

– وسمعت نوري يقول: احضروا ماء وامسحوا بقع الدماء!

– لا لم يقتلوا هادي، أنت تتوهم!

– قتلوه.. قتلوه.. قتلوه..

وبكى خليل مثل طفل. وبكىنا.

-4-

انقضت ثلاثة شهور، تلقيت خلالها رسالتين وثلاث بطاقات بريدية. أرسل رجب البطاقة الأولى من اليونان، لأول مرة أقرأ كلمات رجب بعد سنين طويلة. قرأت رسالتين أو ثلاثا كتبها حين كان في السجن. وبعد ذلك لم يكتب.

قرأت البطاقة وبكيت. تأكدت أن رجب أصبح بعيدا، بعيدا جدا. كانت البطاقة بعنوان حامد، لكن وجهها إلينا كلنا:

أعزائي،

أثينا تغرق في الضباب الناعم. مطر هادئ في نهاية الليل، أما في الصباح فالضباب والنقاء. كل شيء مغسول، ويكاد يضحك.

أتمنى لو اقضي هنا فترة طويلة، لكن لم يبق للباخرة إلا ثلاث ساعات وترحل من جديد. صادفت عددا من الناس يتكلمون اللغة العربية، يتكلمونها بلهجة مصرية لذيذة، لا أعتبر نفسي أنى قد رأيت أثينا، لأن العشر ساعات لا تكفي.

تحياتي الحارة جدا. سأكتب قريبا

ولم أستطع أن أميز توقعه. كان في زاوية البطاقة، غامضا، حتى أن الشك راودني في أن لا يكون رجب هو الذي كتبها.

المرأة تفكر بالأشياء الحزينة. إذا لم تجد ما يكفيها من الحزن، بحثت عنه عند الآخرين!

كانت الأيام الأولى بعد السفر شقية.

استدعوا حامد إلى التحقيق، واستبقوه منذ الصباح حتى منتصف الليل، وبعد أن تركوه فترة طويلة دون أسئلة ودون أكل انتبهوا لوجوده، وكأنهم فوجئوا بالاكشاف، كما قال، وسألوه نفس الأسئلة: من زار رجب؟ من اتصل به؟ إلى أين ذهب؟ هل نام خارج البيت؟

أجابهم بهدوء وصدق، لأنهم يعرفون الإجابات دون أن يسألوا أحداً، وبعد أن انتهت المرحلة الأولى من الأسئلة، قالوا له:

— أنت تعرف أن رجب ترك السياسة، ولم تعد له علاقات إلا معنا، لكن مع ذلك، يجب أن تتأكد أن كل شيء متوقف على سلوكه، لا يظن إنه أصبح بعيداً، وإن أيدينا لا تصل إليه. لا، إذا فكر هكذا يخطئ كثيراً. وأنت، ستسأل عن كل شيء في المستقبل، أنت كفلته، ألم تكفله؟

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، تركوه يعود إلى البيت عند منتصف الليل، وطلبوا منه العودة يوم السبت.

حاول أن يظل طبيعياً في الأيام الأولى، لكنني لاحظت أن أقل الأشياء بدأت تثيره وتدفعه إلى الغضب، وبدأ بعد ذلك يتكلم بحزن عن كل شيء، ولكن لم يكن أمامنا إلا أن نبقى!

استدعاء حامد لم يكن الشيء الوحيد، أصيبت ليلي

بالحصبة، وأخطأ الطبيب في تشخيص مرضها، مما هدد حياتها لمدة ثلاثة أسابيع، أما عادل فقد ضبطوا معه في المدرسة سكيناً صغيرة، قال إنه هدد بها أحد الأولاد، وكاد يتطور الأمر، لولا أن حامدا قدم لمدير المدرسة تعهداً بأن لا يتكرر الأمر، وقال له أن يطرده نهائياً لأتفه مخالفة يرتكبها!

المصائب إذا جاءت تجيء مرة واحدة، لم أكن أعرف كيف أتصرف. لكن مرض ليلي دفعني لأن أوجه لها كل اهتمامي، لقد أغرقت نفسي في عالم المرض، لكي أنسى الأشياء الأخرى.

كان ثاني ما تلقيناه من رجب رسالة وبطاقة بريديّة، جاءتنا معا في نفس اليوم، قرأت البطاقة بسرعة، أما الرسالة، فقد قلت لحامد أن يتركها على الطاولة لكي أقرأها في وقت آخر. كنت أريد عالماً جديداً أغرق نفسي فيه، فقد مللت المرض والأحاديث الحزينة، وكنت واثقة أن رجب كتب شيئاً في رسالته قد يساعدني على النسيان!

في الليل المتأخر، وأنا أسهر إلى جانب فراش ليلي، امتدت يدي إلى الرسالة. انتزعتها من الغلاف بيد مرتجفة، وأفكاري تتيه وراء ذلك الطائر المهاجر. لقد نسيت ملامح رجب خلال فترة أسبوعين، أو هكذا بدا لي. وحاولت مرات كثيرة أن استجمع في ذاكرتي صورته. لكن تلك اللحظة اللعينة وأنا أراه يضرب رأسه بالحائط سيطرت علي لدرجة لم أستطع تصوره

بصورة أخرى، بكيت وأنا أقرأ الكلمات الأولى.

قال إنه كتب الرسالة في الباخرة، وسوف يرسلها من ميلانو. تحدث عن المهاجرين والبحر، تحدث عن الباخرة الكبيرة التي تضم عددا كبيرا من البشر من جنسيات مختلفة، وقال إنه لا يشعر بالملل، لكن يحس كل شيء حوله غريبا وانه لا يستطيع التلاؤم مع هذه الحياة الجديدة، ثم عاد واستدرك، فقال أن حياة الباخرة مؤقتة، ولا تمثل شيئا من الحياة التي ينتظرها.

بكيت وأنا أقرأ. اعتذاره الغامض عن الأخطاء والإساءات التي ارتكبها خلال الفترة الماضية، وذكر شجرة الحور والليلة الأخيرة. لم يتحدث عن ذلك إلا بكلمات قليلة غامضة،

أحسست وأنا أقرأها، إنه يعني أمورا أخرى، ولا أدري لماذا تصورت إنه يفكر بالسجن وموت أمي. أن هذين الأمرين هما اللذان يخيمان على رأسه مثل أشباح، ولكنه لا يقولها، او بالأحرى لا يستطيع... أو لا يريد! وقال أيضاً أن تخلي هدى عنه حين كان سجيناً جرحه، وانه بعد ذلك لم يعد يثق بالنساء، لكن كيف حصل الأمر؟ حصل الأمر كأنه قدر، لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً ليمنعه.

كانت هدى تزورنا كثيراً خلال الفترة الأولى بعد السجن، كنا نتحدث عن رجب، كما لو إنه سيأتي بعد ساعة، سيطرق الباب فجأة ويدخل. كانت في البداية تتحدث عنه دون أن تذكر

اسمه، وقد احمر وجهها مرات عديدة وأنا أنظر في عينيها
وأسألها أن كانت تحبه حتى اليومي،

بدأت تتحدث عنه مباشرة، ولا تتردد في أن تذكر أن عينيها
جميلتان رغم الحزن.

هكذا كانت الأمور في البداية: الرسائل، العناية بالملابس،
والتذكر المبهج.

في وقت آخر بدت هدى حزينة. رفضت أن تتكلم لما
سألتها أول مرة، ورفضت في المرة الثانية. لكن لما ألححت
عليها بكت. وضعت رأسها على كتفي وأخذت تبكي. أحسست
أن في حياتها رجلا جديدا. لم تقل لي، لكن المرأة تفهم المرأة
الأخرى دون أن تسألها. أبعدتها عن كتفي وقلت لها:

— هل أساء إليك أحد يا هدى بسبب رجب؟

وظلت صامتة وبقايا دموع في عينيها، حتى رأيتني أبكي،
ولا أعرف لماذا بكيت فقد تجمعت الأحزان في قلبي فجأة
وبكيت.

ولم تستطع أن تقاوم، انفجرت في نوبة من البكاء، وحتى
تلك اللحظة. لم أكن أظن أن هدى تمتلك هذا المقدار من
اللوعة والأحزان! ظللنا نبكي. لا أدري كم من الوقت،
انقضى، لكن وجدتها أخيرا تتكلم إلى نفسها أول الأمر، ثم

تحدثني.

انتهت تلك الأيام، تبدو لي الآن بعيدة وكأنها لم تقع أبداً، لكن بعض الكلمات التي قالتها تمر في ذاكرتي مثل أطيباف.

أتذكر إنها قالت: سأقتل نفسي يا أنيسة، لا أطيق أن يلمسني أحد، وإذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب، فلن يفرح بي رجل، سأقتل نفسي.

سأقتل نفسي. لا أعرف أية كلمات شيطانية انزلت على لساني، عندما حاولت أن أخفف عنها، والآن أصبحت متأكدة، أن أسوأ شيء أن تسأل المرأة امرأة مثلها عن الذي تحب. هل كان عقلي هو الذي تكلم مع هدى؟ قلبي؟ هل كنت أخاف منها وأحاول أن أدفعها بعيداً عنه؟ أن شيئاً في داخلي كان يتلوى من الفرح والألم، لم أستطع إدراكه تماماً، وحتى هذه اللحظة لا أعرف أية عواطف اختلطت، حتى دفعتني لأن أقول لها تلك الكلمات.

وهدى.. هل كانت تنتظر كلماتي لكي تتصرف؟

كانت تنتظر تبريراً، جسراً من الكلمات، لتعبر إلى الضفة الأخرى.

بعد أن لمتها كثيراً على الكلمات العمياء التي تدفعها لأن تتفوه بمثل هذه الكلمات، قلت لها:

— رجب بعيد لدرجة أن الأمنية الوحيدة هي أن أراه حياً

في يوم من الأيام.

وقلت لها بلهجة أمتحن فيها مدى تعلقها برجب، ومدى استعدادها لأن تفعل شيئاً:

— ماذا لو قلت لأهلك يا هدى؟ أنتصوريين أنهم سيمانعون؟

رأيت أطياف الخوف والدهشة في عينيها، إذ بمجرد أن مرت الفكرة في رأسها تروعت، أما أن تواجه أبا وأربعة أخوة، وتقول لهم أنها تحب رجلاً سجيناً وتريده زوجاً، فقد بدا لي الموت أهون عليها من ذلك بكثير!

أصبحت هدى بعد ذلك حزينة، زيارتها قصيرة، كلماتها عصبية، وتنتقل في البيت تائهة تبحث عن نفسها، حتى جاءت الفترة التي قررت فيها أن تبدأ رحلة جديدة.

قالت لي وهي تجرني إلى الحديقة وتبكي:

— لم أستطع أن أفعل شيئاً يا أنيسة، قال أبي لأبيه في الليلة الفائتة إنه موافق.

انتظرت أن أقول لها كلمة، لكن لم أقل. صمت. وفي قلبي ذلك الرنين الملهب من الفرح المتألم. قلت، أخطب نفسي، وقد شعرت بثقة الأنبياء: النساء في بعض اللحظات يقلن كلمات كبيرة، لكن ما يقلنه مجرد كلمات، أنا الوحيدة، بعد أمي، التي تنتظر رجب، ويمكن أن أموت من أجله!

لما رأنتي صامتة، وأفكاري تحفر الأرض، قالت بحزن:

— ماذا أفعل؟

— وأخوتك هل وافقوا؟

— كانوا موجودين، ولكن أبي هو كل شيء وهو الذي تكلم!

— ولكنهم أخوتك، إلا يقولون شيئاً؟ أليس لهم رأي؟

ومن جديد صمتت.

عندما جاء حامد، كان عمي هو الذي تكلم، لكن عمي لم يقل كلمة إلا بعد أن قال رجب الكلمة التي تشبه حد الموس. كانت أمي بصخب الأطفال توحى لرجب أن يقول كلمات معينة، أن يتحدث عن المهر وعن الشروط، لكنه لم يسمع كلماتها. كنت في الغرفة المجاورة وجمعت ما قاله رجب.

— ليس عندنا غير أنيسة، ولا نريدها أن تتحول إلى بضاعة ونسأوم عليها. حامد رجل جيد وملائم لأنيسة، وما دام الأمر بهذا الشكل، فلتذهب إليه بثوبها، لا نريد شيئاً آخر! قلت لهدى والرغبة في أن أدفعها لتسقط، تضغط على صدري:

— الآن.. في هذه الأيام، يجب أن يكون للمرأة رأي.

— ولكن ماذا أفعل يا أنيسة؟

— ألا تحبين رجب؟ ألم تقولي له أنك ستنتظرينه؟

— ترين بعينيك ماذا حصل.

هزرت كتفي وقلت بتحد:

— لم أر شيئاً!

تناوبنا البكاء هذه المرة. وجدت نفسي أبكي، لا أعرف أية مشاعر طغت علي تلك اللحظة. أحسست أن رجب أهين، وأنه لا يستحق هذه الإهانة. كنت قبل ذلك أتحدى هدى، أسخر منها، أدفعها لأن تقطع آخر الخيوط، وعذبني ذلك السؤال الذي انطرح أمامي مثل جثة: ومن أين لي الحق في دفعها لمثل هذا الاختيار الصعب؟ لنتزوج، لكن لتبق المودة بينها وبين رجب. الزواج غير الحب، وأنا أريد أن أدمر هدى لكي تتوقف عن حبه!

انقضت أيام لم أر خلالها هدى، شعرت بالراحة والحدق يتناوبان علي تناوب حرارة الحمى وبرودتها. كنت في لحظات معينة أقول لنفسي: هدى ورجب عالمان التقيا بالصدفة، وسوف يفترقان، ليس بينهما لحظات التوحد، ولا يمكن لأحدهما أن يؤثر على الآخر، كان يحب العالم الصامت، إذا صح لي أن استعمل مثل هذا التعبير، وكان يحب الكتاب والتأمل، وحتى في لحظات كثيرة الحلم والخيال. أما هدى، فقد كانت تتحدث كثيراً عن الأسفار، وتحلم ببناء بيت له حديقة كبيرة، وأنها ستفرغ لرجب، كما كانت تقول!

هذا ما كنت أصل إليه أغلب الأحيان، فأشعر نتيجة لذلك أن افتراقهما كان ضرورياً، وإنه الحل المناسب للثنتين معا.

كنت في لحظات أخرى، أجد نفسي أبكي وأنا أنكر برجب، فقد خسر أُمي وهو في السجن، عندما يخرج لن يجدها، سيتذكر المكان الذي تعودت أن تجلس فيه، الأشياء التي كانت تحبها، ورغم أنني أقسمت مرات كثيرة أن لا أشعره لحظة واحدة بفقدائها، فلا أعرف أن كنت قادرة على الوفاء.

وهدى تذهب الآن.

كان يتحول إلى طفل كبير أثناء وجود هدى، يضحك بصخب، يساعدني في تحضير الأكل، يخيفنا أن خرجنا إلى الظلمة، ولم تكن تلك الأمسيات البعيدة تخلو من مفاجآت!

أتذكر إنه خبا حذاء هدى ذات مرة، خبأه وخرج، حتى أذا حل الظلام بدأت هدى ترتجف خوفاً من أن تتأخر، عرضت عليها أن تأخذ حذائي، رفضت بإصرار، قالت: ستظن أُمي الظنون، وكادت تبكي من الخوف والغضب، حتى إذا تعبنا من البحث، أرسل ولداً صغيراً يحمل رسالة كتب فيها:

– «استعدي للمستقبل. ستضطرين للانتظار فترات أطول، واعلمي أن أكثر الأماكن سرية هي الأماكن المكشوفة! الحذاء على الشجرة مقابل الباب تماماً».

كانت الضحكة تختلط بالدموع الصغيرة عندما التقطت هدى الحذاء، واستغربنا أننا مررنا بالقرب من الشجرة عدة مرات، ونحن نبحت، وأرغمتمني هدى على الذهاب معها لكي تؤكد لأُمها أنها كانت عندنا!

رحلت هدى الآن، أصبح لها ولدان وعالم جديد، ورجب يعتبر إنها انتهت، ماتت إلى الأبد. الأحلام التي كان يغزلها يوماً بعد آخر، لحظة بعد أخرى، تنتهي دفعة واحدة!

لا أعرف أن كانت سخرية أم شيئاً آخر، كلمات هدى وهي تدعوني إلى حفلة الزفاف، فبعد انقطاع دام أكثر من شهرين، جاءت. كانت تحاول أن ترسم على وجهها ظلاً حزينا، لكن هذا الظل اختفى خلال الدقائق الأولى. بدأت تتحدث عن الأشياء التي اشتريتها، والحياة التي تنتظرها، ولم تنس أن تتحدث عن خطيبها. قالت: عيونه كبيرة، طويل، ورغم أنه صغير في السن، إلا أن شيئاً جليلاً يملأ فؤديه. قالت هذا وهي تضحك بلذّة.

هل نسيت رجب تماماً؟ أكاد لا أصدق، إذ لا يمكن أن تستبدل حياة سنوات بتعبها وخوفها وأحلامها، بلذّة موهومة.

وجهي اكتسب وجوماً وكآبةً لاحظتهما هدى عندما كانت تتحدث. حاولت أن تتراجع احتراماً لذكرى رجب، أو شفقة على عجزه وهو يتطلع إلى السقف في سجنه الأسود.

قلت لها وأنا أضرب الطاولة الصغيرة، وأجرحها بكل كلمة:

— مبروك عريس الهنا يا هدى، لكن اسمحي لي أن أقول بعض الكلمات، قد لا تعرفين أن لي أخاً سجيناً، أخاً اسمه رجب، وما دام يتلوى من الألم والعذاب، لا أسمح لنفسي أن

أرقص على أشلائه!

وصمت تاركا لنفسى أن تستمتع بلذة التشفى، حتى إذا
رأيت وجهها يفيض بالحقد والعذاب معا، قلت بهدوء:

— لن أحضر زفافك يا عزيزتي!

التقينا بعد ذلك، كانت لقاءات شديدة الألم ويخالطها الحسد،
من جانبي على الأقل. كانت هكذا في البداية، ولكن والأيام
تمر فتغير الناس والأشياء، تغيرت، هدى، أصبحت غير التي
كانت من قبل. وبدأت أحارب طيفها وأبعده بعبارات قاسية
لكي لا يعاودني من جديد، وصمت أكثر من قبل، كي لا
أترك البرودة تتسلل إلى رجب، عندما يخرج من السجن، ولا
يجدها تنتظره.

الآن يقول أشياء خطيرة، كان يريد أن يتحدث عنها بعد
خروجه من السجن، لكن خفت عليه، أبعدت الطيف أكثر من
السابق، ورأيت كآبة خرساء ترسم على وجهه، عندما أحدثه
عن أمور بعيدة!

الآن وهو بعيد آلاف الأميال يستطيع، يتجرأ، أن يقول ما
لم يستطعه حين كان ينظر إلي. لا يعرف هدى التي تعيش
الآن، يعرف واحدة أخرى بهذا الاسم كانت جميلة، وكانت لها
عيون خضر، وابتسامة شديدة الروعة، وكانت تحبه...

... يتذكر هذه، وهذه ماتت منذ سنين، لكنه لا يريد أن

يعترف.

ينتابني الخوف في بعض اللحظات، بل وأحس الأرض تحت أقدامي تهتز. أن حالة مثل هذه يمكن أن تغير العالم، ولا تبقى شيئاً مثلما هو الآن!

لو قرأت رسالته قد يعترئها الشحوب، يأكلها الندم، وقد تفعل شيئاً لا يمكن أن تفعله إلا المرأة التي تحب. وما يدريني إذا كانت مستعدة لأن تترك زوجها والطفلين وترحل وراء ذلك التائه!

ورجب أعرفه أكثر مما أعرف هدى، اذ بمقدار ما يبدو عصبياً نزقاً، ويتصرف تصرفات شديدة البتر، مهما ترتب عليها من نتائج، فإنه هو نفسه الوديع الذي ينسى كل شيء في لحظة ويعود طفلاً.

لن أترك الأمور تسير بهذا الاتجاه. ليق كل واحد منهما في مكانه، والأيام وحدها هي التي تمزق الحنين واللوعة، وتخلق مكانهما حجارة يابسة صماء.

لن أكتب له عنها أبداً، سأغرقه في عالم آخر: شوق الأطفال والطبيعة، شوقي وحامد إليه، وسأذكره بأصدقائه والأفكار التي كانت تشغله قبل أن يدخل السجن. أما عن هدى فلن أحدثه أبداً!

صمت رجب، لم يكتب كلمة واحدة طوال شهر. بدأ القلق يتحول إلى هواجس تحاصرني في كل وقت، ويبدو أنني أصبحت مزعجة لجميع من حولي. الأولاد ينظرون إلي بتساؤل حزين، وحامد انتقل من السؤال إلى الرجاء. ورغم كل شيء لم أكن أعرف كيف أتصرف. كانت فكرة واحدة تسيطر علي: أن أرى رجب، أن أسمع صوته. قلت لحامد وأنا أمسح دموعاً خنقتني ذات ليلة بعد حلم رأيت فيه أمي تضحك وتضحك، كأنها بلهاء، وأمامها رجب تشير إليه أن يأتي.

قلت لحامد بعد أن أيقظته من النوم:

— يجب أن نفعل شيئاً، رجب بحاجة إلينا ولا يمكن أن نتركه يموت هناك وحيداً!

قال لي وهو يستدير لينام من جديد:

— نامي الآن.

ولما رأيته ألهج عليه، أستند بكوعيه على الوسادة وسأل بعذاب:

— ماذا نستطيع أن نفعل؟

قلت والدموع تسبقني:

— افعل أي شيء، رجب يموت الآن!

— لماذا هذه الأفكار السوداء؟ لأنه لم يكتب؟

– لا.. لأنه يموت، أنا متأكدة إنه يواجه الآن مصاعب تبدو معها أيام السجن وكأنها لا شيء.

قال لي وهو يعتدل وراحة يده تمر على رأسي وتشد شعري بنعومة:

– كفى يا أنيسة، غدا ستأتي منه رسالة وتتأكدين بنفسك.

– ولكن منذ شهر لم يكتب!

– ربما شغله عنا شيء.

– أي شيء يمكن أن يمنعه من الكتابة؟

– لا أعرف... ولكن يجب أن ننتظر ونرى.

قلت له بيأس:

– حامد.. ماذا لو اتصل بوزارة الخارجية، وتطلب اليهم أن يبلغونا شيئاً عنه.

– نامي الآن، وفي الصباح سنرى!

حصل هذا بعد انقطاع شهر من الرسائل، كنت أفكر طوال الليل والنهار، وأبذل جهوداً كبيرة لكي أبدو طبيعية ومتناسكة، ورغم أنني أخفيت مشاعري، ولمت نفسي على لحظات الضعف التي كانت تدفعني للبكاء، فلم أستطع أن أحتمل.

قلت لحامد في ذاك الصباح الباكر، وأنا ألبس ثيابي واستعد

للخروج:

— سأذهب بنفسي إلى وزارة الخارجية لأسألهم.

قال بعصبية يائسة، وكأنه لم يحتمل تصرفاتي وإلحاحي:

— سننتظر بضعة أيام، فإذا لم تأت منه رسالة، ذهبت بنفسي.

بعد ثلاثة أيام جاءت رسالته.

لا أحد يصدق أن كلمات، مجرد كلمات، يمكن أن تغير الإنسان إلى هذه الدرجة. ترك حامد العمل أثناء النهار، وعاد إلي بالرسالة. ما كدت أراه يلوح بها من الباب حتى أصابتنني قشعريرة لذيدة أقرب إلى النشوة. كنت أريد أن أتأكد من وجوده، ولا يهمني بعد ذلك أي شيء. هيأت لنفسي أن أقبل مرضه، تعاسته، ضجره، يكفي فقط أن يكون حيا الآن، وأي شيء أثناء الحياة يمكن أن يداوى، الموت الشيء الوحيد الذي لا دواء له، وما دمت أرى رسالته فما زال حيا إذا!

كان فرح حامد بالرسالة يفوق فرحي. رأيته يتابع يدي المرتجفتين وعيني اللتين امتلأتا بالدموع، ظل صامتا ليري، وقع الكلمات. رفعت إليه وجهي أكثر من مرة، لأرد على ابتسامته الصغيرة المشفقة، سحب مني الرسالة قبل أن أكملها، وهو يقول:

— أبلغوني أن أراجعهم غدا، لا أعرف ماذا يريدون وماذا

أفعل؟

كان يجب أن يسحب الرسالة، لأنني لم أستطع القراءة أكثر،
ولم أعد بحالة أستطيع معها فهم معنى الكلمات أو أن أتشرب
لذتها، نظرت إليه بيأس وأنا أقول:

– لا يتركون الإنسان يفرح دقيقة واحدة!

قال بطريقة لم أعودها منه:

– لم نعد نسأل عن الفرح، كل ما نتمناه أن يتركونا بسلام!

– وما تظن أنهم يريدون الآن؟

– في أحسن الحالات تهديد وإهانات، طبيعي ليس لديهم
غير الأشياء السيئة.

– وماذا ستفعل؟

– سأذهب، وسنرى.

ارتمتي على المقعد وكأنه لم يعد قادرا السيطرة على جسده،
كان متعبا وأقرب إلى الذهول، قلت أشجعه:

– لا داعي للتشاؤم قبل أن نعرف ماذا يريدون!

– هل تتصورين أنهم أصدقاء يريدون أن يسألوا عن
صحتي وأحوالي؟

صمت، لم أكن أدري أية كلمات يمكن أن تساعدني. كنت
أفكر بالأيام التي عشناها والتي نعيشها، برجب السجين،

برجب المسافر، بالرسالة والمستقبل، مرت في ذهني سيول الصور، وكأنها أشباح تتراقص. قال حامد يخاطب نفسه، ولا يهमे أن سمعت أو لم أسمع:

— هل يمكن للإنسان أن يعيش بهدوء في هذا البلد اللعين؟ لا أحد ينجو، الذي يعمل في السياسة والذي لا يعمل، الذي يحب هذا النظام والذي لا يحبه، بلد مجنون ويجب أن يدمر!

وصمتنا كلانا. طوى الرسالة، ووضعها على الطاولة الصغيرة، وأشار إلى ختم المراقبة وهو يبتسم. نظرت دون أن أجيب. إنهم لا يقرأون الرسائل فقط، إنهم يقرأونها بتحد، يقولون بصوت حاد: لقد قرأناها، نحن نقرأ كل شيء!

أصبحت الحياة عارية لدرجة أن الإنسان بدأ يخاف من نفسه، يظنهم موجودين دائما، حين ينام، ويحلم، حين يسير بالشارع بل وحين يموت.

أتذكر حامد وهو ينتفض غضبا ذاك المساء، بعد أن ماتت أمي بيومين. اقترب منه رجل لم يره من قبل، ظنه يعزيه بوفاة أمي أول الأمر، ولكن وجده يسأله: من ذاك الذي يجلس في الزاوية؟ ومن ذاك الذي كان يجلس هنا قريبا من الشباك؟

أجابه حامد عن أسئلته، لكن ما كاد يسأله مرة ثانية وثالثة، حتى انتفض حامد من الغضب، وكادت تتطور الأمور، ولولا أن الرجال الموجودين سحبوا المخبر، وقالوا له لا يليق أن يسأل حامد بالذات، والأفضل سؤال أي إنسان غيره. وأشاروا

عليه بمرارة وسخرية أن يرتكز إلى عمود النور في زاوية الشارع، ويطلب هوية كل قادم جديد!

سألت حامد وهذه الصورة تمر في رأسي:

– ماذا نستطيع أن نفعل؟

– لا أعرف، حائر تماما.

قلت بصوت بدا لحامد حزينا:

– الحياة هنا لم تعد تطاق، ولكن أين نذهب!

قال بغضب، كأنه يقاوم لحظات الضعف التي يحسها تنبع من داخله:

– ليفعلوا كل ما يستطيعون، سنبقى هنا، نحن كباقي الناس، وما يصيب الناس يصيبنا، هذا كل شيء!

لما خرج بدت لي خطواته صارمة متحدية، ولكنها بدت ثقيلة أيضا. أن الهم، الأفكار السوداء، الانتظار، تتعب الناس أكثر مما تتعبهم مواجهة المصاعب. وهؤلاء الأبالسة يريدون أن يقتلوا الناس قبل أن يقبضوا عليهم.. «تعال بعد عشرة أيام»، «تعال في بداية الشهر»، «تعال دون أن تقول لأحد، إذا قلت لأحد فسوف ترى!». .

كان رجب في السجن مستقرا، أو هكذا كان يبدو لي. لم ألحظ في وجهه علامات القلق والتساؤل. لم أره قلقا ونادما

مثلاً أرى حامد الآن، لقد واجه الحقيقة دفعة واحدة. وانزاع في السجن مثل الزاوية، ولم يعد ينتظر شيئاً أسوأ. حامد الآن لا يعرف ماذا ينتظره. مجرد أسئلة؟ سجن؟ سيقى حتى نهار الغد، التاسعة من نهار الغد، يفترض أسئلة واحتمالات ويجب عنها، إلى أن يسمع بأذنه الكلمات اللينة التي تنطقها أفواههم المرتخية، وربما دون اهتمام!

كنت أفكر مع حامد، وكنت أنتظر خروجه بلهفة لكي أعود لرسالة رجب. كنت قلقة وفرحة في نفس الوقت، مثل طفلة تريد لعبة وتخاف أن تفقدها، تريدها وتريد غيرها. لمحت فقرات في الرسالة، ولكن لم يترك لي حامد أن أتملاها، أو أن أفهمها. الآن يمكن قراءة كل كلمة، سأقرأها، مرة، مرتين، وحتى تترسخ في ذاكرتي كأنها مكتوبة منذ الأزل.

قرأت كلمة «مراقبة» على غلاف الرسالة مرة أخرى، بدت لي الكلمة متوحشة، من أعطى لهؤلاء الناس أن يقرأوا أعز الكلمات وأكثرها قداسة؟ ما يهمهم أن يقول رجل لامرأة: احبك؟ ما يهمهم أن يقول الإنسان أحب وأكره؟ ورسالة رجب السابقة هل قرأوها؟ وهل عرفوا هدى؟ ماذا لو استدعوا هدى؟ لو سألوها؟ كان من الواجب ألا يكتب عنها، ألا يذكرها. وهل يسألون حامد عنها غداً؟ وحامد ماذا سيقول؟ يجب أن أجد طريقة لأخلص حامد، لأن أدفع عنه الحرج وهم يسألونه. سأقول له أن هدى التي يقصدها رجب هي ابنة عمتي، وتسكن في الريف. ولكن هؤلاء الأبالسة يعرفون كل شيء،

وقد تحتوي سجلاتهم أسماء أقربائنا، أسماء أولادهم وأصهارهم. وربما أسماء الكلاب وباقي الحيوانات، أن كانت للكلاب والحيوانات أسماء!

ورجب.. ألم ينتبه بالنسبة لهم؟ نشروا اسمه في الجرائد كلها، والذين لم يقرأوا الجرائد تكلفت عناصرهم أن تنقل الخبر إليهم. ظلوا يلوكون اسمه حتى تمزق... ولم تبق امرأة في الحي إلا وسألتني! نساء الحي كان يعرفن، ولكن كان يروق لكل واحدة أن تسال، أن تسمع بأذنيها وتتلذذ.

ولم يتركوا رجب. أنهم يلاحقونه الآن، يقرأون رسائله، وغدا إذا عاد سيسألونه من تكون هدى؟ أليس هذا اسما مستعاراً؟ ألا يكون رمزا لشيء ما؟

آه لو أن رسالة رجب لم تأت، بعد الانتظار الموجه، تأتي كلماته لتزيد عذابي. تحدث في رسالته عن الجو الموحش الذي يعيش فيه، البرد، الضجر الأمطار الغزيرة، الثلوج، والناس بوجوههم المغلقة وسرعتهم!

بعد فترة طويلة من الحديث عن الجو الأسيان المعذب، يقول إنه لم يتسن له حتى الآن الدخول إلى المستشفى. عليه أن ينتظر ثلاثة أسابيع أخرى. وبيع الغموض، يقررون فيما إذا كان من الضروري دخوله أم يكتفون بالعلاج الخارجي! اطلعوا على التحاليل، ووصفوا له دواء بصورة مؤقتة، لكن ذكروا أن عليه إجراء سلسلة من الفحوصات

الجديدة، وان ذلك لن يتم إلا في بداية الأسبوع الثالث. يقول كان من الواجب أن اتصل بإدارة المستشفى قبل سفري، وان أرسل التقارير الطبية، وبعد دراستها يقررون الشيء المناسب، هل علي أن أسافر، وفي أي تاريخ. أخطأت أني لم افعل ذلك، تصورت الأمور هنا وفي بلادنا متشابهة! هنا كل شيء بنظام، بمواعيد سابقة، ويبدو أنهم لا يكتفون بالفحوص الأولية، قالوا أني احتاج إلى ثلاثة عشر فحصا، لا أعرف أية كميات من الدماء ستمتلئ بها الأنابيب، وأية أوقات ومشاكل سأواجه.

الداء ينهش الآن، ينغل في دمه، وحيد هو الآن ووجوه البشر تعرض عنه، لا تراه. كيف يأكل؟ كيف يقضى أوقاته؟ هل يتحدث مع أحد، ليتني كنت معه، كان من الواجب أن يسافر معه أحد. كيف تركناه يذهب وحيدا؟ لو كان سليما قويا لما ندمت لحظة واحدة. كان في السجن مع بشر يعرفهم، يتحدث، يضحك، ينام دون خوف. أما هناك فإنه وحيد لدرجة لا تصدق. لو لم يكن متألما لما كتب عن ذلك، اعرف مدى احتماله وصمته، كان إذا مرض، حتى حين كان صغيرا يجبر على نفسه، لا يظهر ألمه، لا يتشكى. كانت تستيقظ أمني وتراه يكابد الآلام دون صوت. رأته مرة والعرق يغسله، فصرخت حتى أيقظت الجيران. وكان يعاند ويقول أن ألما بسيطا في أمعائه، وسيزول!

آه لو كنت معك يا رجب.

توقفت طويلا وأنا أتصوره في فندق كئيب ينظر إلى
السقف طوال ساعات النهار وجزءا من ساعات الليل، حتى
تنتهي الأسابيع الثلاثة ويستقبلونه في المستشفى! ماذا لو أن
حالته لا تحتمل؟ هل يموت قبل أن تنتهي هذه الأسابيع؟ أكاد
لا أصدق!

لو أن الرسالة انتهت عند هذا الحد لقلت لدموعي أن تكف،
ولكن الفقرة الأخيرة كانت بائسة وموحشة حتى تصورت
نفسي أنني أجرمت كثيرا بحق رجب...

كان من الواجب أن أحارب رجب على جبهتين اثنتين:
جبهة هدى وجبهة أمي. كنت أتصور رجب يفهم الموت بشكل
واقعي، يفهم أن مرض أمي لا شفاء منه، وكان من المتوقع
أن تموت، وهي بعد ذلك امرأة بدأت تتقدم في العمر. ومثل
كل المسنين الذين يعانون من مرض القلب سيأتي يوم تموت
فيه. ورغم الحزن والشعور بالغصة، فإن أي إنسان يفهم هذه
الحالة بشكل واقعي، ويتصرف بعقل بعد أن تزول لحظة
الكآبة.

هكذا كنت أفترض وأنا أقود رجب إلى المقبرة. قلت في
نفسي يجب أن يزور قبرها، ليتأكد أن الإنسان مهما طال به
العمر سينتهي ذات يوم، ولذلك حاربت على جبهة هدى
وحدها، كنت أريده أن ينساها بسرعة، ولا يفكر فيها أبداً، لكن
رجب يفاجئني الآن، يذهلني، أكاد لا أصدق هذه الكلمات

الحزينة، خاصة وأنه يكتبها من هناك!

ظننت في الليلة الأخيرة أن بكاءه كان تطهيراً أخيراً لروحه، لأن أي إنسان يموت، لا ينتهي بنظر الذين يحبونه إلا إذا غسلوه بالدموع، الدموع هي ذرات التراب الأخيرة التي تجل الميت وتقول إنه انتهى.

تركته في الليلة الأخيرة يبكي لكي يلقي عن كتفيه العبء الذي حمله سنوات، وتصورت أن بكاءه ذرات للتراب التي ينثرها على قبر أمي، لكنه الآن يفاجئني. يقول «قبر أمي يا أنيسة.. لماذا تركتموه شقياً منبوذاً هكذا؟ ألا تعني شيئاً بالنسبة لك؟ يجب أن تعرفي تماماً إنها تعني لي شيئاً كثيراً، كثيراً ومتزايداً، ففي كل يوم جديد أراها تشمخ وتكبر، حتى أنني لا أبالغ إذا قلت لك إنني أراها أكثر حياة الآن من أي وقت سابق».

«أنت لا تعرفين أنني كنت أزور قبرها كل يوم. لم أقل لأحد، وحتى وأنا أكتب إليك الآن، أبدو متردداً حزينا، وقد يدفعني التردد والحزن إلى تمزيق هذه الرسالة».

«كل ما أريده منك يا أنيسة أن تبني قبر أمي. لن يكلف كثيراً، وإذا لم تفعلني، وفي وقت قريب، فسوف يقتلني الحزن. كنت أريد أن أكفر وأنا أبكي فوق قبرها. كنت أعفر وجهي بالتراب وأصرخ، لعلها تسمعني وتغفر لي. والآن، ومن مكاني البعيد، لا أنام قبل أن أوجه لها رسالة، رسائلها إليها

صغيرة، بسيطة، ولا تتعدى طلب الغفران. أتمنى لو كنت قريباً الآن وأزور قبرها. اعلمي من أجلي شيئاً يا أنيسة، ولا تحكمي العقل في هذا الأمر أبداً، إنه أمر يخص القلب، ويجب أن لا تفسره لغة العقل».

«ملاحظة: رجاء، في حال إتمام بناء القبر، اتركوا الشواهد خالية دون أية كتابة، أريد أن أنظم بضعة أبيات من الشعر، وأفكر بأشياء أخرى!».

سيقتل رجب نفسه. حمل معه قبر أُمي ورحل. لماذا كنت ساهية عنه طوال الفترة الماضية؟ كان إذا يخرج كل يوم ليزور قبرها! زارها عشر مرات، وأنا لا أدري! كم كنت غبية. كنت عمياء وغبية، وإلا لماذا لم أفطن له؟ لا أصدق، لا أتصور إنه فعل ذلك، ربما الغربة والوحدة أوحتا له بهذه الأفكار الحزينة، ولكن كلماته لا تحتل الشك، إنها بسيطة صادقة، وكأنه لا يخاف أبداً أن يقرأها غيري، بل ويشتهي أن يقرأها الآخرون كنوع من التكفير، يريد أن يبدو عارياً، لم يعد يهمه أي شيء يقال! أية حياة جامحة الروعة والشقاء عشناها معاً؟

كنا صغاراً لما مات أبي، لا.. رجب وحده الذي كان صغيراً. أسعد كان رجلاً كبيراً، ولم يبق معنا إلا سنة بعد وفاة أبي، ثم ذهب، ظل أسعد في نفس المدينة، ولكن قال لأُمي ذات يوم، وهو يحمل أشياء ويرحل:

— ما دمت في هذا البيت فلن أفتح بيتا ولن أتزوج. كل ما
احصل عليه تأكلونه، تشرقونه ولا يبقى منه شيء!

تذكر أُمي هذه القصة، وتضيف: لو إنه اكتفى بذلك لما قلت
شيئا، ولما حزنت، لكنه قال كلمة مشؤومة، وهذه الكلمة
حفظتها جيدا، ولن أنساها حتى أموت. قال الخنزير: لو كنت
أصب نقودي في بالوعة لامتأت!

بدأت أُمي تخطط الثياب، كانت تخطط الثياب ونحن ننام، بعد
أن تنتهي من أعمال البيت الشاقة، كانت تقوم بأعمال لا يقوم
بها الرجال. كانت تبني سور البيت إذا تهدم، تكسر الحطب،
تنقله إلى الداخل، كانت تزرع بعض الخضروات وتعتني
بالدجاج، فإذا انتهت التفتت إلى ثيابنا، تقلب البالي، تجده،
ترقع بعناية إله كل خرم، ترفو، حتى إذا اطمأنت إلى ثيابنا
ونظافتنا وأكلنا، ولم تعد لنا أية طلبات، تحولت إلى ثياب
الجيران، تسهر الليل لكي تنتهي منها بسرعة وتحصل على
غيرها. لم تكن تشكو، ولم نسمع منها كلمة شتيمة، حتى جاء
يوم قالت لي بنعمة رقيقة، حاولت كثيرا أن تدخلها إلى قلبي
مباشرة:

— تعلمت بما فيه الكفاية يا أنيسة، ما رأيك لو ساعدتني في
الخیاطة، حتى يأتي ابن الحلال؟

ظلت صامتة، لا أعرف كيف أجيبها، كانت تستطيع أن
تقرر وحدها، ولم تكن بحاجة لكلماتي، قالت تتابع كلماتها

الحزينة، لكي لا تتركني مترددة:

– يجب أن نعمل، أنا وأنتِ، من أجل أن يتعلم أخوك، إذا لم تساعدني، فسوف نضيع كلنا.

كنت موافقة، كنت راضية، لكن صمتي، الذي خلفته حيرتي دفعها لأن تقول بعض الكلمات:

– ما كنت لأطلب منك، لو أن عيني تساعداني.

وبكت وهي تضيف بصوت مرتجف:

– لم أعد أرى يا أنيسة، عميت، لا أعرف كيف ادخل الخيط في الإبرة. إذا ظلت وحدي فسوف نموت من الجوع.

وقضينا خمس عشرة سنة لم نفترق خلالها. كانت تساعدني في كل شيء، تقوم عني بكل الأعمال التي تستطيعها، ورغم إنه تخلل الخمس عشرة سنة مشاحنات كثيرة بيننا، إلا إنها لم تدم أكثر من ساعات. لا أتذكر أنني نمت ليلة دون أن أحس برضاها يغمر البيت كله.

وخلال هذه الفترة، كان رجب سلوتنا الوحيدة. كنا نذوب من أجل أن يكبر بسرعة، ويصبح رجل البيت. وحتى لما كان صغيرا كانت أمي توحى لي كل يوم، أن في بيتنا رجلا أكبر من كل الرجال. ننظر إليه بلذة وهو يصنع طائرات الورق، ونستجيب عندما يلح على أمي بأن تصنع له كرة من الخرق، كان يريد لها كبيرة مشدودة ومستديرة تماما، ومن أجل أن

تكون كذلك، تظل أمي تشدها بين يديها بصعوبة، وأجاهد لكي أسيطر عليها بالإبرة، وبعد أن تنتهي، يرميها بغضب: «انظري.. ليست مستديرة تماماً، إنها مستطيلة، أنها رخوة». ونعيد خياطتها من جديد حتى يرضى!

كنا نرقبه كل يوم. لم أكن أراه يكبر أبداً، وفي لحظات كثيرة أضيّق بتصرفاته وأغضب، وأمّي إذا جرى الحديث عنه، وكثيراً ما كان يجري، تقول لي وكأنها تتحدث عن إنسان لا أعرفه:

— آه لو تتذكرينه لما كان صغيراً، كان طوله لا يزيد عن يدي من هنا إلى هنا، وتشير بيدها، ورغم صغره يملأ الدار صراخاً وعريضة. لم يكن يبكي كثيراً، لكن إذا بكى لا أحد يصدق أن هذا الصوت يصدر عن هذا المخلوق البائس الصغير. أجل كان عنيدا منذ صغره!

وتستريح أمي في أحضان الذكرى، ثم تعود لتواصل الحديث بلهجة جديدة بعد أن تتلمظ:

— الآن، لا يزعج أحداً. إزعاجاته قليلة، ولا تُقاس بالسابق، ومع ذلك يجب أن نتحمّله، إنه حنون يا أنيسة، ألم تريه كيف اشترى لنا قطعتين من القماش من قروشه التي جمعها قرشا فوق آخر!

وتمر الأيام، وعلاقتنا تمر معها في الدهليز المعتم، لتخرج في النهاية إلى الضوء المشع الجامح. أصبحنا أكثر من أخوة،

أكثر من أصدقاء، كان يبوح لي بكل شيء، حتى خصوماته الصغيرة التي لا يتعدى عمرها يوماً واحداً. وعندما بدأ يقرأ، بدأ مجنوناً، كأنه اكتشف القراءة صدفة، واكتشفها وحده دون مساعدة أحد.

بدأ يقرأ دون توقف، وكلمات أمي، وهي تلح عليه أن يقوم ليأكل، أو أن يتوقف عن القراءة بعد أن صاح الديك ولم يبق أحد ساهراً، كانت كلماتها تذهب هباءً، ولم يكن يستجيب إلا إذا خانه السهر أو انتهى الكتاب.

كان إذا انتهى من قراءة الروايات، التي تسميها أمي روايات اللصوص وقطاع الطرق، يلقيها بعيداً، وكأنه يتخلص من عار أو من شيء كريه، ويقول لي بصوت حالم:

— أنيسة.. هذه الرواية رائعة ويجب أن تقرئها!

— ولماذا رميتها بهذا الشكل؟

— لأنها جيدة ولا أطيق أن تظل بين يدي.

— لماذا؟

— لأنني سأبدأ أقرأها مرة ثانية.

— ولكنك انتهيت الآن من قراءتها.

— أستطيع أن أقرأها مرة أخرى، هل تراهنين؟

— لا أراهن.. ولكن من العبث أن يقرأ الإنسان رواية

مرتين.

– إذا كنت لا تريدين أن اقراها مرة أخرى، اقرئيها أنت.
بالتأكيد سأقرأها.

ويمضي اليوم الأول، ولا أقرأ إلا صفحة أو صفحتين، فإذا
سألني أقول له: لم يبق لي إلا صفحات قليلة. ويبدأ يسألني،
واخلج لأنني لا أفهم شيئاً مما يتحدث عنه، حتى إذا اكتشف
كذبي قال لي بصوت أحسه لرجل كبير، مثل أب:

– أتحبين أن نقرأها معاً؟

– اتركها لي، غدا سأقرأها عندما تكون في المدرسة.

– وإذا جئت ولم تنتهي منها؟

– افعل ما تشاء!

– لا... أريد أن أبدلها.

وتذهب رواية لتأتي أخرى، وأنا لا أستطيع أن أقرأ إلا
القليل، حتى إذا رأني كسولة ملولة، اقترح علي أن نقرأ بعض
الفصول بصوت عال، أنا أقرأ فصلاً ويقرأ هو فصلاً آخر،
ولكن لم تجد محاولاته كلها.

ظللت أتابع قراءاته دون أن اشتراك فيها، حتى جاء ذلك
اليوم، الذي بدأ يخفي فيه الكتب عني. اكتشفت ذلك صدفة، بدأ
يغلف الكتب أثناء قراءتها، لكي لا أرى عناوينها، وبدأت

اللهفة تأكل قلبي لاكتشف عالمه الجديد.

منذ ذلك الوقت، بدأت رحلة الخطر.

أخفيت عن أمي الأمر وقتاً طويلاً، وأخذت أتجنب الحديث عن رجب، لأن أي حديث عنه سيجرني بشكل أو بآخر، للنقطة الخطرة التي بدأت أخاف منها وأحميها، ولا أريد لأمي أن تقترب منها أبداً، لكن محاولاتي لم تلبث أن اصطدمت بالأوراق التي يضعها تحت الفراش، تحت السجاد. كانت تأتي بها أمي والاستغراب بملأ وجهها:

– أنيسة وجدت هذه الأوراق تحت الفراش.. ما هذه الأوراق؟

– أوراق رجب يا أمي!

– ولكن ما فيها؟

– دروسه، وأشعار يا أمي..

– وهذه الصورة؟ وهذا.. أي شيء هذا؟

– أشعار يا أمي.

وتنظر إلي باستغراب، وأهرب من نظراتها، لكن لم يطل الأمر.

سألت أمي رجب عن ورقة قلت لها إنها قصيدة، انتزعها من يدها بغضب وأخفاها بسرعة، ولما ألحت عليه لتعرف،

قال لها:

- هذه تمارين رياضية!
- ولكن أنيسة تقول إنها أشعار.
- وهل رأتها أنيسة؟
- أنا التي قلت لها، أنا التي سألتها!
- ومن رآها غيرها؟
- لا أحد..

وبدأت أمي تعرف!

كانت أيامنا تلك الفترة مشحونة بالخطر والانتظار. رجب يغيب عن البيت أوقاتا طويلة، وبعض الليالي لا نعرف أين ينام. وأمي لا تنام حتى يعود، وفي محاولة لإقناع أمي، لكي لا تسأله، أو تضايقه بدأ يدفعها لكي تسير في طريق الجلجلة، كما كان يقول ويضحك. بدأ يعطيها أوراقا ودون كلمات كثيرة، وبعينيه أو بطريقته عندما يضغط على يدها، يطلب منها أن تخفيها في مكان أمين، وبعد أن تعودت إخفاء أوراقه، دون احتجاج، دفعها لأن تحمل الصليب، كان يطلب منها أن توصل بعض الأوراق لأصدقائه، أو أن ترشد رجلا يأتي إلى بيتنا، ولم نره من قبل، إلى بيت صديق.

وتزوجت، انتقلت إلى بيت جديد، وظلت أمي في بيتنا

الأول. لكن هذا لم يستمر طويلا. فبعد أن صار رجب يغيب عن البيت فترات طويلة، ويسافر، لم نجد وسيلة إلا أن تنتقل أُمي للسكن معنا، وأن ننتظر نهاية ما لهذه الحياة القلقة المكهربة.

كنا نخاف عليه، ونحاول، أنا وأُمي، أن لا نتكلم عن المستقبل، ولا أن نتذكر قصص السجناء والقتلى، وحامد صامت لا يتدخل ولا يسأل.

هكذا بدأت الأمور، وهكذا انتهت.

رجب الآن بعيد، يأكله السأم، ويعذبه الانتظار. ولا أعرف إلى متى سيطول غيابه؟ وإذا عاد فكيف يبدأ من جديد؟

أتمنى لو نستطيع أن نهرب من هذا البلد، ولكن إلى أين؟ وهل الأماكن الأخرى تستقبل لاجئين يبحثون عن الحرية ولقمة الخبز؟ والحرية والخبز، هل يوجدان في الأماكن الأخرى وهل يعطونهما للغرباء؟ وقبر أُمي؟ لقد ولدنا في لحظة شقية. وما زلت إلى الآن أتذكر كلمات أُمي، وهي تردها بمرارة:

— ما بال الدنيا تغيرات! أيامنا كان الناس يحبون بعضهم ولا يبحثون عن الشقاء! الآن الأخ لا يعرف أخاه، كل واحد يا نفسي. ليس هذا كل شيء، القتل، والسجون، يأخذون الرجال ولا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى. الدنيا في نهايتها، ولا يمكن أن تبقى هكذا.

ورحلت أُمي وتركت الدنيا تغور وتجن أكثر من قبل. ولا يعرف إلى متى أو إلى أين؟ لا لن أقول لحامد كلمة واحدة. لا أريد أن أتدخل، أن أقنعه بشيء، ليتصرف كما يريد. ورجب هل ساعدته؟ هل قتلته؟ لا أعرف.

بعد أيام قليلة أصبحت الصورة واضحة.

حامد يشتم ويعربد، منذ أن عاد ذلك اليوم. قالوا له «ستدخل عوضا عنه إذا لم يعد خلال شهر من الآن، وإلى أن يأتي يجب أن تذهب كل يوم ثلاث مرات لتوقع بالحضور في مركز الشرطة». لما حاول أن يسأل، أن يعترض، قالوا «لا نريد أن نتكلم كثيرا. رجب الذي كفلته لم يرسل لنا أية رسالة منذ أن سافر. ليس هذا كل شيء، وإنما بدأ يتصل بالطلاب ويحرضهم ويشتم الحكومة، وسيدفع ثمن هذا غاليا».

ولم يقتصر الأمر على ذلك.

في السكون الميت الذي يسيطر على كل شيء، انطلقت رصاصات وقتلت أمجد وثلاثة آخرين، قالوا: أنهم حاولوا الهرب. وكتبوا: «حاول الحرس إلقاء القبض على المجرمين، ولكن المجرمين الذين حاولوا الفرار استعملوا أدوات جارحة متعددة في ضرب الحرس، أدت إلى جرح ثلاثة، جروحهم خطيرة جدا، وعلى اثر ذلك تبودل إطلاق النار فسقط أربعة من السجناء قتلى، وجرح سبعة من رجال الشرطة. وقد بدأ التحقيق لمعرفة أسباب الحادث، وسوف تذايع التفاصيل في

وقت لاحق!». وقت لاحق!

ولم يذكر شيء بعد ذلك، لم يعد لديهم ما يقولونه، لأن الحياة اضطربت مرة واحدة، على اثر المظاهرات التي بدأت منذ يوم الاثنين، ويبدو إنها لن تنتهي بسرعة.

هل أكتب لرجب؟ وإذا كتبت هل يتركون رسالة تحمل أخبارا خطيرة تصل إليه؟ وماذا سيقولون لي والحمد؟ وعن أي شيء يمكن أن أكتب، عن أمجد؟ عن المظاهرات؟ عن حامد الذي يبدأ بالشتيمة، قبل أن يغادر البيت بساعة، لكي يذهب إلى مركز الشرطة؟ أن حامد الآن يجتاز لحظات صعبة. لو كان رجب هنا لحدثه عن ذلك، لقلت له كيف أني أسمع حامد في الليل وهو يشتم الحكومة والنظام، وكيف يشد قبضته ويهدد.

أصبحت أخاف كثيرا هذه الأيام. أحس الدنيا تغلي وتكاد تحترق، وأشكر الله أن رجب بعيد، لو كان هنا لفقدته، لأخذه، وربما يقتلونه هذه المرة. أعرف رجب، لا يمكن أن يبقى في البيت، ولا يمكن أن يسكت، وهم ليسوا بحاجة إلى أدلة، لديهم منها الكثير! وحتى في مرضه وغربته يلاحقونه. يقولون إنه يشتم، يحرض الطلبة، أنهم يكذبون، يريدون أن يبقوا حامد رهينة، حتى يتعاون معهم رجب أو يعود!

سوف أترك حامد يتصرف، أشعر أني مريضة، وأفكاري وتصرفاتي غير متزنة، وكثيرا ما أندم على كلمة أقولها!

قلت لحامد والدموع تنهمر من عيني دون إرادتي:

— ألا ترسل لرجب برقية تطلب منه أن يعود؟

— لماذا؟

— لكي تنتهي من هذا العذاب الذي يسببونه لك كل يوم!

— وهل تتصورين أنهم سيتركونني بعد الآن؟ أول أمس عندما ذهبت في المساء لمركز الشرطة رأيت واحدا منهم، قال لي وهو يسحب الدفتر الذي أوقع فيه، يراجع ليتأكد:

— اسمع يا حامد، الأخبار التي تصلنا عنك، تجعل وضعك خطيرا، بدأنا نسمع أن لسانك لم يعد يدخل حلقك، وأنت تقول كذا وكذا، لا نريد الآن أن نحقق، ولكن انتبه.

هذا ما قالوه أول أمس، ويبدو أنهم لن يتركوني بعد اليوم، لن يتركوني إذا جاء رجب أو لم يجيء!

ولكن كل ما يفعلونه بسبب رجب للدفاع عن أنفسهم، لقد بدأت الأمور تتضح لي أكثر من السابق!

كتبت رسالة قصيرة فكرت أن أرسلها إلى رجب. حاولت أن أقول له كلمات ذات معنى، ولكن لما انتهيت من كتابتها مزقتها أول مرة، ومزقتها في المرة الثانية، ويبدو أنه لن يقرأ هذه الرسالة، وحتى لو قرأها لن يفهم منها شيئا.

قلت له أن يعود بسرعة، وحالما ينتهي من العلاج، وعللت

ذلك بالشوق الذي أحسه أنا والأولاد نحوه، ولم أذكر اسم حامد. وقلت أن العناية في المستشفى مهما بلغت فلن تصل إلى مستوى عنايتي.

هل سيدرك رجب ما أردت أن أقوله؟ ولماذا لم أقل لحامد عن هذه الرسالة؟ والآخرين أتبدو لهم عادية لدرجة انهم سيقولون لأنفسهم امرأة تكتب لأخيها المريض؟ تكتب له عن شوقها وشوق أولادها إليه، وعن العناية.. والأكل.

أحس تغيرا في كياني لم أحس بمثله حتى عندما كنت حاملا. حملت أربع مرات، وفي المرات الأربع، كان الجنين في بطني وهو يتحرك، يغير مشاعري، يجعلها مضطربة وخائفة، ولكن لم أحس أن شيئا في يموت. هذه المرة أحس أن شيئا يموت، كنت وأنا أعاني من القيء وأوجاع الظهر، أعطي الحياة مخلوق جديد، أدفعه بقوة نحو النور، لكي يصبح كيانا له عيان وابتسامة. الآن أحس أنني أتحمل القيء والأوجاع، أفقد جزءا من نفسي، جزءا لا عيان له ولا ابتسامة، تسيطر علي لحظات من الخوف أقرب إلى الفرع، فأتصور أن الدنيا تهتز، تنتهي.

هل مات رجب؟ هل بدأ يعاني من مصاعب جديدة؟

وحامد إلى متى يتحمل نتائج أعمال غيره؟ لقد هدته السنوات الخمس، تحملها بصمت، وكنت أتصور إنه بمجرد خروج رجب من السجن، ستبدأ حياتنا التي طالما انتظرناها.

لكن يلوح لي الآن إنه لا حتى لنا حتى في أن نأمل، أن ننتظر. سوف ننتهي كمخلوقات فاقدة كل شيء: الحرية والمستقبل والأمل.

إذا جاءت رسالة جديدة من رجب، فسأقول لحامد بإلحاح أن يبعث إليه يطلب منه أن يعود خاصة إذا كانت صحته تحتل!

الأيام تمر. مجموعة من الأيام الكئيبة، تتراكم فوق بعضها، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي ومتى! رجب بعث ببطاقة من مرسيليا، بطاقة غامضة أقرب إلى الإنذار، لم يذكر عن صحته شيئاً، وقال إنه يسافر لمدة أسبوع، وسيكتب بعد ذلك.

أين تسافر يا رجب؟ وماذا بقي لتفعله؟ إلا تستطيع أن ترأف بنا؟ ألا تفكر كيف نعيش هذه الأيام الصعبة؟ يجب أن نعرف، لن أكتب، لن أقول لك كلمة واحدة، ولكن يجب أن نعرف دون كلمات، كما كانت أُمي تفعل.

كانت أُمي تنخرط في البكاء فجأة، ثم تنوح، كما لو أن رجب مات. فإذا تعبت من البكاء تصلي ركعتين وتدعو الله. كنت أسمعها تدعو وأنهم: «يا ربي ليس لي غير هذا الواحد، الشيطان وسوس لي أنهم قتلوه، وأنت مالك الملك، ألطف به، ارحمه، إنه وديعة عندك».

كانت الأفكار تتوالد في رأس أمي، مثلما تتوالد نباتات السرخس، كانت تتوالد باستمرار، دون أن يقول لها احد!

وكانت تتراءى لأمي، في دوامة الحزن، أشياء كثيرة: «رأيت مناما، يا أنيسة، رأيت رجب عريسا. طنت إذني اليسرى يا أنيسة، لا بد أن رجب يواجه مصاعب، ألا تظنين ذلك؟ قلب الأم لا يخطئ، قلبي يقول أن رجب مريض».

وأنت يا رجب ألم تر حلما؟ وأذنك اليسرى ألا تزال تستقبل الأصوات دون ذلك الطنين الذي يوحى بمصيبة ما؟

قبضوا على حامد. أوقفوه أربعة أيام، وقالوا له بسخرية: «مقدمة، فكر وارجع بعد أسبوع» ماذا يستطيع حامد أن يفعل؟ هم تركوا رجب يرحل، وافقوا على سفره، حامد لم يفعل أكثر من أن يوقع على ورقة، قالوا إنها لا تعني شيئا، ومجرد استكمال للشكليات. أبرزوها له، قالوا: «هذا التوقيع أليس توقيعك؟» لماذا ينكر؟ إنه توقيععه. وقع وهو يبتسم، دون خوف. والآن يقولون «ابعث لرجب أن يأتي. ليس هذا كل شيء، إذا أرسلت له مالا تقضي في السجن عددا من الأيام مساويا للأموال التي ترسلها. نريده أن يعود، وليس أمامه إلا أن يعود إذا لم ترسل له مالا!»

وأنا ماذا أستطيع أن أفعل إزاء عناد حامد وردوده الحازمة؟ يقول بعصبية:

— هم الذين سمحوا له بالسفر، وهم دولة، ليحضره أن

كانوا قادرين. ليس لي علاقة منذ بداية الأمر. أما المال، فأنا لا أرسل له من مالي، أرسلت له جزءاً من ثمن الدار التي تركها له أبوه!

— والى متى سنبقى بهذا الشكل يا حامد؟ كل يوم في مركز الشرطة، كل يوم توقيف وسجن؟

— اسمعي يا أنيسة، أصبحت القضية قضيتي، بالنسبة لي مسألة كرامة، لم أكن أتصور أنهم لهذه الدرجة من الخسة. كانوا يبتسمون عندما وقعت الورقة. كانوا فرحين وقالوا له كلمات عادية. الآن يريدون أن أقع في المصيدة، بدل رجب حامد، وحتى لو لم يكن رجب، فإنهم قادرون على اختراع ألف قضية!

وحامد لا يكتب إلا ما يريد، يقول لرجب، لا تهتم من ناحية المال، سأدبر لك ما تحتاجه. اعتن بصحتك وعد حالما تجد أن عودتك مناسبة، اقصد من ناحية صحتك، وعندما يقرأ هذه الجملة، يتوقف عندها ويغمز بعينه ويضحك، يريد أن يفهم رجب بسرعة ما قصده!

قلت له وهو ينتزع مجموعة من الأوراق النقدية، ويرسلها مع صديق لكي تحول من خارج البلاد:

— ولكن سوف تنتهي، يا حامد، ستنتهي ذات يوم، كيف نستطيع أن نؤمن له المال، بعد ذلك؟

– لن ينتهي المال خلال فترة قصيرة، وحتى لو انتهى،
أستطيع أن أدبره له!

– من أين؟ كيف؟

– وضعت جزءا من نمى ببيتكم في صيدلية، عند صديق،
والربح، وبعض الديون الصغيرة كافية!

– وإذا سجنوك؟

– قلت لصديقي أن يحول له مبلغا كل شهر، سواء كنت
موجودا أو لم أكن، وقد أعطيته العنوان.

– ولكن يجب أن يعود.

هكذا كانت الأيام تمر، ورجب لا يكتب إلا رسائل قصيرة
متباعدة، ولا يذكر شيئا عن عودته. كتب أن صحته تحسنت،
ولكن بحاجة إلى مزيد من العلاج، إنه مضطر للبقاء فترة،
وفهم حامد كلماته ولم يعترض.

ومهما ضاقت الدنيا ومهما صغرت، فإن فيها شقا ينفذ منه
النور ويحمل الهواء. فبعد المظاهرات التي انفجرت قبل
شهرين، وراح فيها العشرات من القتلى والجرحى، يبدو أن
الانفراج الذي بدأ قبل عشرة أيام سوف يمتد ويستمر، رغم
تشاؤم حامد وشتائمه.

قالوا له: «سنطلب إليك أن تراجعنا في وقت آخر، لا
نريدك أن تأتي بعد اليوم لمركز الشرطة». ورغم إلحاحي أن

يبعث برسالة يؤكد على رجب بالعودة، فإنه يهز رأسه دلالة
الرفض، ويقول وقد تخللت عينيه تلك النظرة الماكرة اللذيذة:

— لن تطول هذه الفترة، كل الذين أعرفهم يقولون إنها لن
تطول، رغم البيانات والكلمات الكبيرة، ورغم الحكومة
الجديدة، فإن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه، وربما أسوأ،
وخلال فترة قصيرة!

لا أعرف كيف يفكر حامد، لماذا يتطلع إلى الأمور بهذه
النظرة المتشائمة، ولكن يبدو أن الرجال لا يحبون الأيام
السعيدة، ولا يحبون الراحة، يفتشون بالإحاح عن المتاعب
والشقاء. فحامد الذي ظل صامتا طوال خمس سنين، يتحول
الآن إلى رجل أكاد لا أعرفه. بدأ يستعمل كلمات قبيحة أقرب
إلى الشتائم. في حديثه العادي، بدأ لا يتكلم مع الناس إلا في
السياسة، ولا يكتفي بذلك، فرجب وهو يسافر يودع روحه
التي حاصرها خلال سنوات السجن في حامد، لا أظن أنهما
تحدثا، أو اتفقا على شيء، فهؤلاء الرجال يفهمون بعضهم
بطريقة سرية وغامضة، وإلا كيف تفهم الأمور وكيف تفسر؟

رغم القلق الذي لا يتركني لحظة واحدة، والذي يدفعني لأن
أفكر برجب مثلما كانت أُمي تفعل، فإني الآن أخصص جزءا
من وقتي للعناية بالأولاد، وأرقب حامد وحياته الجديدة، كما
أحرص على زيارة قبر أُمي كل أسبوع، بانتظار أن يبعث
رجب بالكلمات التي يريدها، ولكنه لم يعد إلى ذكر الموضوع

بعد تلك الرسالة التي أرهقتني أياما طويلة، ودفعنتني لأن ألج على حامد حتى إنه بنى القبر خلال ثلاثة أيام.

ذات مساء، بعد الغروب بساعة، وكان المطر يتساقط ويولد في النفس ذكريات مدفونة في أعماق القلب، طُرق الباب، كانت طرقات ناعمة، خجولة ولا أعرف لماذا تراءى لي طيف رجب، نظرنا في وجوه بعضنا بتساؤل لم يكن فيه اثر للخوف الذي تعودناه، كلما سمعنا طرقا على الباب بعد الغروب.

قام حامد ليفتح، وتراكم الصغار خلفه كالقطط، أما أنا فقد أحسست أن قلبي تزداد ضرباته مع اقتراب الخطوات نحو الباب، حتى إذا انفتح، وبان لي وجه غريب تحت النور، أجفلت وقلت في نفسي: لقد جاءوا مرة أخرى!

رأيت حامد يطلب منه أن يدخل، كان طويلا، وقد زاده المعطف الطويل ضمورا، فبدا أقرب إلى الدمية وهو يخطو خطوات واسعة ويتلفت. كنت في لهفة لأن أعرف أي شيء عن الرجل، خاصة، وان كلمات حامد القليلة لم تكن تحمل حرارة أو اهتماما، بل وكانت أقرب إلى البرود. لم يمض وقت قصير حتى جاء حامد. رأيت ابتسامة صغيرة تطفو فوق وجهه، ولم يتركني أسأله، رفع رسالة مطوية ولوح بها في الهواء، ثم قال:

— رسالة.. هل تعرفين رسالة من أين؟

خطفتها دون أن أجيب، لم أخطفها، وإنما اقترب مني لكي يتيح لي أن التقطها بسرعة، وبيد مرتجفة حاولت فتح الغلاف فتمزق، واللهفة ما تزال مثل خيط النار تدفعني لأن أعرف شيئاً. قال حامد وهو يلتفت ليرجع:

— أريد أن أقرأها، افتحيها على مهلك!

رسالة من رجب. ولكن لماذا بعثها هذه المرة عن غير طريق البريد؟ هل فيها أخبار سيئة، وجاء هذا الرسول لينقلها؟ وماذا لو كان مريضاً وبعث إلينا أن نحضر، أن ننقله قبل أن يموت؟ لا يمكن أن يلجأ رجب إلى مثل هذه الطريقة لو لم يكن مضطراً، لماذا أعذب نفسي بالأسئلة والأفكار؟ لأقرأ الرسالة.

كانت ليلى تقفز حولي، تسألني بالإحاح عن الرسالة، أما الأولاد فقد سمعت أصواتهم وضحكاتهم حول باب الغرفة التي يجلس فيها حامد وضعيفه، لم انتبه لشيء لما بدأت عيوني تقفز بسرعة فوق الكلمات، أريد أن أفهم، أن أعرف شيئاً عن رجب:

«العزيزة الغالية أنيسة..»

لأول مرة، منذ سنوات، أحاول أن أكتب بحرية. لا أفكر أن أكتب بحرية كاملة، لأن هذا مستحيل، ولكن بحرية أكثر من أي وقت سابق.

لا أعرف كيف استغل الحرية المتاحة إلى الحد الأقصى. أريد وأخاف. ليس في ذهني أفكار محددة أريد أن أقولها، والأفكار التي أحبها أخاف أن أقولها.

قبل كل شيء صحتي ليست سيئة، أحسن من قبل بكثير، ولكن النظام القاسي المفروض علي يجعلني أحس وكأنني إنسان هش، أو بالأحرى إنسان مؤقت. إذا اختل نظام العلاج يوما واحدا تعرضت لنكسة وربما لفترة طويلة، لذلك أتبع الآن بصرامة نظاما قاسيا، أشعر أنني لا أستطيع أن احتمله ولكن سأحاول.

هذا ما ينبغي أن تعرفوه الآن، ولكن ما يهمني ويشغل تفكيري كثيرا، أمور أخرى قد لا تخطر على بال.

يشغلني الآن يا أنيسة أمران: الأول أن أكتب والثاني أن أسافر إلى جنيف.

لا تستغربي ولا تقولي الكلمات التي طالما رددتها من قبل. كما لا أحب أن أدافع عن نفسي. الكتابة لمن ومتى؟ هذا سؤال لا أعرف له إجابة. أفكر أن أكتب أشعارا وروايات، ولدي أفكار كثيرة، ولكن ما أرغب فيه شيء جديد تماما. فكرت في الطريقة ولم أستطع أن أصل، وما أزال أفكر. يبدو لي أن الشعر لا يمكن أن يكتبه إلا إنسان واحد، لأنه سيل من الأحاسيس الداخلية، في لحظات هاربة، فإذا لم يستطع الإنسان السيطرة على هذه اللحظات، توارت وانتهت، هذا ما توصلت

إليه. الشيء الذي لم أستطع أن أتوصل إليه الآن، كيف يجب أن تكون الرواية. أريدها أن تكون جديدة، بكل شيء: أن يكتبها أكثر من واحد، وفيها أكثر من مستوى، وأن نتحدث عن أمور هامة والأفضل مزعجة، وأخيرا أن لا يكون لها زمن...

من الصعوبة أن أنقل أفكاري إلى الورق، لو كنا نتحدث الآن معا لفهمت ما أريد أن أقوله بسهولة أكثر. اسمعي: أريد أن نكتب معا رواية، ومن نحن، ليس أنا وأنت فقط، بل وأريد أن يكتب الصغار. لو كتب عادل بعض الأشياء، وتركناها على بساطتها وصدقها، ولو كتب حامد، ولو كتبت أنت، ثم اكتب أنا بعد ذلك، لو هذا الشيء حصل، ضمن إطار ما، فإن ما نكتبه معا، سيكون شيئا جديدا وجميلا. ماذا تقولين؟ وحتى لا نضيع في دوامة قد لا نخرج منها، فمن الضروري أن تحدد موضوعا ونكتب فيه. التعذيب مثلا، كيف تتصورين الموضوع؟ كيف يتصوره إنسان من الخارج؟ وليس أي إنسان، إنسان له علاقة بشكل ما، في مستوى ما.

طبيعي يجب أن يكون الموضوع امتدادات كثيرة ومتباينة: الذكرى، الأحاسيس، العلاقات وغير ذلك. وطبيعي أيضا أن ننظر من زوايا مختلفة. هذه الزوايا المختلفة ضرورية لكي نرى الشيء من جميع جوانبه، فإذا ارتبط الموضوع أيضا بالأزمان العديدة، أصبح شيئا جديدا. مثلا: كيف يتصور عادل، وكيف يتصرف، وماذا يتفرع عن ذلك؟ وحامد وأنت

وأنا. إذا نجحنا في أن نحاصر موضوعا معيناً، من هذه الزوايا، يمكن أن يكون موضوعاً ناجحاً. لست متأكداً ولكن هذا ما أتصوره، أو بالأحرى ما أطمح إليه.

لمواجهة الاعتراضات، علينا أن نتبع البساطة ونعترف. الاعتراف، بالكلمات العادية الصغيرة، يلزم كل واحد أن يقول كل شيء بغض النظر عن القواعد، وما يتفرع عنها من وجود إمكانية أو خبرة سابقة. وبهذه الطريقة ننتهي إلى شكل جديد!

هذه هي الفكرة الأولى التي أطلب منك أن لا تتردد في الموافقة عليها. ومع رسالتك هذه رسالة لعادل، لأنه الآن في سن يستطيع فيها أن يقول شيئاً، ولا تتدخل لمساعدته إلا في أضيق الحدود. ورسالة أخرى لحامد. لو كانت أُمي موجودة لاستطاعت أن تقول شيئاً مهماً وكان الموضوع في النهاية مجنوناً ورائعاً!

الفكرة الثانية التي تشغلني الآن، إلى جانب الرواية، أو الطريقة الجديدة في الكتابة، هي فكرة السفر إلى جنيف وتقديم مذكرة أو لوحة عن العذاب اللاإنساني الذي يواجهه السجناء السياسيون في الوطن.

أعرف أن الفكرة خطيرة ونتائجها غير مضمونة، لكن يجب أن يُعمل شيء من أجل الناس الذين يعذبون ويموتون.

لا تستغربي إذا قلت لك، أن أهم دافع لسقوطني، لنهايتي، كما تبدو لجميع الناس، وليس لي بالذات، أن أسافر إلى

الخارج، خاصة إلى جنيف، وأن أقول كلمات للناس، كلمات لا تهدف إلى التأثير العاطفي، وإنما إلى فعل شيء غير محدد.. الكلمة ليست السلاح، ضمائر الناس، عقولهم، واجبهم، السلاح الحقيقي.

لست متأكدا مما يجب أن أفعله. سأدرس الأمر كثيرا قبل أن أفعل أي شيء، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبرى، جريمة يدفع ثمنها الناس المنفيون على شاطئ المتوسط الشرقي، بتقديري جميع الناس، ولكن أكثرهم السجناء السياسيون.

ماذا بعد يا أنيسة؟

الأفكار أكثر من أن تحصى، الأحاسيس في قلبي تولد العذاب واللوعة، وأي انتظار، أي سكوت مشاركة، بشكل أو آخر، مع الجلادين، صفعات توجه لجميع البشر خاصة للسجناء!

كلمة أخيرة.. كنت أريد أن يكتب على قبر أُمي كلمات لها مغزى معين. فكرت بالأمر طويلا، ولما كان مستحيلا الآن كتابة هذه الكلمات، فلا أقل من كلمة أو اثنتين، لها دلالة معينة.

ماذا تتصورين، هل يمكن كتابة كلمة الوفاء على القبر دون أن تؤدي إلى متاعب أو إزعاجات؟ أتصور ذلك. لو كانت في بلادنا حرية، أدنى درجات الحرية، لكتبت على القبر كلمات

أخرى... «صمود امرأة في وجه الطغيان» أو «صمود عجز في وجه الجلادين» أو «هنا ترقد المرأة التي تحدث الجلادين دون سلاح، سوى الغضب!». .

هذا ما أردت أن أقوله لك الآن. حامل الرسالة سيعود إلى هنا بعد أسبوعين، أرجو أن ترسلني لي أوراقي، والأشياء التي كتبها عادل وحامد، والتي كتبتها أنت، بعد أن أقرأها قد أفكر بكتابة شيء، وقد يكون هذا الشيء مفيداً.

تحياتي الحارة للجميع».

أردت أن أقرأ الرسالتين الآخرين، ولكن الكلمات التي كتبها رجب لعادل، جعلتني اكف وشعرت بالخجل. قال له: «أرجو أن تقرأ هذه الرسالة وحدك، دون عيون الآخرين، خاصة عيون أمك».

كلمات من هذه التي قرأتها؟ رجب؟ وأي رجب؟

كان يحبس نفسه قبل عشر سنين ساعات طويلة في الغرفة الداخلية، ويكتب. ماذا كتب؟ لمن كتب؟ لا أحد يعرف سوى النيران. كان يغرق في عالم الدخان والورق، فترات طويلة، حتى إذا انتهى، يقول لي ولأمي بصوت عالي:

— سأحتفل الآن على الطريقة المجوسية: لقد وضعت في هذه الأوراق أثمن ما عندي، والآن أريد أن أقدمها قربانا للنار!

تمنيت أن أقرأ شيئاً مما كتبه، حاولت، لكن لم أستطع. كان يحرص على أن يقدمها بنفسه للنار، ويظل يتطلع إليها بلذّة وهي تحترق، قلت له مرات كثيرة:

– أنت مجنون يا رجب، وإلا لماذا تحبس نفسك أياماً، ثم تحرق كل ما غزلته؟

كان يتطلع إلي بعيون لا ترى شيئاً، وكأنه يفكر بما كتبه، أو بما سيكتبه، وكان لا يبدو عليه أي ألم وهو يحرق. أما أمي فقد غضبت ذات مرة، وقالت:

– لماذا لا تحرق الأوراق قبل أن تكتبها؟ احرقها دون سهر الليلي ودون كلمات عصبية ترد بها علي عندما أناديك لتأكل أو لتنام!

ولم يجبها. كان يبتسم ويحرق الأوراق.

ظل هكذا سنوات، حفلة كل أسبوع، وأمي تنتظر إلى الرماد يحزن، وتقول لي بصوت فيه رنة استغراب وأسى:

– لا يحرق فلوسه فقط، بل ويحرق أعصابه وأعصابنا، إلى متى وكيف؟ ألا تقولين له شيئاً يا أنيسة لعله يتوقف!

الآن يريد أن نكتب. من نحن وماذا نستطيع أن نقول؟ الرسالة إذا كتبتها إليه أتردد كثيراً قبل أن أرسلها. الآن يدعوني لأن أكتب معه رواية! وعن أي شيء؟ عن هذه الكلمة التي إذا ترددت أمامي مرتين يغمى علي!

ولا يريدني وحدي أن أكتب، يطلب من عادل أن يكتب! لا أريد أن أظن ظنونا سيئة، ولكن أحس إنه يتعذب، يبحث عن شيء ضائع، وقد لا يعرف ما يبحث عنه، وهذا أصعب ما يواجهه الإنسان، وأشد ما يعذبه!

ماذا سيقول عنه حامد؟ وعادل؟ آه لو كانت أمي حية الآن لصرخت في وجهه، لقلت له بطريقتها القاسية والمحبة، لكي لا يعود بعدها للتفكير بمثل هذه الأمور البائسة والسفر إلى جنيف! أن رجب لا يتصرف بعقل هذه الأيام. وأخشى إنه قد لا يجد أحداً يمنعه أو يحذره على الأقل. نريد أن يعود، أن يعود، بسرعة، ويبدأ حياته من جديد. إذا ذهب إلى جنيف، ولا أدري أية مدن عجيبة أخرى، فسوف يخلق لنفسه ولنا متاعب جديدة. وحتى إذا ذهب إلى هناك، ماذا سيجد؟ من يسمعه؟

قبر أمي في مكانه، سأكتب عليه الكلمة التي اقترحها، لا يمكن لأحد أن يعترض، وإذ لم ينتبه أحد لهذه الكلمة، والتي ليس لها علاقة بالسياسة، فلن تفهم إلا على إنها ، كلمة من أبناء أرادوا أن يكرموا أمهم، فكتبوا هذه الكلمة: الوفاء!

سأكتب له رسالة غذا أقول له أننا بحاجة إليه ويجب أن يعود، وسأقول له بصراحة أن يترك فكرة السفر إلى أي مكان ويعود إلى هنا مباشرة!

بعد أن قرأت رسالة رجب مرات كثيرة، كتبت له صفحات كثيرة، لكن لا أعرف أن كان سيقروها أم لا. ولا أعرف أن كنت سأرسلها أم لا؟ قلت له على ورقة صغيرة، وجهتها إليه كرسالة:

«مر علينا عبد الغفور في الأسبوع الأول لوصوله. أعطانا الرسائل وحدثنا عنك، وبعد أيام عاد من جديد، وقال ونحن نشرب القهوة:

— أوصاني رجب أن أذكركم، قال لي لا ترجع إذا لم تحمل معك حزمة من الورق، حزمة كبيرة. أعرف ماذا يقصد، ولكنه أوصاني أن أؤكد عليكم كل ثلاثة أيام، وقبل فوات الأوان...».

«حبست نفسي فترة طويلة يا رجب وكتبت، ولم أجرو أن أتحدث مع حامد كلمة واحدة عن الأمر، رأيته يكتب وقد أخفى الأوراق عندما رأياني اقترب منه. ابتسم لي برجاء ليفهمني أن أتركه. أما عادل، فقد كتب أوراقا كثيرة، ولكنه لا يكتب بضعة أوراق إلا ويحرقها، تماما كما كنت تفعل أنت! حاول أن يقول لي شيئا، لكن في لحظة معينة، شعرت أن الخجل يمنعه.

أنت يا رجب لو كنت هنا لما فكرت لحظة واحدة في الأشياء التي تفكر فيها الآن، أريد أن أذكرك أية كلمة، أي تصرف، ينعكس علينا بشكل مباشر، ولذلك أتوقع أن تمارس

هو ايتك القديمة، مرة أخرى، أن تحرق الأوراق، كآخر قربان مجوسي، وتحزم حقائبك وتسافر، لا إلى جنيف، وإنما للوطن مرة أخرى. وما نتصوره عن سقوطك، عن كفارة تريد أن تقدمها، فإن أفضل شيء أن تأتي. وهذه المرة لن أتدخل، لن أقول لك كلمة واحدة، وأشعر بأسف حقيقي أنني تأمرت عليك خلال الفترة الأخيرة وجعلت حياتك في السجن صعبة.

لا أحب التشاؤم، ولا أنظر إلى الحياة، كما ينظر إليها حامد، فقد تغيرت عن السابق، صحيح أن التغير لا يزال محدودا، وربما لا يلاحظه الإنسان إلا بصعوبة، ولكن يمكن لكل إنسان أن يعيش، ليس ممكنا فقط، بل ضروري. كما كنت أقول لك في رسائلي كلها، نحن بشوق مجنون لأن نراك بيننا... لا تتأخر، تعال، تعال بسرعة!».

-5-

ابتعدت أيام أشيلوس وجفت معها أطياف البشر الذين كانوا عليها. المرأة الطفلة التقت بشابين يسافران إلى بريطانيا، وظلت معهم طوال الوقت، والعجوز التي تعاركت مع بحار في ميلانو وضربته بحقيبة اليد أصبحت النظرات تلاحقها أينما ذهبت، كانت تبدو متجهمة الوجه، غاضبة ولا تكف عن الشتم، وأصرت أن تقف في بداية الطابور لتكون أول من يهبط على أرض فرنسا! أما المكسيكي فقد علق قيثارته في رقبتة وحمل الحقيبتين، كل حقيبة بيد، وكان يغني وهو يهبط سلم الباخرة! عشرات الوجوه انطفأت، ذابت ملامحها في زحام الوجوه الجديدة التي لا تكف لحظة واحدة عن الظهور والاختفاء!

الشتاء القاسي يستلب الإنسان من الداخل، يحوله إلى قسبة مفتوحة، ويدفع إليه، بلا توقف، الأحزان والذكرى والشعور بالتفاهة. استغرب كيف يضحك الناس، كيف يقفزون على رؤوس أصابعهم كأنهم الطيور الفرحة. المسنون.. ألا يموتون هنا؟ كل واحد منهم، يحمل فوق كتفه مئات السنين. يحملها بقوة متباهية، ويسير بها وسط الثلوج والزحام، بلا خوف. وأنت يا بلاد الشاطئ الشرقي، بدءا من ضفاف البحر، وحتى أعماق الصحراء، لماذا لا تتركين بشرك يصلون إلى سن الشيخوخة؟ كانت أعناق الرجال والنساء تلتوي على مهل، ثم تسقط. كانت الحفر الصدئة تستقبل كل يوم عشرات الجثث

التي لم تتح لها حتى فرصة الحلم، حملت معها أحزانها ورحلت. وأنت يا أمي لماذا رحلت قبل أن أراك؟ أنا قتلتك؟ صدقيني أنني لم أقتل أحدا يا أمي، هم قتلوا كل الناس، هم قتلوك. أنهم يقتلون دون رحمة، لكن لماذا يقتلون؟ لماذا؟ لماذا؟

يجب أن أفعل شيئا. قلت لأشيلوس ونحن نبحر بين ميلانو ومرسيليا: أيتها السفينة الصماء المقطوعة الأذان، لا أظنك تفعلين ما يفعله البشر، أنت تمنحين الدفء والفراش، تمنحين الغذاء، ولا تريدين مقابلا. البشر. هناك، ينتزعون من الإنسان كل شيء: الدموع، الرغبة، وحتى الذكريات. أما الأفكار التي تعبر رأسه في الليل فإنهم يريدونها أن تتحول إلى كلمات، إلى أسماء، ومقابل ذلك يمنحون الإنسان الضرب والألم وحنينا موجعا للنهاية والموت!

«من علمك أن تقول هذه الكلمات؟ قل لنا يجب أن تقول».

ونسمع النواح، كان نواحا طويلا تتخلله شهقات الماء الممزوج بالملح وهو ينسكب على الجروح، مثل السكين وهي تنغرز في القلب. نسمع أننا موصول لا نهاية له.

أمين بائع الجرائد، ذو الوجه الفرح والصوت القوي، والذي يبيع أكثر من الباعة الآخرين. كان مع الجريدة الصماء الباردة يبيع الكلمات... كلمات البشرى. أمين أتوا به. كنا نسمع نواحه، ثم أنينه. ظل ثلاثة أيام في زنزانة لا تبعد عنا

أكثر من خمسة أمتار، ثم مات! أمين لا يعرف إلا سلاح الكلمة، يقرأ أثرها في وجوه الرجال، في لهفة أيديهم وهي تمتد إلى جرائده، ومن أجل الكلمة قتلوه. كانت رائحة الزنزانة وهم يفتحونها ليخرجوا جثته، مليئة بالقيء والدم ورائحة الغواط، ومن فتحة القضبان رأيناهم يحملونه: الزرقعة والدم اليباس والكلمة التي انتهت إلى الأبد!

هل تستطيع الكلمات أن تفعل شيئاً؟ هل تخيفهم؟

«أرجو أن تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأن مسؤولية موتي في السجن، تقع عليكم، وأتعهد أن أتوقف عن أي نشاط سياسي». كنت أحس دبيب الموت يسري في جسدي، وعربدت في رأسي تلك الفكرة المجنونة، فكرة أن أقول الكلمات الأخيرة قبل أن أودع هذه الحياة. في السجن لن يتاح لي أن أقول الكلمات التي أريدها، وحتى لو بقيت في الوطن لن يتاح لي أن أتكلم، لم يبق أمامي إلا أن أتعهد وأسافر. كان أمامي المرض، ثم الموت. هل أموت قبل أن أقول شيئاً؟ والتعهد؟ لا لن أعمل في السياسة، لدي ما أفعله في مجالات أخرى، سلاحى الأخير الكلمة لعلها تكون طلاقة الرحمة لي ولهم، ونموت معاً!

دبيب الموت يمد لسانه في دمي، يحول الدم إلى قيح، ويعبر مسامي كلها، حتى إذا وصل إلى رأسي جعل كل ما

أفكر فيه له رائحة القيح ولزوجته!

الآن، وأنا انتظر 22 كانون الأول، موعد دخولي إلى المستشفى، أصرخ من أعماقي صرخات ملعونة يملؤها الوباء: ما الذي دفعني لأن أكتب تلك الكلمات المنحطة؟ ما الذي جعلني أقف أمامهم مثل طفل مذنب، وأقول لهم: لم تعد لي علاقة؟ كنت أخاف من نفسي أكثر مما أخاف من أصدقائي. الآن يتراءى لي كل ما مر وكأنه كابوس لا يرحم.

متى سقطت؟ لماذا سيطرت علي تلك النقطة الضعيفة التي جعلت الأشياء تبدو لي متساوية؟ أمين بائع الجرائد؟ هادي المقتول ونحن نبكيه حول الأرغفة اليابسة وقطعة الجبن؟ أمي التي سافرت برحلة لا تعود منها؟ الدم الملوث الذي يجتازني عشرات المرات كل يوم، في مشوار همجي يدمر في الخلايا والإرادة؟

سيطرت علي بجموح فكرة أن أكتب. يجب أن أقول للناس ما يجري في السرايب، في الظلمة، وراء جدران ذلك البناء الأصفر الذي يربض فوق قلوب البشر مثل حيوان خرافي. الكلمة آخر الأسلحة، لن تكون أقواها، لكنها سلاح الذين تلوثت دماؤهم، ماتت أمهاتهم. سلاح الأطفال الذين يريدون أن يفعلوا شيئاً!

رجب إسماعيل سقط. هذه هي الكلمة الوحيدة التي تفسر النهاية التي وصلت إليها، ولا يجدي أن يقال الآن ظل رجب

خمس سنين، بأيامها ولياليها، وراء الجدران، وانه مر على سبعة سجون، لم يضعف، ولم يعترف. الإنسان محكوم عليه بنهايته. الصمود، الإرادة، كل كلمات المجد المتوردة الوهاجة، تسقط في لحظة النهاية البائسة. ماذا يجديني أن نظرت في وجوههم بتحدي الأبالسة وقوة العناد؟ لقد سقطت، تراجعت السنوات الخمس، الأيام والليالي، لتذوب في الكلمات الذاتية التي كتبتها بيدي. صرخت بئس في وجوههم: أنتم تعرفون أحسن مني أن صحتي تنهار، وأية فترة جديدة أقضيها في السجن، تعجل بنهايتي.

كانوا يعرفون. وإلا كيف تركوني ثلاث سنين دون أن يقولوا كلمة واحدة؟ ظللت وقفا بالنسبة لهم أتنقل من سجن إلى آخر، لم يكونوا يحبون أن ينظروا إلي بعد أن يؤسوا. كان صمتي سلاح الوحيد الذي مزق أحشاءهم. رموني مثل كرة، من سجن لآخر، من غرفة لأخرى، تعبوا وهم يضربونني، وفي السجون البعيدة حلمت، وفي المدن الكبيرة حلمت، وفي الطرق الصحراوية داخل سيارة تشبه علبة السرددين حلمت، لم أترك الوقت يمر دون أن أحلم. كنت أقول في نفسي: سأفضحهم، سأقول للناس، كل الناس، أن البشر بالنسبة لهؤلاء الأبالسة، أرخص الأشياء، أتفه الأشياء.

ومن أجل الكلمة سافرت، ركبت البحر الصاخب في الشتاء الحزين، لعلني من مكان بعيد أستطيع أن أقول الكلمات التي حلمت بها طوال خمس سنين...

والآن، بعد أن حاولت على ظهر أشيلوس الماكرة، وبعد أن حبست نفسي طوال الليل والنهار في الغرفة المستطيلة الكئيبة، في فندق الألزاس، أجد أن الكلمات التي دوت في رأسي تلك الأيام كأنها الحراب المسمومة، أجدها تتحول إلى أصداف فارغة لا تعني شيئاً!

فكرت مائة مرة أن أكتب رواية عن هادي. يجب أن يعرف الناس هادي: وجه أقرب إلى وجوه الأطفال، عينان صغيرتان ذكيتان، وابتسامة لا تموت، كانت ابتسامة هادي مثل الضوء الصغير، تغيب لحظة، لكنها لا تنطفئ.

آه لو كتب أحد عن هادي، لكن من يكتب يجب ألا يكون رجب. سوف يقول للناس، أن هادي جديلة من الصمود، غزلتها الأيام الصعبة والشقاء، ورمتها في وسط الناس كتلة ملتهبة، لا تخبو ولا تتوقف. بدأت أكتب عنه، لكن الخوف الذي بلغ بي حد الفزع، دفعني لأن أحرق الأوراق. قلت لنفسي وأنا أقرأ الكلمات الميتة: ليس الذي أتحدث عنه الآن هو هادي المخلوق الحي الذي كان. ما أتحدث عنه قطعة معذبة، جسد يتلوى، أما الإنسان ذو الابتسامة الصغيرة والإرادة الجسورة، فلم أقترّب منه. وصرخت وأنا أحرق ما كتبت: تخاف أن تفضح نفسك يا رجب. أن تبدو كذابة مقطوعة الأجنحة، لو تحدثت عن هادي بلسان رفاق هادي.

آه ما أتعس الإنسان عندما يداهمه العجز، ويفقد القدرة كلياً

على أن يقول تلك الأشياء التي نامت معه وقامت خلال سنين، الكلمات الشديدة التوهج التي قالها الناس في السجن، دون أن يفكروا لحظة واحدة بالكتابة. كنت أشحن ذاكرتي بتلك الكلمات، لعلها تنزلق يوما على الورق، وتقول للناس أي رجل كان هادي، الآن أشعر بالانطفاء الكامل. هاجرت الكلمات، ابتعدت عني، أصبحت كالخرق البالية، بعد أن كانت في ذاكرتي قبل سنين كالأعلام المشتعلة.

الورقة التي وقعتها، كانت شهادة الوفاة. وفاة رجب إسماعيل، كإنسان، يحلم بأن يكتب.

ليس هادي الوحيد الذي أعجز عن الكتابة عنه. هل أستطيع أن أكتب عن أمي؟ أين أمجد ورضوان وسعيد؟ أين عشرات الوجوه الملوثة بالدم، والتي كنت أجبر نفسي على أن أنظر إليها بشراهة، لكي أتألم أكثر، وأكتب عنها؟ أن هذه الوجوه تنتظر إلي الآن، من سراديبها البعيدة، من قبورها، نظرة سخرية. تقول، تصرخ: لا تكتب عنا كلمة واحدة، اليد الملوثة، القلب الملوث، لا يستطيع أن يكتب!

قلت لأنيسة في الليلة الأخيرة، أن تحدثني عن أمي. فكرت أن أكتب عنها. لما حدثتني وانتهت، بكيت. والآن، رغم الهمهمات البائسة، الخطوات البطيئة فوق خشب الغرفة، الدخان والنظر إلى الشارع، أجد نفسي مسلوبا، وكأنه لم تكن لي أم في يوم من الأيام. أنيسة تستطيع أن تكتب شيئا، حتى

جارتنا أم جاد المولى، تستطيع أن تعيد لها الحياة إذا تكلمت عنها.

كانت كلمات أمي حازمة مثل حبل الحرير، وهي تقول لي بعد أن ابتعدت عمتي: احذر يا رجب، الحبس ينتهي أما الذل فلا ينتهي. لا تقل شيئاً عن أصدقائك. احذر، أسمعني؟

لم أقل شيئاً يا أمي. كلماتك كانت الجسر. نظراتك الصلبة، وأنت تحذرينني، جعلت مني رجلاً طوال خمس سنين. لكن الداء يا أمي. لا ليس الداء. هذه البلاهة الغامضة التي سرت في دمي وقالت لي يمكنك أن تفعل شيئاً غير أن تموت. تصورت السجن يتحول في لحظة إلى قبر، وكنت انتفض لكي لا أظل في القبر، وفي سبيل أن أخرج، دفعت كل شيء. ليس لي جدارة من أي نوع، يا أمي، لأن أقول عنك كلمة.

الأفكار البائسة تهاجمني مثلما يهاجم الجراد الحقول الخضراء. أفكر الآن أن أدفع الآخرين لأن يكتبوا معي. سأقول لأنيسة في رسالة قريبة أن تكتب شيئاً عن تلك الأيام التي سجننت فيها. ماذا قالت أمي؟ كيف تصرفت؟ لن أمد يدي لكلماتها، سأتركها تطفو فوق الورق الأبيض، لعلها تكون رثاء أخرس لتلك العجوز.

أشعر بالعجز، أشعر بالعجز والانهاء! لماذا حملت معك تلك الجيفة يا أشيلوس طوال ثمانية أيام؟ ألم تقتلك الرائحة؟ رائحة الرجل الميت؟ لم أر أحداً غيري على ظهر السفينة

يحمل هذا المقدار كله من رائحة الموت. استرقت النظر أثناء الغناء، وفي صالة الطعام، إلى الوجوه، لعلّي أرى إنسانا يشبه رجب إسماعيل. كانت وجوه الناس مليئة بالذكريات، والمصاعب، لكنها كانت وجوه بشر حقيقيين. كانوا يبذلون جهدا كبيرا من أجل أن يظلوا أحياء. كانوا يسافرون ويتعبون، ثم يجلسون في ظل صالة الطعام وتحت الشرفات ليغنوا. لم أستطع أن أشاركهم سفرهم وتعبهم، مزقتني الرغبة لأن أغني معهم، لكن لم استطع. كنت أنذر نفسي لأن أكتب، وها أنذا الآن في غرفة فندق الألزاس رقم 37، أذرع الأرض، انظر من النافذة، أميل برأسي قليلا لكي أسمع وقع الخطوات في الدهليز، ولا أجد شيئا يمكن أن أقوله! ماذا لو شنقت نفسي؟

في سقف الغرفة، إلى جانب حبل النور المتدلي، حلقة. يمكن أن أمزق ثيابي، أصنع منها حبلا، أقف على الكرسي حتى أسقط الحبل في الحلقة، أمسكه من الناحية الثانية، أعقده، حتى إذا ربطته جيدا، صنعت حلقة في الحبل ووضعتها في عنقي، وفي لحظة ادفع الكرسي وأتدلى... ارتعش في محاولة لأن أسحب الهواء، لأن أرخي الحبل، لكن الفقرات تكون قد انزلقت، وانتهى. ينتظرونني يوما، يوما آخر، وحين يفتحون باب الغرفة يرون الحبل يهتز في الهواء، والجنّة المتقيحة تفوح منها رائحة كريهة. يتركون كل شيء في مكانه، يغلقون الباب بخوف ويتصلون بالبوليس. وفي اليوم التالي، في زاوية صغيرة تكتب الصحف المحلية: رجل أجنبي، في الثلاثين

يقتل نفسه في ظروف غامضة. وأدفن في مقبرة شتائية بعيدة! لا يشيعني أحد، لا يعرفني أحد. أما الحقيبة فإنهم يفتشونها جيداً، إذا وجدوا عنواناً كتبوا إليه، وإذا لم يجدوا وضعها البوليس في المستودع لثلاثة شهور، ثم أعطاها لإحدى الجمعيات الخيرية، وقد تصل ثيابي إلى سجين!

وإذا مت، فماذا سيحل بأنيسة؟ من يقول لها وماذا ستفعل؟ لا أقوى على أن أرفع رأسي، ولا أقوى على أن ادخل الفراش وأنام الآن. هزمت إرادتي، ولن أبقى أكثر من شهور، ثم أموت!

هل يمكن أن ترمم إرادة إنسان لم تعد تربطه بالحياة رابطة؟ أنا ذاك الإنسان. لا لست إنساناً، السجن في أيامه الأولى حاول أن يقتل جسدي. لم أكن أتصور أنني احتل كل ما فعلوه، لكن احتملت. كانت إرادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتردها نظرات غاضبة وصمتاً. وظللت كذلك. لم أرهب، لم أراجع: الماء البارد، ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن. التهديد بالقتل والرصاص حولي يتناثر، ليكن. كانت إرادتي هي التي تقاوم. الآن ماذا بقي في أو مني؟ في لحظات الغضب والتحدي أصرخ: يجب أن أفعل شيئاً، وما دمت فقدت كافة أسلحتي: النظرة الغاضبة، التحدي، الصمت، فلأجرب سلاح الكلمة. لأقل كلمة أخيرة قبل أن أرحل. ولكن الكلمات العاهرة تضيع مني. في الليل، وأنا مفتوح العينين، وأنا

مغمض العينين، أبذل جهدا أخيرا لكي أحاصرها، لكن إذا جلست إلى الطاولة الملتصقة بالحائط، أشعر أن ليس لدي أية كلمات.

ذهبت إلى ثلاثة أو أربعة مقاهي في مرسيليا. ذهبت منذ الصباح الباكر، وبعد أن شربت القهوة على مهل، وحاولت استرجاع الكلمات، بدأت.

الكلمة الأولى عين لص. الكلمة الثانية ابتسامة سخرية. الكلمات الثالثة والرابعة والخامسة شهقات العذاب، في السجن، أيام الشتاء، وأتوقف. أي عبد ذليل أصبحته يا رجب؟ عمن تريد أن تكتب الآن؟ وأية كلمات يمكن أن تنقذ هؤلاء الذين حُرم عليهم كل شيء حتى أن يقصوا أطراف علب السجائر ويحولوها إلى قطع مستطيلة صغيرة، ليرسموا عليها نقطا سوداء، ثم يلعبوا بها! لقد حرّموا من كل شيء. صادروها قطع الخبز التي أصبحت بأيديهم الصابرة يبادق وقلاعا، ليلعبوا بها الشطرنج...

«ألا تعرفون، يا أولاد القحاب، أن اللعب ممنوع؟ وتحتالون؟! تصنعون من لب الخبز أدوات للعب...» ويضربونهم، يضربونهم بالأحذية، بالعصي، يبصقون عليهم، ثم يصادرون كل شيء. ماذا أستطيع أن أكتب لكي أنقذهم!

المقهى، العجائز، العشاق، البحارة، هؤلاء لا يمكن أن يتيحوا لي لحظة أمن تمكنني من الكتابة!

وانتقل إلى مقهى آخر. أفكر في الطريق. أية أفكار يجب أن تكتب، أية كلمات يمكن أن تنقذ أمجد أو إبراهيم؟ وتفترض ذاكرتي كلمات كبيرة مثل مسامير حدوات الخيل، وأدخل المقهى، ومع قدح النبيذ، أمدد أوراقى كمتسول. انظر عبر الزجاج، انظر إلى الوجوه وأخط الكلمة الأولى، وأخط الكلمة الثانية، وتفترسني نظرة جانبية من امرأة مسنة، وهي تراني اكتب من اليمين إلى اليسار، تنظر باستغراب وهي تقلب شفتيها! أريد أن أقول لها أن طريقتنا في الكتابة يا سيدتي وحدها ذات قيمة ولم تتغير، كل شيء عداها لا قيمة له، خاصة الإنسان. الإنسان في بلادنا أرخص الأشياء، أعقاب السجائر أغلى منه! أه لو تنظرين لحظة واحدة في قعر سرداب من آلاف السرايب المنشورة على شاطئ المتوسط الشرقي وحتى الصحراء البعيدة، ماذا ترين: بقايا بشر، ولهاثا، وانتظارا يائسا. وماذا أيضا؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بالنفس والضحكات. لا تستعربي شيئا يا سيدتي، والذي يثير استغرابك الآن، أقل الأشياء إثارة للاستغراب هناك!

واكتب مشروع رسالة لأنيسة بعد أن عجزت عن كتابة أي شيء، أطوي الأوراق، وانظر إلى العجوز والجرسون والزجاج، وتمر أمامي الوجوه: وجوه ضاحكة، يعربد فيها الفرح. وجوه قاسية يعذبها التفكير. وأرى الجرائد، فوق الطاولات، يتناولها الناس بهدوء ويقرأونها ثم يعيدونها، وأرى

شابا له لحية يقرأ كتابا...

وأ تذكر الحاج رسمي أبو جعفر.. ربطوا يديه وراء ظهره،
أوقفوه في ساحة السجن، أمام عشرات السجناء وبدأوا
يسخرون منه:

— مثل أبي هريرة تقول للفقراء أن يثوروا؟ خذ يا قواد، يا
حاج كلب، يا حاج خرا، ويضربونه على وجهه، على رأسه،
على صدره، كانوا يسخرون منه ويضربونه، وفي لحظة
تنبهوا للحيته، كأنهم يرونها لأول مرة. بدأوا يشدونها كما لو
إنها ذنب كلب، ويحني الحاج رأسه، لكي يتجنب ألم الشد. لما
تعبوا، أشعل واحد منهم عود ثقاب وقربه من اللحية الشائبة،
اشتعلت، أصبحت كأنها كرة من اللهب، تناول الثاني سطلا
فيه رمل وقذف وجه الحاج.

بعد أيام والحاج رسمي يجلس في الشمس، كان وجهه
مثيرا للاشمئزاز والأسى: بقع حمراء تنزف ماء لزجا،
وعينان بلا أهداب، والشفة السفلى مدماة.

قال للفقراء ألم تسمعوا أبا ذر الغفاري حين قال: عجبت
لمن يكون جائعا ولا يشرع سيفه!

يجب أن أتوقف عن محاولة الكتابة، بعد أن أخرج من
المستشفى سيكون لدي الوقت الذي يجعلني ابدأ ولا أتوقف.
الآن أمامي مرسيليا كلها يجب أن أتعرف عليها، لأرى
أسواقها ومسارحها وساحاتها، ولأرى بشرها أي بشر هم!

كيف انسقت إلى مواقف غبية وأنا أفكر بكتابة شيء عن التعذيب؟ يبدو لي الأمر الآن غاية في البساطة. ليس مطلوب كتابة قصة، لا، أن الأحداث التي رأيتها، بأية طريقة سجلت، تكفي لأن تكون شهادة إدانة بالموت على هؤلاء القتلة. يجب إبعاد كل الكلمات المبتذلة والالتهامات، ولأكتفي بقول ما رأيته عيناى. لو تم هذا أكون قد أديت جزءا من واجبي، واستنادا لهذا أفكر أن أسافر إلى جنيف لكي أقدم لوحة للصليب الأحمر. أن أسرد على مسامع المسؤولين الأمور التي رأيتها بنفسى، وأطلب إليهم بعد ذلك، أن يرسلوا وفدا للتحقيق في الوقائع. سأذكر لهم جميع الأمور التي مرت علي، والأمور التي حدثني عنها جميع الذين التقيت بهم أو رأيتهم، كما سأذكر لهم أسماء الجلادين والمحققين، وبعد ذلك ليذهبوا ويروا!

لا يهمنى ما سمعته قبل أيام من الطلبة، كانوا ينظرون إلي بارتياح، وقد انفضوا من حولي بسرعة. عجبت في البداية، لكن لم يلبث أن اتضح لي الأمر. فالأشياء السيئة تنتقل بسرعة، أسرع مما يتصور الإنسان! لما ذكرت لهم اسمى، أجفلوا، نظر بعضهم إلى بعض بتساؤل، ثم سألني احدهم بشكل مباشر:

– هل كنت سجيناً ثم أطلقوا سراحك بعد أن نشرت في الصحف..

ولم يستطع أن يقول تلك الكلمة. فهمت ما يريده قبل أن يكمل عبارته، شعرت أن الدنيا صغيرة، أصغر من تلك الغرفة التي كنا فيها أربعة عشر رجلاً. أحنيت رأسي إلى الأرض والأفكار تتراكم كأنها الخيول الجامحة. هل أقول لهم عن مرضي؟ عن سقوطي؟ هل أقول لهم أنني أريد أن أكتب عن التعذيب وأفصح الجلادين؟

كان يجب أن أقول شيئاً. قلت بكلمات متعثرة غير مفهومة:

– أطلقوا سراحني لأنني مريض، وأخذوا الاعتراف بالقوة!

كذبت، كان الكذب الجسر الأخير لنجاة بائسة. لم يستعملوا معي القوة خلال الفترة الأخيرة، كانت الابتسامات تملأ وجوههم وهم يرونني أوقع. أية قوة استعملوا؟

صمتوا. لم يعلقوا بكلمة واحدة. كان بودي لو يسألني واحد منهم. لو سألني أحد لشعرت بالثقة، لقلت لهم كل ما يدور في رأسي، لكن صمتهم اللعين جعلني أشعر بالإهانة، لم يكتفوا بالصمت، انسحبوا واحداً وراء آخر. ظل منهم اثنان، كانا يجلسان بعيداً عني، وقد رأيتهما يتغامزان بطريقة شعرت معها بالإهانة أكثر!

كنت امتلئ رغبة لأن أتحدث مع إنسان، أي إنسان. لو

تكلمت تلك الساعة لقلت كل شيء، لكن أحداً لم يسألني،
ووجدت الرجلين بعيدين وكأن قارات من الصقيع تفصل بيننا.
وحتى لو تحدثت، هل يسمعان؟ هل يفهمان لماذا خرجت؟

سبقتني الأفكار السوداء، كانت تركب باخرة أسرع من
أشيلوس، وانتظرتني في عيون الطلبة وفي صمتهم!

عندما تركت النادي، لم يقلوا كلمة واحدة، لم ينظروا إلي.
شعرت أن عذاب السنين الخمس، الجلد والسجن المنفرد،
وآلاف الشتائم التي إنها لت علي، لا تعادل نظرة صغيرة
تطلق في الهواء للحظة واحدة، ثم تتلاشى!

سقوط الإنسان مثل سقوط أبنية، تهتز في الظلمة، ترتجف،
ثم تهوي وتسقط، ويرافق سقوطها ذلك الضجيج الأخاذ،
ويعقبه الغبار والموت واللعة.

كنت في ظلمة السجن أوداعى، أفكر بالكتابة والعلاج،
أبعدت الفكرة مرة، أبعدتها ألف مرة، لكن نظرات أنيسة،
كلماتها، الأفكار الحزينة التي عبرت رأسي وأنا أرى كل ما
حولي ينهار.. لم يبق في نظري شيء مقدس. ارتجفت وأنا
أوافق، بيني وبين نفسي أول الأمر، ثم بيني وبينهم، حتى إذا
وقعت على تلك الورقة الصفراء شعرت أن كل شيء في
ينهار ويسقط، وسقطت، ورافقت ضجة السقوط موجات
الغبار التي حملتها أفواههم إلى كل مكان، تبشر الناس بنهاية
رجب إسماعيل البائسة!

هل استطيع أن التقي بأحد من الطلبة؟ أن أستعين بهم من أجل المستشفى والعلاج؟ لا لا أريد، فكلمة واحدة تكفي لقتلي، سأذهب بعد غد بنفسى، وسأحتمل وحدي! تراجعت إلى الورااء فكرة الكتابة كما كنت أتخيلها. أما فكرة السفر إلى جنيف فتبدو لي الآن أكثر أهمية، وحالما أنتهي من العلاج وأعود من السفر أقرر ما يجب أن أفعله!

أسبوعان من المراجعة والفحص في أسوأ الأوقات، إذ ما كدت ابدأ حتى بدأت الاحتفالات والعطل. السخرية تتراكم وتطوقني من كل ناحية، أشعر أنني منبوذ إلى الحد الأقصى، واني أعاقب على تلك الخطيئة التي بدأت ذات يوم، ولن تنتهي. إن ما أتلّقه الآن استحققه، استحققه تماما.

قال لي الممرض المكلف بأخذ عينات الدم:

— لقد جئتني في وقت غير مناسب، ألا تعرف أن اليوم هو السبت، وأنك ستنتظر حتى صباح الثلاثاء لكي تحصل على النتيجة؟

هزرت رأسي دلالة المعرفة والموافقة، وشتمت في داخلي! وأخذ عينات الدم بشكل عجول وقال:

— الآن انتهى واجبي!

مرسيليا مثل الدنيا كلها تستعد لاحتفالات رأس السنة. الناس يتراكمون، المحلات تمتلئ بالبشر والأضواء، والثلج

يتساقط ليدفن كل شيء: الماضي والأحزان والأفكار البائسة، وأنا وحدي في مرسيليا الكبيرة لا أشعر بذرة انسجام مع كل ما حولي. خطوات الناس الكبيرة، هرب من الوباء الذي أمثله بخطواتي الصغيرة البطيئة. الأضواء الساطعة تستلقي على وجهي لتفصح ضعفي وخيانتني. وابتسامات العشاق وهم يتعانقون تحت أعمدة النور سخرية كاوية تمزق آخر الأفكار البائسة التي تجول في رأسي!

مرت الأيام بوقعها البطيء الموجه، وبدأت لي أطول أيام عمري، حتى كان يوم 7 كانون الثاني. استقبلني ثلاثة أطباء. امرأة ورجلان. عروني من ثيابي تماما، كنت وأنا أنزع ثيابي أتذكر نوري. كانت الغرفة دافئة، بلونها الأزرق الهادئ، والملاءة الموضوعة على طاولة الفحص نظيفة. شعرت أنني لا أستحق ذلك. يجب أن أتعري في مزبلة. نظرت إلى الطيبة وأنا أخلع قميصي. كانت عيناها محايدتين، ولا تشبه عيون الذين كانوا ينتظرون، ليبدأوا. سألوني عن ماضي، سألوني بنفس العبارات تقريبا، ماذا أقول لهم؟ ما أشد سخرية الكلمات. «حدثنا عن ماضيك». لما رأوا الارتباك في وجهي ولكي لا أضيع قالوا: «عندما كنت طفلا، هل أصبت بأمراض، أية أمراض، هل أنت متزوج؟»

وسألوني عن أمي وأبي. كنت أحيب بارتباك، قلت لهم أن مرض القلب قتل أمي، وأبي مات بسل العظام. وتركت لهم حتى اللحظة الأخيرة المفاجأة التي أردت أن تكون ورقتي

الأخيرة.

كان الصمت يخيم على الغرفة الزرقاء الدافئة، وضربات مطرقة صغيرة تتساقط على ركبتي. انتفضت كرد فعل مبالغ فيه للضربات، جمعت نفسي فجأة وقلت:

– الشيء المهم الذي لم أقله بعد، والذي قد يفسر مرضي، هو أنني كنت سجيناً. سجنّت خمس سنين متواصلة. ليس هذا كل شيء، ففي البداية تعرضت لأنواع عديدة من التعذيب!

كانت الكلمات باردة، أو هكذا بدت لي وأنا أنظر في وجوههم، حتى إذا نظروا إلى بعضهم بدهشة فيها إعجاب..
– كان يجب أن تقول لنا منذ البداية...

ضحكت الطبية باستغراب وبدت في عينيها لأول مرة نظرة أسف حزين.

قال لي الطبيب المسن:

– انهض والبس ثيابك..

تهامسوا، وتحذثوا إلى بعضهم وأنا في الزاوية أو اصل ارتداء ثيابي. أي شيء ظنوه؟ أية كلمات قالوا؟ لأول مرة منذ سنوات أشعر بالفخر. بدا لي السجن شرفاً، بدا لي كبيراً لدرجة أن نظرات الأطباء وهمساتهم كانت تقديراً مباشراً.

لما جلست على كرسي مقابل الطاولة التي يجلس وراءها

الطبيب المسن، استأذنت في أن أدخن، هز الطبيب رأسه بود، وربما فعل الآخرون ذلك، ورد علي بابتسامة وكلمة صغيرة:
- تفضل.

كنت إذاً سجيناً، هذا وحده يفسر مرضي. كانوا حائرين أول الأمر، لكن ما لبثت حيرتهم أن سقطت، بدأت تتلاشى مع دخان سيجارتي المتطاير، اخذوا ينظرون إلي وكأنني دمية من عصور سحيفة. هل يعرف هؤلاء الناس معنى أن يكون الإنسان سجيناً؟ ليس سجيناً فقط، وإنما سجين في تلك السرايب المظلمة الباردة المليئة بالحشرات، وفي فترات الراحة، يتلقى الصفعات ويجلد مثلما تجلد الثيران النابية؟ كنت أريد أن أشعر بميزتي، وأبدو متفوقاً، لكن وأنا أستعيد الكلمات التي أردت أن أقولها، شعرت بالألم، تذكرت الورقة الصفراء المربعة التي امتلأت بالعرق من يدي المرتجفة التي تخط عليها آخر الكلمات..

سألني الطبيب المسن:

- هل تشرح لنا ظروف سجنك؟ أقصد كيف كان السجن، ضمن أية شروط تغذية، وأية شروط صحية؟

الشروط الصحية والتغذية! سخرية أم تساؤل؟

قالوا في النهاية:

- الوضع صعب ودقيق، إذا اتبعت نظاماً صارماً يمكن أن

تعيش دون متاعب أما إذا لم تتقيد.. وصمتوا.

في الصمت النظيف المٌخيم على الجدران والملاءة
والزجاج، جاءني صوت الطبيب الشاب:

— هل أستطيع أن أسأل لماذا كنت سجيناً؟

رأيت وجهه يكتسب حمرة زاهية، تجعله أقرب إلى وجوه
الفتيات الصغيرات. هزرت رأسي بحيرة. لماذا أقول له؟ لو
قلت: كنت سجيناً سياسياً، هل يفهم معنى هذه الكلمات؟ لو قلت
له أنني محكوم إحدى عشرة سنة قضيت منها خمساً، لا لسبب،
سوى أنني أردت، بالفكرة، بالكلمة، أن اجعل حياة الناس أكثر
سعادة، لو قلت له هل يصدق؟ سوف أقول:

صدقني أيها الإنسان الذي تعيش على الضفة الأخرى من
المتوسط، أنني لم أحمل بندقية، ولم أقتل أحداً، ومع ذلك دق
رأسي بالجدران مئات المرات، كما تدق المسامير في أخشاب
السنديان! ودق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سمفونية
العذاب: بعد ذلك ضربوني بالسياط، كنت عارياً لما
ضربوني، كانوا يتعبون من الضرب، كانوا يتناوبون، وكانوا
أقوياء، فإذا انتهى الضرب بدأت النيران تشتعل في جسدي.
كانوا يطفئون السجائر في وجهي، في صدري. وفي أماكن
أخرى. ليس هذا كل شيء، لقد أمسكوا بخصيتي وجروهما،
شعرت تلك اللحظة اني أموت، ثم علقت سبعة أيام في
السقف. كانت يداي مربوطتين بحبل، والحبل يجرنني إلى

السقف، فأوقف على أطراف أصابعي، عندما انتهت الأيام السبعة، كانت ساقي بحجم سيقان الفيل: متورمتين، زرقاوين، ثقيلتين، لا.

لا، لن أحدثك أكثر من ذلك، أن مجرد تذكر تلك الأيام يجعل الإنسان مشوها، حتى أن براعة الطب وعبقريته لا يمكن أن يفعل شيئا. كل ما قلته لك حتى الآن، الفصل الأول، أما الفصول الأخرى، فاعذرني إذا لم أستطع أن أقول لك عنها كلمة واحدة. تحملت التعذيب كله، وماذا تتصور هل صرخت؟ هل اعترفت؟ لا. كنت صامدا، كنت أقوى من الجمل في صبره واحتماله، لكن في لحظة خرساء سقطت. الإنسان الذي تراه أمامك الآن ليس قويا بمقدار ما توهي الكلمات التي تموج في رأسه. كان قويا في فترة ما، ثم سقط، إنها ر دفعة واحدة.

كنت ابتسم ابتسامة شاحبة عندما وقعت شهادة وفاتي.

قلت وأنا أسحب نظري من الطبيب الشاب، وانظر إلى الطبيب المسن:

— كنت سجيناً سياسياً.

ولم أضف أية كلمة. نظر الطبيب المسن إلى الوجوه بأسى، وكأن ذكريات حزينة عبرت رأسه، وقال يخاطب نفسه:

— هذا واحد من شعب سجين.

والتفت إلي وأضاف: لماذا لا يقرأ الجلادون والحكام التاريخ؟ لو قرأوا جزءاً من الأشياء التي يجب أن يقرأوها، لوفروا على أنفسهم وعلى الآخرين الشيء الكثير. ولكن يبدو أن كل شعب يجب أن يدفع ثمن حريته، والحرية، أغلب الأحيان، غالية الثمن!

وساد الصمت. كان قاسيا هذه المرة. قالت المرأة، وكان صوتها مثل شهاب ملون:

— لو حدثته عن أيام المقاومة يا دكتور فالي.

— ليس بحاجة إلى الحديث، ربما يعرف أحسن مني، وإذا كانت المقاومة والاحتلال بالنسبة لنا قد أصبحتا ذكرى وتاريخاً، فإن هؤلاء يعيشون اليوم هذا التاريخ.

ضرب الدكتور فالي الطاولة بالمطرقة، وقام.

كان يتخطى الغرفة، وقد اكتسب وجهه شكلاً عصبياً، أما كلمته فظلت هادئة وهو يقول لي:

— حالتك مقلقة، يجب أن تعرف هذا بوضوح، لا أريد أن أجعلك تخاف لكن التفاؤل يؤدي إلى الإهمال، ولا أريدك أن تكون مهملاً. توقف قليلاً، ثم تابع بصوت منخفض:

— إذا التزمت بالنظام الذي أقترحه عليك يمكن أن تعيش دون متاعب، أما إذا لم تلتزم، فاسمح لي أن أقول، أن أية انتكاسة قد تعرضك للخطر. النظام الذي أقترحه ليس صعباً،

الابتعاد عن الفوضى في الأكل والنوم والعلاقات الجنسية،
وابتسم، وهو يتابع:

– ويجب أن لا تنفعل، أن لا تغضب، أن لا تحزن، كما أن
الفرح الشديد يؤثر عليك! وتغيرت نبرة صوته وهو يقول:
أعرف أن هذه الأمور بالنسبة لك صعبة، ولكن يجب أن
تحاول.

وجلس وراء الطاولة نظر إلي ملياً، ثم قال:

– سأكتب لك الآن مجموعة أدوية، وأرجو أن تحرص
على استعمالها بدقة في مواعيدها، وفي المراجعة الثانية، بعد
أسبوع، سنرى.

لو عرفوا اني سقطت لما ودعوني بهذه الحرارة. وقفوا
ثلاثتهم أمام الباب، بعد أن صافحوني، كانت ابتساماتهم تملأ
وجوههم، خاصة الدكتور فالي، وعندما التفت في نهاية الممر
الطويل، كان الدكتور فالي ينتظر التفتتي الأخيرة، ليرفع يده
ويلوح بها. الدكتور فالي صمد حتى النهاية. وجهه القاسي
وعينه الهادئتان يقولان ذلك، الدكتور فالي والآخرين
صمدوا، وانتصروا. لو عرف لحظة واحدة أنني وقعت تلك
الورقة اللعينة لرفض استقبالي، أو مصافحتي، أتوقعه يقول:
«كيف تستطيع مصافحة اليد التي لوثت دماءك؟ كيف تستطيع
أن تبتسم للوجه الذي كان يتلذذ وهو يسحب خصيتيك؟»

لن أكتب لأنيسة أن حالتي خطيرة، لكي لا تقلق، أما النظام

الذي اقترحه الدكتور فالي، فسوف احرص على أن أتقيد به. لكن إذا كنت قادرا هنا فكيف الحال عندما أعود؟ «لا تتفعل، لا تغضب، لا تحزن». حتى الفرح الشديد حرمه علي الدكتور فالي. كان يسخر عندما نطق الكلمة الأخيرة، هل يتصور أن على الشاطئ الشرقي للمتوسط إنسانا واحدا يمكن أن يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر. حتى الجلادون لا أظن أنهم قادرون على الفرح، أنهم ينامون تحت أقواس من السياط، تحت أشباح الصرخات، يأكلهم الخوف أن تدق أبواب بيوتهم أواخر الليل وينتزعوا من فراشهم، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم!

تأكد أنني لن أفرح يا دكتور فالي. أما الفرح الشديد، فلن يسبب لي الوفاة أبداً. والأسباب الأخرى التي ذكرتها سوف أدرسها واحدا بعد آخر، لعلي أجد لها علاجاً من نوع ما.

الكتابة، هل تحتاج إلى انفعالات؟ إلى غضب؟ ليس ضرورياً أن أسأل الدكتور فالي لأن المحاولات التي قمت بها حتى الآن أدت إلى نتيجة واحدة: سيل من الانفعالات الحاقدة والغاضبة، ولا صفحة واحدة من الكتابة التي أطمح إليها!

والسفر إلى جنيف، هل يسبب لي تعباً؟ انفعالات؟ وإذا قررت السفر، متى يجب أن أسافر؟ كان علي سؤال الدكتور فالي، أن أبحث معه هذه الفكرة بالذات، لعله يكون بالنسبة لي مرشداً أكثر من طبيب، هؤلاء المسنون الذين خبروا الحياة وعرفوا

مصاعبها يمكن أن يقدموا آراء ثمينة!

سوف أسرح مرة أخرى في مرسيليا. سأذرعها في اتجاهاتها الأربعة. لن أترك مقهى، ولن أترك ساحة. سأجلس في المقاهي لأدرس تقاطيع وجوه البشر، تصرفاتهم، ضحكاتهم، وحتى همومهم أريد أن أراها، لعلني أتعلم شيئاً. وباريس، ألا يجب أن أزور باريس قبل أن أعود إلى الوطن؟

«المدن الساحلية، مدن الحرية والعنف»

لا أدري من قال هذه الكلمات، لكنها مكتوبة منذ وقت طويل في ذاكرتي. تصورت أن مرسيليا وحدها لها هذا الطابع، لكن في باريس رأيت أموراً أعجب. الأحزاب لها مراكز مكتوبة عليها الأسماء بوضوح. يدخلها الناس دون خوف. يدخلون دون أن ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع، وبصوت عالٍ. أما الجرائد فإنها تنشر كل شيء: الأفكار وحوادث القتل والطرق الحديثة في العلاقات الجنسية، والناس يقرأون. أما الكتب فلا بد أن الإنسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها، لكثرتها!

على ضفاف السين آلاف الكتب، ملايين الكتب. كانت عيوني تمر على العناوين، وما تكاد تستقر على عنوان، حتى أرتجف، أتلفت، لا أريد أن يراني أحد.

«وجدنا لدى تفتيش بيت الموقوف، الأدوات الجرمية المرفقة...» ويذكرون أسماء الكتب. أه يا أهل باريس، لو جئتم بكتبكم إلى شاطئ المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون. سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب، لأن أية كلمة تجد من يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريباً، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون!

ولكن باريس التي أراها، هل ولدت هكذا؟

باريس المشانق والمقاصل والحصاد، باريس المقاومة، باريس الشهداء، هي التي صنعت الحرية. يجب أن لا أحدث، لم يعد لي بعد أن وقعت تلك الورقة المشؤومة أن أتكلم عن الحرية، عن باريس، عن أي شيء. لو كنت رجلاً لظلت هناك وصمدت حتى النهاية. الكلمات المهترئة، التي ألوكها الآن، فقدت جدارتها، فقدت عنفوانها، تحولت إلى لهاث يشبه لهاث المرأة الشبقة التي التقطتني من الشارع. كنت أخاف وأنا أسير إلى جانبها، وظللت خائفاً حتى لما رأيته عارية ومستلقية على الفراش.

قالت لي:

— ألا تراني عارية، ماذا تنتظر؟

وأشعلت سيجارة ثانية. كنت أريد أن أفعل شيئاً، لكن

الشعور بالعجز جعل الفكرة ترتد إلى داخلي مثل موجة النار. كنت أخاف من الفشل، من السخرية، أردت أن أقول لها أنني مريض، أو متعب، لكن الكلمة الوحيدة التي سمعت نفسي أقولها:

— أنا لست رجلاً!

وصمت. كنت أريد في تلك اللحظة أن أنهشها بأسناني، أن أركلها، أن أقبلها، أطفأت السجارة بعصبية ونهضت لأنصرف، قالت بلهجة شعرت معها أنها قتلتني:

— قبل أن تذهب، اقترب مني لأؤكد! دعني أرى بعيني ويدي، لا أصدق.

لو كانت معي الآن صديقة من نوع ما لسرنا في باريس مثل الذئب، نخيف كل من يرانا بقوتنا، بالتصاقنا المذهل.

باريس لم تُخلق لي، لا أستحق شيئاً في باريس، حتى الماء الذي أشربه يبدو لي أكثر مما أستحق. بعد غد أعود إلى مرسيليا لأرى الدكتور فالي، يجب أن أبقى معه فترة طويلة لأسأله عما يجب أن أفعل في فرنسا من أجل الناس الذين ينامون الآن في السجون.

أحببت فالي كثيراً ووثقت به.

وجنيف؟ هل تستقبلني وتستمع إلي؟ وإذا استمعت ماذا يمكنها أن تفعل؟ لا، يجب أن لا أكون متشائماً، فالعالم هنا

يفهم ويستجيب، وربما استطعت الوصول إلى نتائج لا أتوقعها.

سيضح العالم كله عندما يستمع إلى قصص العذاب التي لا تتوقف، في الليل والنهار، على الشاطئ الآخر. كيف يمكن للإنسان أن ينام وأصوات الضحايا لا تكفي لحظة واحدة عن النواح والأنين؟ لا يوجد هذا النوع. لا احد هنا يستطيع أن ينام، أن يأكل، أن يضحك، والناس هناك سيكون بصمت ويموتون، سوف ترتفع ملايين الأصوات، في نشيد واحد مخيف، تطلب إنها ء «الحفلات» المستمرة.

نوري لا يعرف للتعذيب غير هذا الاسم. كان يقول وهو يطعم الطيور، ينظر إليها ويتحدث معي:

– اعترف. أقول لك اعترف يا ابن القحبة، لقد أتعبتني حفلة الأمس. إذا لم تتكلم، فسوف أنادي عبد وتبدأ الحفلة، ماذا تقول؟

سأقول لهم في جنيف أن السخرية بلغت بالجلادين درجة أنهم يطلقون على التعذيب اسم الحفلات، وما دام الأمر هكذا فيجب على الصليب الأحمر على المؤسسات الإنسانية الأخرى، أن تفعل شيئاً من اجل إنها ء الازدراء والقهر والموت!

كان الدكتور فالي وحده هذه المرة. لما دخلت أغلق الباب بالمفتاح، وقال وهو يبتسم:

— شكرا لله انك جئت في الوقت المحدد، نستطيع الآن أن نتحدث، أريد أن أسمع كل شيء عن الاعتقال والتعذيب، وأرجو أن لا يكون في سؤالي ما يسيء أو يجرح.

أذكر أنني بدأت أتحدث. قلت للدكتور فالي وأنا أقدم له سيجارة ويأخذها، رغم إنه لا يدخن، لا أعرف يا دكتور عن أي شيء أتحدث، كيف أبدأ وكيف أنتهي، لقد كانت السنين الخمس الماضية كلها، بأيامها، بساعاتها، بدقائقها، وحتى بثوانيتها، عذابا لا يحتمله إنسان.

بهذه الطريقة بدأت أتحدث، وفجأة تجمعت في رأسي آلاف الصور، فانفجرت:

دكتور.. كانوا يصرخون في الليل:

«اقتلوه، لا نريد لهذا الكلب أن يزعجنا أكثر، اقتلوه. امسك يده يا عبد أعدّها إلى الخلف، وأنت يا حاتم، ضع العصا في "....."(7)، لا.. لا تخف، ادخلها، اعترف يا ابن القحبة يجب أن أقتلك! من أنت حتى لا تجيب. سوف أعيدك لـ"..."(8) أمك، اعترف، هات القطط، هات الكلب الأسود، اخلع ثيابك، أتعترف؟ قل أين هادي؟ أين نجم؟ ألا تقول يا ابن الكلب!»

7 كلمة قبيحة

8 كلمة بذينة

تجمعت الصور في رأسي فجأة، ووجدت نفسي أبكي، لم أبك في حياتي مثلما بكيت هذه المرة، وظل صوت بكائي يصلني مثل هدير مكتوم.

لماذا بكيت هكذا؟ والدكتور فالي، أي إنسان كان بالنسبة لي؟ هل يستطيع أن يساعدني؟ أن يفعل شيئاً من أجل أن يخلصني من العذاب الذي أحسه في داخلي مثل سيول مجنونة؟ كان يجب أن أفعل شيئاً، أن أحطم الزجاج، أن أحطم رأسي، أن أرتمي على الأرض، لكن البكاء كان الطريق الوحيد الذي رأيته مفتوحاً أمامي.

تركني الدكتور فالي أبكي فترة طويلة. لم يستنكر، لم يمد يده إلي، حتى إذ أحسست بالراحة، قمت ووجهي إلى الأرض، وقفت في زاوية، أخرجت منديلاً ومسحت عيني ووجهي ثم التقت سيجارة، أولعتها واستدرت نحو الدكتور فالي.

حاول أن يبعد نظراته عني. هل كان يبكي في تلك اللحظة؟ هل كان يخشى أن يضعف وينهار! رأيت شيئاً في عينيه، لكن وأنا أسمع كلماته فيما بعد، تبين لي أن الرجل الذي أراه لا يشبهني أبداً. قال لي وهو يتطلع عبر النافذة، لكي لا تلتقي عيوننا:

— أخشى عليك يا مسيو رجب.

وصمت كأنه لا يريد أن يتابع، وخيم علينا جو من الخوف. كنا نسمع خلاله خطوات غامضة في الدهليز. بذل الدكتور

فالي صوته تماما وقال:

– أقدر الصعوبات التي واجهتها، لكن اعتبرك رجلا، والرجال لا يسقطون.. يجب أن تعرف أني الوحيد الذي بقيت من عائلتي. قتلوا اثنين من إخوتي، قتلوا أمي، ثم قتلوا زوجتي. كنت أسيرا، وقررت. منذ اللحظة التي وصلت البندقية فيها إلى يدي، وحتى نهاية الحرب، لم أتركها. أريدك أن تكون حاقدا وأنت تحارب. الحقد هو أحسن المعلمين. يجب أن تحول أحزانك إلى أحقاد، وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تنتصر، أما إذا استسلمت للحزن، فسوف تهزم وتنتهي، سوف تهزم كإنسان، وسوف تنتهي كقضية، والذي أعرفه أن بلادكم بحاجة إليكم، ما زلتم في أول الطريق. كل ما أرجوه منك الآن المحافظة على صحتك، لكي تستطيع مواصلة الحرب. لا أعرف من تحارب، ومن أجل ماذا، لكن يبدو لي أن أمامكم أشياء كثيرة يجب أن تفعلوها.

كان الدكتور فالي وهو يتحدث يتموج صوته، يرتفع وينخفض، وكأن التعب أو المرض يثقل عليه، أخرج من درج الطاولة زجاجة دواء، التقط منها حبتين، أعطاني واحدة، وأخذ لنفسه أخرى.

قال وهو يناولني كوب الماء:

– هذا النوع من الحبوب يمتص الأحزان، لكن لن أعطيك منه أكثر من هذه الحبة، لكي لا تتعود عليه، يجب أن تتعود

على إرادتك، كما كنا في زمن الحرب.
بعد أن شربت حبة الدواء، أخذ الكوب وشرب، وسألني
وعينه تنصبان علي من فوق:
— ماذا تقول؟

هزرت رأسي بالموافقة. ضرب كتفي بصدقة وقال:
— الآن.. أستطيع أن أفحصك لأرى مدى تأثير العلاج.
قمت بإذعان إلى طاولة الفحص. امتدت يده إلى صدري،
إلى ظهري، كانت يده باردة وكانت أنفاسه وهي تلفح ظهري
تلهب، شد شعري وهو يقول:
— هل ستبقى هنا فترة طويلة؟

— ربما، لا أعرف بالضبط، قد أبقى شهرا أو شهرين!
— في الأسبوع الأخير، يجب أن أراك مرة أخرى، سوف
نجري فحوصا جديدة لنرى مدى التقدم!

في حفلة الترحلق على الجليد التي تحدثت مرسيليا عنها
كثيرا، وانتظرتها بفارغ الصبر، رأيت عبد الغفور لأول مرة.
لا أدري كيف ساقنتني قدمي في ذلك المساء إلى مسرح
الطاحونة الحمراء، فجأة وجدت نفسي وسط كتلة بشرية كبيرة

تنتظر الساعة لكي تصبح السادسة. وقفت بدافع الفضول، لم أفكر بفرقة الجليد ولم أكن أتصور أنني خلال دقائق سأكون جالسا إلى جانب فتاة شقراء. حصل كل شيء بالصدفة. رأي، سألني بلهجة باريسية وهو يضحك، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى أننا كلانا من الشاطئ الشرقي للمتوسط، أن كنت أحتاج إلى تذكرة، سألني وقال يحاول أن يوضح ويعتذر:

— كنت أنتظر صديقا من باريس، لكنه لم يأت، والآن عندي بطاقة زائدة، هل تحتاجها؟

ودون تفكير وجدت يدي تمتد إلى جيبي وأدفع له ثمنها! حصل الأمر فجأة، وما كدت أدخل حتى رأيته، خجلت كثيرا وأنا أنزلق مثل سمكة إلى ذلك الكرسي الفارغ! كان يجلس إلى جانبي، ناحية اليمين، وفتاة شقراء جميلة ناحية الشمال. وخلال الدقائق الباقية على بداية الحفلة، سألني أن كنت أجنبا، فلما هزرت رأسي بالإيجاب، قال:

— اترك لي فرصة لأن أحزر من أي مكان أنت؟!!

شعرت إنه يريد كسر الجليد الذي بيننا بسرعة، أجفلت، حتى أن الندم شبك ذراعيه حولي، فظننت إنه مكلف بمراقبتي، وإلا كيف التقطني من الشارع وأوحى إلي بشراء البطاقة؟ والآن كيف يتعرف علي بهذه الطريقة التي تعطيه الحق في أن يتحدث ويمزح؟

قلت والظنون تغزو رأسي:

— أنا من هناك، لا حاجة لأن تحزر، ويبدو أننا نعرف بعضنا قبل الآن؟ أين التقينا؟

التفت إلي تماما، نظر في وجهي وشفته السفلى تمتد، كأنه لا يصدق. قال:

— منذ رأيته، قدرت انك من هناك، لكن لم نلتق من قبل!

— هل أنت متأكد؟

— متأكد جدا. وصمت ثم سأل: هل تظن أننا التقينا؟

— يخيل لي ذلك!

— أين

— ربما على ظهر الباخرة، وكدت أقول له في السجن.

كانت هذه البداية، ولا أعرف لماذا أصبحنا أصدقاء.

كان عبد الغفور يدرس الفنون الجميلة منذ ثلاث سنوات في مرسيليا، قضى هذه الفترة دون أن يسافر، كما قال لي، إلا مرة واحدة إلى باريس، وقال إنه يكره السياسة ولا يحب أن يتحدث فيها، وليست له صلة بالطلبة، وإنما يقضي وقته كله في المعهد، ثم بالمتاحف، وما تبقى يقضيه مع النساء!

وبطريقة لا زلت اعتبرها غامضة حتى الآن، أصبحنا أصدقاء، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. تحدثنا عن مرسيليا وفرنسا، تحدثنا عن الفنون، وتأكدت في النهاية إنه لا يمكن

أن تكون له علاقة بأولئك الذين قالوا لي قبل السفر:
«اذهب إلى أي مكان تشاء، لدينا من الوسائل ما يجعلنا
نعرف ماذا تفعل. احذر، لا تظن أننا بعيدون عنك».

لو كان عبد الغفور إنسانا، آخر، أذنا أخرى، لأنقذني، لكنه
صم أذنيه تماما، وقال لي مرة، ونحن نتطلع إلى لوحة
غارنيكا:

— أتعرف لو أن رساما عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه
بالحجارة! أتعرف لماذا؟

— لا!

— لأن الحضارة سلم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب
أن تبدأ من أول السلم، وشعبنا لم يكتشف بعد السلم ولم يسمع
بشيء اسمه حضارة، لذلك فإن كل محاولة لإقناعه بغير ذلك
خطأ.

— هل تقصد أن طريقة الرسم غريبة، أم الموضوع؟

— كلاهما: الطريقة والموضوع.

— الطريقة ربما، أما الموضوع، فإن مهمة الفنان، استلهم
قضايا شعبه: المآسي، الأحزان، الطموحات، وهذه اللوحة
مأساة كبيرة، وقد استطاع بيكاسو أن يقود ثورة من خلال هذه
اللوحة.

– كان بيكاسو يقود شعبا استوعب الحضارة، أما هناك فإنهم لم يستوعبوا شيئا.

– عليك إذا أن تساهم!

– علي أن العن القدر الذي جعلني أولد على ذلك الشاطئ.

– لماذا؟

– لأننا نزحف إلى الخلف، نرفض الحضارة ونحاربها، وأماننا وقت طويل لنذكر هذه الحقيقة!

– تخطئ...

– لكي لا أدفع ثمننا غاليا، أفضل الخطأ!

– تقصد انك تخاف من السجن؟ من المسؤولية؟

– هذا ما أقصده بالضبط!

منذ ذلك اليوم لم أتحدث معه في السياسة، لم أشر له ابدا أنني كنت سجيناً، وأن السجن مزقني ودفعني إلى مرسيليا جثة تنتظر ساعة النهاية. شعرت أنني لو قلت له كلمة، لظهرت كاذبا، وصمت.

سافر عبد الغفور بعد فترة، وحمل معه رسالة لحامد، وضمنها رسالتان لأنيسة وعادل. وأوصيت عبد الغفور أن يمر عليهم كل ثلاثة أيام، وأن يذكرهم بالأوراق. لم يسألني عن هذه الأوراق، ولم أقل له. أكد لي إنه سيحضرها معه،

وسوف يعرف كيف يخفيها.

سأهين أثناء غيابه المعلومات والمذكرات التي يجب أن أقدمها للصليب الأحمر في جنيف.

تلقيت رسالة من أنيسة لم ارتح لها. قرأتها مرتين، لم تقل شيئاً خطيراً، لكن أحس أن الخطورة في الأشياء التي لم تقلها.

لماذا تريدني أن أعود بسرعة؟ الشوق؟ شوقها وشوق الأولاد؟ لو كان الشوق هو الذي يدفعها لأن تلح علي بالعودة، لكتبت ذلك بشكل آخر، لقالت كلمات أخرى، يبدو إنها كتبت الرسالة أكثر من مرة، لاحظت ذلك لأنها قدمت سطراً على آخر، ومن التاريخ. ربما تعرضوا إلى مصاعب بسببي، سأكتب خلال أيام، وإذا جاء عبد الغفور سيوضح لي كل شيء!

قبل هذه الرسالة فكرت بمجرد عودة عبد الغفور أن ابدأ حياة جديدة. حدثته عن ذلك. قال وهو يضحك: إذا قررت فالأمر سهل، سأطلب من صديقتي إيفلين حالما تعود من باريس، أن تبحث الأمر مع أبيها، وأعتقد أن أباهما سيرحب بك في معمل الصابون الذي يملكه!

الرسالة أول إشارة حمراء تبرق في حياتي الجديدة. لا أريد أن أتعجل، لكن يبدو أنني سأضطر لإعادة التفكير في

المشاريع التي تملأ رأسي.

رسالة حامد واثقة، لها رنين متألق، يقول لي: اعتن بصحتك، أما موضوع العودة، فقررره بالشكل الذي يروق لك.

لماذا يكتب حامد بهذه الثقة؟ لهجته تحمل معنى التحدي، ولأول مرة تكون عبارته قصيرة حاسمة، في المرات السابقة كان يكتب بطريقة أخرى.

والنقود لماذا حولها بهذه الطريقة؟ هل منعه من تحويلها فاضطر أن يرسلها بهذا الشكل؟

هل الطريقة التي اتبعها أسهل الطرق وأقصرها؟

إنهم يتعرضون لمصاعب، لو أن الحياة هناك تسير بشكل طبيعي، لما لجأ حامد لأسلوب جديد، سواء بالرسالة أم بإرسال النقود.

أين أنت يا عبد الغفور؟ يجب أن ترجع بسرعة لكي تقول لي كل شيء!

علي الانتهاء بسرعة من إعداد المذكرات، إذا انتهيت منها سوف أسافر يوم السبت مساءً، وصباح الاثنين أكون على باب الصليب الأحمر. يجب أن أقابل المدير العام وأشرح له كل شيء، وبعد أن نقضي فترة طويلة في الحديث والأسئلة

أقدم له المذكرات، وسأبقى في جنيف بضعة أيام، ريثما ينتهون من دراسة المذكرات، لنبحث في الوسائل الفعالة التي يجب أن يلجأ إليها. لن تطول إقامة عبد الغفور. سيكون هنا الأربعاء وأبعد تقدير الجمعة. سأكون في جنيف أثناء عودته، لكن يجب أن أعود بسرعة لكي استقر وأرتب حياتي من جديد، كل شيء متوقف على المعلومات الجديدة، لا أريد أن التقى بأحد من الطلبة، ولا أريد أن أقرأ جرائد الوطن، إن الجرائد لا تولد إلا المرارة والغضب والطبيب أوصاني الابتعاد عن كل ما يولد الانفعالات، ما زلت استمع إلى نصائحه وأطبقها، ويجب أن أحاول الاستمرار!

جاءت طليقة الرحمة. جاءت يحملها اسم مجهول لم أسمع به من قبل ولم أعرف شيئاً عنه. رسالة جادة، قصيرة، وواضحة أشد الوضوح.

«السيد رجب إسماعيل.

أرجو المعذرة لأنني أكتب إليك دون معرفة سابقة، ولكن الظروف تضطرنني لذلك. لكي لا تظن أن في الأمر سوءاً أو مؤامرة، أشعرك أنني صديق لحامد، وأنا الذي حولت إليك النقود في الفترة الأخيرة، حولتها إليك من خارج البلاد، بعد أن تعذر على حامد تحويلها. سيدي، الأمر دون مقدمات، أن

حامد رهينة الآن، أوقف خلال الفترة الأخيرة، وطلب منه بعد التوقيف مراجعة مركز الشرطة ثلاث مرات يومياً، لكي يثبت وجوده. لقد حددوا له شهراً وطلبوا منه خلاله حضورك، قال إنه لن يكتب إليك مهما حصل، ويبدو إنه حذر أختك، لأنها مرت علي قبل بضعة أيام، وكانت حائرة لا تعرف ماذا تفعل! أضع أمامك هذه المعلومات، تاركا لك أن تتصرف، علما بأن أحدا لم يطلب مني ولم استشر أحداً فيما كتبت، ولكن تقديري الخاص أن وضع حامد يستدعي المراعاة، خاصة وأنت تعرف أن الأطفال دون أبيهم سيواجهون مصاعب حقيقية.

أخشى في حال معرفة حامد بما قمت به أن يلومني على ذلك كثيراً، ولكن تقديري أن وضعك قد سُوي، وليست هناك مخاطر حقيقية في حال وجودك هنا، أرجو أن تتخذ قراراً ايجابياً، خاصة وان الفترة التي أعطيت لحامد، ستنتهي في نهاية الشهر الحالي!

مرة أخرى أرجو المعذرة، وتقبل تحيات صديق لم تره من قبل!

حسني عبد الجليل

قبضوا على حامد إذًا! حامد الآن رهينة، وسيبقى رهينة

حتى أعود، قالوا لي:

«سننتظرك شهرين، يجب أن تعود بعدهما، ولا نقبل تقارير طبية أو أية معاذير أخرى، نحن نعرف كيف يعطون التقارير الطبية في الخارج».

الآن أفكر بالإقامة والعمل، كنت أفكر بجنيف، ذلك النشيد الذي سينشده العالم كله بحجرة واحدة، ليخيف الطغاة والجلادين، ويوقفهم! والرواية أية رواية يمكن أن أكتب؟ لقد أخطأت مرة، سقطت مرة، والآن تتاح لي الفرصة مرة أخرى لأن أنهض، لأن أصرخ، لن أتركهم حتى يقتلوا حامد. يكفي أنهم قتلوا هادي ورضوان، يكفي إنهم جلدوا المئات والآلاف، وأنا لست غريبا عن السجن، أن مت لن أترك ولدا ورأيي يبيكي، أما إذا قتلوا حامد فسوف يترك أربعة أطفال، يجب أن أفعل شيئا. لن أتركهم!

بقي لآخر الشهر عشرون يوما، يمكن أن أسافر خلال هذا الأسبوع، ويمكن أن انتظر أسبوعا آخر، يمكن أن أنتظر عبد الغفور، حتى إذا عاد، جاءت معه الرسائل والأخبار، وسوف أعرف كيف اتخذ قرارا، سيكون قراري هذه المرة، دفاعا أخيرا. أعرف أنني لن أغفر لنفسى، لن أغفر مهما فعلت. كانت الورقة ترتجف تحت يدي المبللة بالعرق، ولكن وقعت، سقطت... والآن هم ينادونني لكي أسحب توقيعي.

الطهارة، الغفران، آلاف الأمنيات البريئة التي راودتني في

الليالي المرعبة، تصورت إنها ضاعت مني للأبد. الآن أراها أمام عيني مرة أخرى. لا أطمح للطهارة الحقيقية، لا أطمح بالغفران، لكني أريد أن أفعل شيئاً لكي أنقذ بقايا الإنسان التي أحسها تتهدم في داخلي كل لحظة، أنهم كرماء لدرجة لم أكن أتصورهم، أنهم يتيحون لي حتى الدفاع كل لحظة، سأواجههم مرة أخرى، ليفعلوا، أي شيء، لم أعد حريصاً على حياتي التي تبدو لي مليئة بالقذارات والخيانة والسقوط.

سأقول لهم: عدت، عدت كما أريد، لا كما تريدون. سأعطيكم جسدي، أما إرادتي فقد تعلمت في رحلة الظلمة كيف أجدها مرة أخرى، خذوا أيها الجلادون، خذوا جسداً لم يبق فيه إلا الإرادة، افعلوا كل ما تستطيعون، سيكون صمتي الرد الذي يقطع أحشاءكم...

ومنذ الغد، ومن مرسيليا سأبعث إلى الصليب الأحمر، سأقول له كل شيء، أعرف أن شيئاً لن يتغير، وأعرف أنهم سيضربونني أكثر من قبل، لكني سأعود إليهم. ها أنذا أعود وقد تعلمت شيئاً واحداً، وتعلمته بالصدفة، أتعرفون هذا الشيء، أيها الجلادون؟ إنه الحق، ومن حقدي وحقد الملايين سوف نهدم سجونكم، سنهدم سراديبكم، لن نبقي سجناً واحداً يقف على تلك الأرض الممتدة من الشاطئ الشرقي للمتوسط، حتى أعماق الصحراء، سنهدم السجون بأيدينا، لا بالسنتنا كما كان يفعل الكثيرون، كانوا يهدمون السجون بالسنتهم ثم يرمونها مرة بعد أخرى، ويفتحون فيها أنفاقاً جديدة،

ويضيفون لها دهاليز جديدة لكي تستقبل الأفواج الجديدة.
خذوني هذه المرة، ولكن لن تأخذوا إلا جسدا ميتا، أما ما
حاولت أن أنقذه فأنتم الذين أنقذتموه!

لما أعطاني عبد الغفور الأوراق، طويتها بعد أن ألقيت
عليها نظرة سريعة، ماتت في نفسي رغبة الكتابة. إذا أتيح لي
أن أكتب، فسوف أفعل، ولكن يبدو أن الوقت الآن أصبح
متأخرا. وكلمات الأرض كلها لن تستطيع إنقاذ سجين يتعذب!
سألت عبد الغفور:

— هل رأيت أختي؟ هل قالت لك شيئا؟

كان حزينا وهو يقول:

— رأيتها، قالت أتمنى أن يبقى رجب في فرنسا، ولكن يبدو
أن بقاءه سيكلفنا غالبا.

— وهل طلبت منك أن أعود؟

— لا.

— وحامد؟

— قال لي لابق حتى يشفى، لابق أطول فترة، ماذا يريد أن
يفعل هنا، في بلاد السراييب؟

– وغير ذلك؟

– كانت أختك حزينة، ولما ودعتني بكت.

– سأعود الأربعاء القادم، سأعود على أشيلوس!

غدا أعود. في الحادية عشرة تفلع الباخرة، وأية باخرة؟
أشيلوس مرة أخرى. الصدفة؟ الرغبة المبهمة؟ الشعور بالألفة
الحاقدة؟ شيء ما يدفعني لأن أؤجل السفر خمسة أيام من أجل
أن أعود على أشيلوس.

لن أشتمها، لن أقول عنها، يا أشيلوس الزانية، يا آكلة
الأبناء. فعلى ظهرها لم يمت أحد، لم أسمع طوال ثمانية أيام
أن أحداً مات. أفرغت كل من وما في جوفها في الموانئ،
وغدا تعود، لتتوقف في الموانئ مرة أخرى، وتقذف ما في
جوفها، حتى إذا جاء مينائها الأخير، حملت حقيبتني ونزلت.

تعبت هذا الصباح، انتهيت من صنع غلاف داخلي للحقيبة،
سأضع الأوراق بين الغلافين حتى لا يكتشفها أحد، إذا غرقت
أشيلوس ذهبت معها الأوراق إلى قاع البحر، وظلت راقدة
هناك حتى تنفتت أو تنهشها الأسماك. لن تراها عين زجاجية،
ولن تلمسها أصابع الشمع، وإذا لم تغرق أشيلوس، ووصلت
ميناءها الأخير، سأحمل الحقيبة بيد ثابتة وأنزل، سأرمي
الحقيبة في وجوهم وأنظر إليهم تلك النظرات الغاضبة

الواثقة، وأقول بتحد وهم يسألونني عما أحمل:

— إليكم الحقيبة فتشوها!

وسأبقى ثابتا، فأخرج من الميناء وأدق الباب والضحكة تملأ وجهي، حتى إذا رأيت الصغار قبلتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التي قبلتهم بها قبل ثلاثة شهور. أعود إليهم الآن بالهدايا والضحكات والأمل. أقول عدت. كان ممكنا أن أبقى، فكرت كثيرا بالبقاء، ولكن ها أنذا أعود. لم يدفعني أحد للعودة، عدت لأنني لم أستطع أن أبقى، ويسألني الصغار، يتراکضون حولي، ينظرون إلي، وأحملهم واحدا واحدا، وأقبلهم وأنا أضحك، حتى إذا تعبوا أو ملوا أخرجت لهم الهدايا، وقفزوا مرة أخرى، كل واحد بيده هديته، يضعها قريبا من صدره ويتقدم ليرى هدايا الآخرين، ثم يتبادلون الهدايا ليختبروها، ثم يسترجعون هداياهم، وهم يضحكون.

عندما يهدأ الصغار، سأنظر في عيني أنيسة طويلا وأضحك من اللهفة والرغبة والشوق. لقد عدت يا أنيسة، عدت وحدي. لا أريد من أحد أن يدفع ثمن حريتي الزائفة! قرأت يا أنيسة الأوراق بسرعة، وكتبت أوراقا مثلها. والآن، أتعرفين أين وضعت الأوراق كلها؟ إنها معي، ولكن لن تعرفي مكانها، وتنظر إلي بتساؤل، حتى إذا نظرت للحقيبة والثياب ولم تر شيئا، قمت مثل قط، لأنترع الغلاف بخشونة وأستخرج الثروة الزائفة!

بمقدار ما حرقت من الأوراق، كما قالت أنيسة وهي تكتب إلي، فقد كنت أتلوى من الألم، خلال الشهور الثلاثة حين كنت مضطرا لتمزيق ورقة. أشعر بالخوف يا أنيسة، كتبت، كتبت دون وعي. وربما لو قرأت ما كتبتة في وقت آخر لحقدت على نفسي كثيرا، لأنني لم أحرق هذا الهراء، ولكنني الآن رجل مختلف أشعر بنهايتي اقتربت، لم يقل لي أحد هذا، لكني قرأته في عيون الأطباء. كانت طريقتهم بالحديث توحى بهذا الخوف. قالوا كلماتهم ببطء: «لا نريد أن تخلق في نفسك وهما كاذبا، أنت مريض ومرضك صعب لكن لا خطورة على حياتك، في حالة واحدة: إذا تقيدت بالنظام الذي نقترحه عليك»، والنظام يا أنيسة لا يستطيع احد أن يتقيد به: «الراحة، الهدوء، الأكل الجيد، البعد عن كل الانفعالات الحادة، المفرحة منها والمحزنة». هذه بداية القائمة، لم أتركهم يكملونها بحرية، قاطعتهم أكثر من مرة، ولكنهم حرصا على القيام بالواجب، حتى اللحظة الأخيرة، ألزمني أن أسمع كل شيء. لا أتذكر، ولا حاجة بي لأن أتذكر. قررت أن أعيش الأيام القادمة بطريقتي الخاصة، وبعد ذلك ليأت الطوفان!

سأدفع إليك الأوراق يا أنيسة لتقرأها. سأتركك وحدك، لن أتطلع إلى عينيك، ولن أسألك بعد ذلك، ماذا سأفعل بالأوراق؟ أحرقها كما فعلت في مرات سابقة؟ تقي أني لا ادري. الشيء الوحيد الذي يسيطر علي الآن أن أقول بضع كلمات قبل أن أنتهي، وكما قلت لك في رسالتي مع عبد الغفور، لا يمكن

للإنسان أن يكتب كل شيء، فعذاب الكلمة أقسى من أن يتحملة إنسان بمفرده، ولذلك فكرت بتلك الطريقة المجنونة، أن يتكلم عدد من الناس، في وقت واحد، وبأصوات مختلفة، وبعد أن يتكلموا، دون رابط، دون نظام، ليكن أي شيء، هل ما قالوه رواية أم هذيان؟ لا يهم. حامد لم يكتب لي شيئاً، سوى كلمة كبيرة في منتصف صفحة بيضاء، كتب: «الكلمة آخر سلاح يمكن أن ألجأ إليه».

وعادل، ماذا تتصورين أن عادل كتب الي؟ كتب رسالة قصيرة، قال فيها: إنه لم يسمع بقائد انتصر بالكلمة، السيف وحده هو الذي يحقق النصر. هكذا قال لهم معلم التاريخ، عندما حاول أن يسأله بمكر لكي يستعين بإجابته في الكتابة إليّ.

وأرفق بالرسالة صورة قال إنه استوحاها من التاريخ. صورة غزال وذئب، وأمامهما ولد صغير يحتضن قطة.

ماذا يريد عادل أن يقول لي؟ فكرت طويلاً في الصورة، بالأفكار التي دفعته لأن يصورها، لكن لم أصل إلى أية نتيجة، سوف أخلو به وأسأله، الآن لا أستطيع أن أستنتج فكرة محددة، صحيح إنه مرت في ذهني مجموعة تخيلات، لكن أياً منها لم يثبت. ربما كان الذئب الجلد، والغزال الضحية، ولكن ما معنى الطفل الصغير والقطعة؟ وأية علاقة بين المشهدين؟ فكرت أن الذئب قوي والغزال ضعيف، والصورة

ترمز إلى القوة بشكل ما، لكن ما علاقة الصغير والقطعة؟ ولم أصل إلى نتيجة أيضا. حاولت تذكر أية دروس في التاريخ مقررة على عادل، وما يمكن أن يوحي له بالفكرة، لكن لم أصل.

أنت يا أنيسة كتبت. كتبت أكثر مما قدرت وأكثر مما ينبغي. فتحت لي جروحا كانت قد انطفأت منذ وقت طويل. استغربت كيف تتذكرين حوادث، تبدو لي صغيرة متوارية، بحيث يعجز الإنسان عن تذكرها، كنت أكبر مني، تتذكرين أحسن مني، ومع ذلك، فإن القضايا التي تشيرين إليها لا تثبت في ذاكرة الإنسان أكثر من الزمن الذي يستغرق حصولها. كم مرة عدت في حياتي إلى المائة؟ هل أتذكر؟ كم مرة اغتسلت هل أتذكر؟ حتى لو حاولت أن أعيد مثل هذه الأمور إلى احتمالات رياضية بحثة فإنني لن أصل.

من الأفكار التي تحدثت عنها يا أنيسة سأكتب ذات يوم رواية إذا قدر لي أن أعيش، لا أعرف بعد ماذا سيكون موضوعها، ولكن الأوراق التي أحملها معي تكفي. وصلت إلى أفكار محددة، لكن كما قال لي حامد، وكما قال عادل الحكيم، ما فائدة الكلمة؟ من سيقراها؟ حتى ولو قرئت فما تأثيرها؟

في لحظات معينة، وكثيرة، تبدو لي الكلمات مثل أوراق الشجر في بداية الشتاء: مصفرة، ضعيفة، حتى إذا صفعتها

الريح تطايرت ثم ديست بالأقدام. لم تعد الكلمة كأننا حيا قادرا على أن يفعل شيئا، والآن وأنا أعود استغرب تلك اللحظات المرعبة التي تدفعني بقوة لأن أكتب، أتصور أن الكتابة كفارة، ولكن.. سأصمت. سأضع الأوراق في مكانها، وسأعود إلى الوطن. انتظر أن يقبضوا علي، أن يعذبوني، أن يقتلوني بالرصاص، لم يعد الأمر يهمني، وأعتقد إنه سيكون شرف لي لو فعلوا شيئا مما أتصوره، ولكنهم كثيرا ما يخطئون، انهم لا يفعلون ما ينبغي أن يفعل، وكل ما أخشاه أن أتحوّل إلى جيفة في الوطن، جيفة ينفر منها كل الناس، إذا رأي الصغار من بعيد قالوا: جاسوس. إذا جلست في مقهى، قال الكبار وهم يديرون لي ظهورهم: انظروا.. الرجل الأصفر الوجه، الذي يجلس وراءنا، خائن. تصوروا الخيانة لونها اصفر، وتبدو على الوجوه بسرعة! أريد أن أكفر بشكل ما يا أنيسة، سأتحداهم، كل ما أريده منك أن تصبحي لي أكثر من أخت، أن تصبحي أما، تماما مثل أمي. أتتذكرين كيف كانت!

وداعا يا أصدقائي، وداعا يا أحبتي. وأنت يا أمي أودعك الآن، واغفري لي، وبصوت يمزقه الأسى أسألك: هل يمكن ليديك أن تستقبلا رجلا سقط ويحاول من جديد، حتى بعد سقوطه، أن يتطهر؟

-6-

لو كان رجب حيا لكتب لكم رواية أو شيئا آخر تستمتعون وأنتم تقرأونه، لكن رجب رحل، رحل منذ وقت بعيد، ولا أجد الآن تكريما لذكراه إلا أن أهرب الأوراق التي عاد بها إلى وراء الحدود وأنشرها كما هي.

لو كان حيا لغضب كثيرا مما أفعله، أما وانه أصبح تحت التراب، فأعتقد أن بعض الكلمات يمكن أن تفعل شيئا، رغم إنه أوصاني بحرقها. ما زلت أتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري الآن، تماما الآن:

بعد أن عاد ظل ثلاثة أيام. إنها الأيام الوحيدة التي رأيت فيها رجب يعود طفلا. فبعد أن زال الشحوب الذي كان يبدو واضحا في وجهه، ربما من تأثير التعب، بدأ يقرأ «مذكرات بيت الموتى» وقد ألح علي كثيرا أن أقرأه، واشترى كمية من الأوراق وقلمما جديدا، وقال إنه سيبدأ الكتابة حالما ينتهي من قراءة الرواية.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة طاووس، الريشة التي كانت بداخل القرآن الذي تركه أبي، ولا أعرف كيف امتدت يد رجب، والتقطتها، وظل أثناء القراءة يداعب بها وجهه، حتى إذا انتهى من فصل وضعها حيث وصل وطوى الكتاب، وغاب في أفكاره.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة الطاووس، ولكن الريشة لم تتحرك، لم تغادر الصفحة الثامنة والتسعين. جاءوا في ذلك

الوقت، عند الغروب. لم نكن نتوقع مجيئهم في مثل هذه الساعة، لكنهم كانوا واثقين بحيث أنهم دقوا الباب بعنف، وصرخوا..

كان رجب يلبس منامته باستمرار تحت بنطاله، لما رأهم يدخلون، ظل جالسا وابتسامة شجاعة على وجهه، قال لهم بتحد:

— لقد تأخرتم، تأخرتم كثيرا!

انتزع احدهم الكتاب، تطلع إليه بقرف ثم رماه على الطاولة، التقطه رجب ووضع ريشة الطاووس في نفس الصفحة التي وصل إليها، ناولني الكتاب وسألهم:

— هل آخذ شيئا معي؟ أقصد إقامتي هذه المرة طويلة أم قصيرة؟ قال له واحد لم أر وجهه، لأنه كان يقف وراء رئيس المفزة:

— الأفضل أن تأخذ ما تحتاج إليه!

قال رجب وهو ينظر إلي ويبتسم:

— لن آخذ شيئا، لن أحتاج إلى شيء!

وساروا. مشى واحد أمامه، واثنان ورائه. ورجب مشى بثقة وجسارة، قبل أن يصل الباب التقط ليلي التي تقف أمامه وتضحك، حملها إلى صدره، وسمعتة يقول لها:

– هؤلاء هم الوحوش الذين حدثتك عنهم الليلة الفائتة،
أتتذكرين؟

وتلقى بظهره دفعة قوية كادت توقعه، استند إلى الجدار بيد
وظل يحمل ليلى باليد الأخرى، وقبل أن ينزلها على الأرض،
قال بصوت عال:

– انظري إليهم جيذا، لا تضحكي لهم أبدا يا ليلى!
وبكت ليلى، كان بكاء حارا خائفا، ولما لم أستطع أن أوقف
بكاءها بكيت معها..

ظل الباب بعد خروجهم مفتوحا، حتى بعد أن غادروا بفترة
طويلة، ظل الباب مفتوحا. لم يكن أحد منا يملك القدرة أو
الرغبة لأن يفعل شيئا. جاء عادل بعد أن أخذوا رجب بقليل،
ولما رأي أبي أني أبكي أنا وليلى صرخ من الألم:

– من مات يا أمي؟

وجاء حامد بعد الغروب بساعة، وبمجرد أن رأي ولما لم ير
رجب أحس. قال يسأل عادل:

– هل أخذه؟

وهز عادل رأسه دون أن يجيب!

وغاب رجب، وحتى الآن لا أحد منا يعرف ماذا فعلوا به،
ماذا سألوهم؟ بقي سجيننا ثلاثة أسابيع ثم جاء!

أتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت
بصري، كأنها تقع الآن، تماما الآن!

دقوا باب البيت، في الليل المتأخر، دقوه عدة مرات، ثم
سمعنا هدير سيارة، كان الهدير قريبا صاخبا في البداية، ثم
أخذ يبتعد حتى غاب.

لما فتح حامد الباب، رأى خيالا أسود على العتبة، صرخ
من الدهشة والخوف ثم امتدت يده الخائفة المرتجفة، وكنت قد
اقتربت منه، إلى الخيال الأسود تحسسه، كان رجب، كان
يلهث! كانت أنفاسه قصيرة خابية، حتى ظننت إنه فقد وعيه.
حملناه إلى فراشه، نزعنا ملابسه وبدأنا نتحدث معه. كان
يسمع حديثنا، ويجيب إجابات قصيرة غامضة، أما يداه فقد
وضعهما فوق عينيه، وكأنه يخاف وهج النور!

الجسد الممدد على السرير، الذي بدا شديد الهزال
والشحوب، هل هو رجب؟ كنت أفكر، لكن لما سمعت صوته
بكيت، دفنت رأسي على طرف السرير وبكيت!

ولما رفعت رأسي مرة أخرى لأراه عرفت الحقيقة كلها.
لقد فقد رجب بصره. كانت عيناه ميتتين، تنظران ببلاهة،
تدوران بدون معنى، ثم قال تلك الكلمة المرعبة، قالها بهدوء
مقدس:

— أعطني يدك يا أنيسة، أعطني يدك لأنني لم أعد أرى.

وصمت.

حاولت في اليوم الثاني أن أتحدث معه، ولكن لم أظفر
بجملة كاملة، كان يردد كلمات، مجرد كلمات، وأغلب
الأحيان، لا رابط بينها، وليست ذات معنى. أما الأكل الذي
حضرته له فلم يستطع أن يأكل منه إلا القليل.

وفي اليوم الرابع، عند الظهر تماما، مات رجب.

كيف حصل ذلك؟ لماذا؟ حتى هذه اللحظة لا أدري.

كان في صباح ذلك اليوم أكثر حيوية، وقد طفت على
وجهه ابتسامة، أما رغبته في أن ينهض فقد أقنعت أنه يؤجلها
إلى اليوم التالي.

ولما طلب من ليلى أن تجلس إلى جانبه رفعتها إلى السرير
وجعلتها تقبله، ثم أجلستها إلى جانبه. بدأت أحس بالتفاؤل،
وقدرت أن صحته لن تلبث أن تتحسن، أما الكلمة التي قالها
دون أن أسأله، ودون أن نتحدث، فهي:

– احرقني الأوراق!

قلت له أشجعه:

– إذا كانت الأوراق تضايقك يا رجب، فيجب أن تحرقها
أنت، كما كنت تفعل من قبل.

وردد بانفعال:

— احرقها، احرقها، لا أريد أن يقرأها أحد.

ووعدته، دون حماس، أن أفعل، وبدأت أحدثه كيف اني أستطيع البقاء طوال عمري إلى جانبه، لكي أكتب ما يمليه علي، وأننا سنفعل أشياء كثيرة.

كان يهز رأسه بحزن، ولا يتكلم، وفجأة رأيت وجهه يعتكر، كأن ألما حادا يتلوى في داخله. أنزلت ليلى عن السرير، ودفعتها خارج الغرفة، وظللت واقفة إلى جانبه.

أتذكر تلك اللحظة المجنونة، وكأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماما الآن.

تقلص وجهه، ثقلت أنفاسه، أصابه شحوب شديد، ثم فجأة هز رأسه بقرف متألم.. وانتهى! أتذكر تلك اللحظة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماما الآن.

وبعد ذلك لا أتذكر شيئا.

في الأسبوع الثاني لوفاة رجب أخذوا حامد. منذ ذلك الوقت أخذوه، وحتى الآن انقضت سنة وأربعة شهور، وحامد وراء الجدران، وكل ما استطعت أن أعرفه، أنهم اعتبروه مسؤولا عن كلمات نشرت في صحيفة أجنبية، وهذه الكلمات تقول أن السلطات هي التي قتلت رجب، بعد أن فقد بصره من التعذيب.

أنا امرأة خاطئة، الخطيئة ولدت معي وسرت في دمي،

ويبدو إنها سترافقني حتى آخر أيام حياتي. لا أقول هذه الكلمات الآن لأعذب نفسي، لأكفر عن خطايا، لا.. أقولها وأنا متأكدة تماما أنني خاطئة.

قبل أيام رأيت عادل يجمع الزجاجات الفارغة في البيت، تركته يفعل لأرى ماذا يريد أن يصنع بها، ولشدة ما عجبت، عندما رأيته يملؤها بالزيت والبنزين، انتزعتها بقوة، وكدت أضربه، لولا أنه بكى وقال لي:

— أريد أن أهدم السجن وأخرج أبي.

لا أعرف، هل أخطأت عندما منعت عادل؟

اعرف أنني أخطأت من قبل، وخطايي تلك لا أغفرها لنفسي أبدا.

عملت كل شيء لكي يخرج رجب من السجن، كانت خطيئتي الكبرى والأولى، ثم حين فكرت أن يعود، بعد أن قضى ثلاثة شهور في فرنسا. أن بكائي أمام عبد الغفور كان أقوى دافع حمل رجب على العودة، وعاد وقتلوه.

لكن من قتله غيري؟ لو ظل هناك لما امتدت إليه أيديهم، ولفعل أشياء كثيرة تزعجهم، ولكن وأنا أزور حسين عبد الجليل، ثم لما بكيت أمام عبد الغفور، انتزعته، لكي أقتله. ولم تتوقف خطيئتي عند رجب، لأنني لمت حامد كثيرا، بعد أن سمعته يتحدث بصوت عال وأمام عدد كبير من الناس عن

مقتله. قلت له في تلك الأمسية، بعد أن ذهب الرجال:

— أما أن لنا أن نستريح يا حامد؟ ألا نترك رجب يستريح في قبره؟

سألني بغضب:

— ماذا تريدان أن أفعل؟

— لا تقل أنهم قتلوه.

— ومن قتله غيرهم؟

— رجب انتهى، ويجب أن لا تقول شيئاً الآن.

ولم يتوقف حامد، بدأ يلعب لعبة رجب ذاتها، ولكن بشكل غامض ومحير. لم يتركوه طويلاً، أخذوه، منذ سنة وأربعة شهور أخذوه، ولم يسمحوا لي أن أراه إلا قبل شهور. كان يضحك وهو يسألني عن الصغار، وطلب مني بالباح أن لا آتي في المرة الثانية إلا وليلى معي!

والآن لا أحاول أن أمنع عادل فقط، وإنما أردت أن أضربه، هل أخطئ مرة أخرى وأنا أمنعه؟

قرأت أوراق رجب، بكيت كثيراً لما قرأتها، وبكيت أكثر لأنني لم أستطع أن أكون له أما كما أراد. ولا أعرف الآن، هل أخطئ إذا تركتها تسافر خارج الحدود لتتشر؟ لو ظل رجب حياً لغضب، أنا متأكدة من ذلك، فقد طلب مني أن أحرقها،

ولم أفعل، ولأنني أتركها الآن تسافر، ليقراها كل الناس، رغم كل ما فيها من أخطاء وصرخات، ولا أعتقد أن رجب يرضى عنها أو يريد لها. لكن كما قلت لكم: أنا امرأة خاطئة، وأريد أن أتبع طريقة رجب ذاتها: أن أدفع الأمور إلى نهايتها... لعل شيئاً بعد ذلك يقع.

ربيع 1972

عبد الرحمن منيف



عبد الرحمن منيف (عبد الرحمن بن إبراهيم المنيف) أديب واقتصادي سعودي، ولد في عَمّان بتاريخ 29 أيار/ مايو 1933، وتوفي في دمشق في 24 كانون الثاني / يناير 2004. ينحدر أصله من بلدة قصيباء بعيون الجواء في منطقة القصيم السعودية. توفي والده إبراهيم المنيف عام 1936 عندما لم يتجاوز عبد الرحمن الثالثة من عمره. رعته أمه نورة الجمعان وجدته لأمه ذات الأصل العراقي. قضى سنوات طفولته وشبابه الأولى في عَمّان خلال عقد الأربعينيات.

- أتم منيف دراسته الابتدائية والثانوية في عمّان، وحصل على الشهادة الثانوية عام 1952م. انتقل بعدها إلى بغداد للالتحاق بكلية الحقوق، لكنه أبعد عن العراق بقرار سياسي عام 1955م مع مجموعة من الطلاب العرب. انتقل إلى مصر لإكمال دراسته. ارتحل إلى يوغوسلافيا عام 1958م، والتحق بجامعة بلغراد الحكومية، حيث حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام 1961م، متخصصاً في اقتصاديات النفط والأسعار والأسواق.
- مارس العمل السياسي الحزبي ضمن حزب البعث العربي الاشتراكي، ووصل إلى عضوية القيادة القومية، قبل أن ينهي علاقته التنظيمية رسمياً بعد مؤتمر حمص عام 1962م.
- عمل بعدها في الشركة السورية للنفط بدمشق، ثم في مجلة «النفط والتنمية» العراقية في بغداد (1975-1981م)، قبل أن ينصرف عن الصحافة الرسمية ليتفرغ للكتابة الروائية. استقر في دمشق بشكل دائم منذ عام 1986م حتى وفاته.
- بدأ منيف كتابة الرواية بعد بلوغه الأربعين من عمره، فأصدر باكورة أعماله "الأشجار واغتيال مرزوق" عام 1973م.
- وتميزت رواياته بعالم سردي معقد يعكس رؤيته للحياة وحرية الإنسان، مع تطوير مقومات التعبير النفسي العميق، واستيعاب الألفاظ المعاصرة والمصطلحات العلمية الحديثة. جمع أسلوبه بين العمق الفني ووضوح الدلالة، موجهاً خطابه للقارئ العادي دون إخلال بالقيمة الأدبية. يُعد منيف. وألف منيف ما يزيد على ثلاثين كتاباً تنوعت بين الرواية والدراسات الفكرية والنقدية. من أهم أعماله الروائية:
- تزوج منيف من السيدة السورية سعاد قوادري، وأنجب منها ثلاثة أبناء وابنة واحدة.
- ارتبط بصداقات أدبية وفنية عميقة، أبرزها:
 - **جبرا إبراهيم جبرا:** جمعتهم صداقة وثيقة تجسدت في رواية مشتركة هي "عالم بلا خرائط".

- **مروان قصاب باشي:** الفنان التشكيلي الذي رسم أغلفة كتب منيف، وألف عنه منيف كتاباً ضخماً عام 1996م.
- **محمد الباهي:** الصحفي الموريتاني الذي خصص له منيف رواية سيرة ذاتية رثائية بعنوان "عروة الزمان الباهي".
- عرف منيف في سنواته الأخيرة بعزلته الاختيارية الإبداعية أثناء الكتابة، ثم انفتاحه على محيطه الاجتماعي بعد إصدار أعماله، حيث كان يستقبل الأصدقاء في منزله بمنطقة المزة بدمشق.
- الجوائز والتكريم والوفاة
 - حاز منيف على جائزة العويس الثقافية في دورتها الثانية عام 1989م.
 - جائزة ملتقى القاهرة للإبداع الروائي في دورته الأولى عام 1998م.
 - أهديت الدورة الثالثة للملتقى (2005م) إلى اسمه تخليداً لأعماله.
 - أدرجت جريدة "أخبار الأدب" المصرية خماسية "مدن الملح" ضمن قائمة أفضل مئة رواية عربية.
- توفي منيف في دمشق عن عمر ناهز السبعين عاماً إثر أزمة قلبية، ودُفن في مقبرة الدحداح بناءً على وصيته. وفي أواخر مايو 2007م، تعرض قبره للتخريب وهدم أجزاء منه دون التعرض للرفات، كما تعرضت مكتبته الشخصية للسرقة، مما أثار تكهنات حول الدوافع والجهات وراء هذه الأفعال.

قائمة كاملة بأعمال منيف (مرتبة زمنياً)

1. الأشجار واغتيال مرزوق (رواية - 1973م).
2. قصة حب مجوسية (رواية - 1974م).

3. شرق المتوسط (رواية - 1975م).
4. النهايات (رواية - 1977م).
5. حين تركنا الجسر (رواية - 1979م).
6. سباق المسافات الطويلة (رواية - 1979م).
7. عالم بلا خرائط (رواية مشتركة مع جبرا إبراهيم جبرا - 1982م).
8. مدن الملح (خماسية روائية - 1984م وما بعدها).
9. لوعة الغياب (غير روائي - 1989م).
10. الآن هنا.. أو شرق المتوسط مرة أخرى (رواية - 1991م).
11. الكاتب والمنفى وآفاق الرواية العربية (غير روائي - 1991م).
12. سيرة مدينة: عمان في الأربعينات (غير روائي - 1994م).
13. الديمقراطية أولاً.. الديمقراطية دائماً (غير روائي - 1995م).
14. القلق وتمجيد الحياة (غير روائي - 1995م).
15. مروان قصاب باشي: رحلة الحياة والفن (غير روائي - 1996م).
16. عروة الزمان الباهي (غير روائي - 1997م).
17. بين الثقافة والسياسة (غير روائي - 1998م).
18. أرض السواد (رواية ثلاثية - 1999م).
19. جبر علوان.. موسيقا الألوان (غير روائي - 2000م).
20. ذاكرة للمستقبل (غير روائي - 2001م).
21. رحلة ضوء (مقالات - 2001م).
22. العراق هوامش من التاريخ والمقاومة (غير روائي - 2003م).
23. أم النذور (رواية - 2005م).
24. أسماء مستعارة (قصص قصيرة - 2006م).
25. الباب المفتوح (قصص قصيرة - 2006م).